بيان مشترك ضد الزمن

عرف القرّاء العرب «صلاح عيسى» كاتباً وباحثاً فى التاريخ السياسى والاجتماعى، وصحفياً مشاغباً تثير كتاباته الزوابع، لكن قليلين منهم هم الذين عرفوه قصاصاً وروائياً. استلهم تجربة جيل الستينيات العربى، فى روايته «مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا». وفى هذه المجموعة من القصص والروايات القصيرة، التى كتبت بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٧١، على مشارف — وفى أعقاب — هزيمة يونيو ١٩٦٧، فجمعت بين «النبوءة» و «المرثية» ، وجاءت صرخة ضد القهر الذى يطارد كل أبطالها : فى الشوارع والأزقة، وفى الزنازين وغرف النوم وفى الصحف والإذاعات، فهم منفيون فى جلودهم، تحيط بهم — من داخلهم ومن حولهم — مشانق متينة الصُنع.

بين أبطال قصص هذه المجموعة ثوار خائنون، وبشر محاصرون، وجنرالات بلا جنود.

وقد يسأل القارئ : أى جنرالات ؟! وأى زمن ؟!

وهو سؤال نتركه له، فلعله يتعرف على هؤلاء الجنرالات، ويوقّع — مع المؤلف — على هذا البيان المشترك ضد الزمن.



باب مشترك ضد الزمن

صلاح عيسى

قصص وروايات قصيرة

الكتاب : بيان مشترك ضد الزمن
(قصص وروايات قصيرة)

الكاتب: صلاح عيسى

الطبعة : الأولى ١٩٩٢

الناشر : سينا للنشر
المدير المسؤول : راوية عبد العظيم

١٨ شارع ضريح سعد . القصر العيني . القاهرة
جمهورية مصر العربية . تليفون : [illegible]

الغلاف : عماد حليم

الإخراج الداخلي: إيناس حسني

الصف : سينا للنشر

قصص وروايات قصيرة

صلاح عيسى

بيان مشترك ضد الزمن

.. إلى أول نشوة.. وآخر دمعة

«صلاح»

١٩٨٧

هذا زَمَنُ الحق الضائع

لا يَعرِفُ فيه مقتولٌ من قاتله، ومتى قتله

ورؤوس النــاس علــى جــثث الحيوانات

ورؤوسُ الحــيوانات علــى جــثث النــاس

فتحسس رأسك !

فتحسس رأسك !

«صلاح عبد الصبور»

١٩٦١

كنت أقول ضاحكاً أن أجهزة الأمن السياسى، هى المسئولة عن تدهور مستوى الشعر والقص، وأشكال أخرى من الإبداع الأدبى والفنى، ففى السجون - التى كانت تُساق إليها الناس على امتداد كل العهود - تتوقد عواطف، وتنثال ذكريات، سرعان ما تدفع كثيرين لكتابة رسائل شوق لتلك الدنيا التى لا تدرك بهجتها إلا حين تصدك عنها أبواب الزنازين، وبنادق الحراس وأسوار السجون.. وعادة ما تقود هذه الرسائل أصحابها لنظم الشعر، وقص القصص، وأحيانا لنحت التماثيل، وتلوين التصاوير!

ولأن جيلنا من المشتغلين بالسياسة و الكتاب والأدباء والفنانين، كان يحمل أحلامه، كما يحمل صلبانه، فقد التقينا فى الزنازين كثيرا، وتعارف أكثرنا بين جدرانها، خلف هذه الجدران، نشأت صداقات، ونبتت مودات، فليس كالسجن مكان يتكشف فيه الناس على حقيقتهم، وفيها سمعت من الشعر أعذبه، وقرأت من القصص أجملها، واكتشفت ألوانا من الغناء الشجى. وبين جدرانها عانيت من ذلك الفن الذى شنّعتُ بسببه على أهل البص والحبس، فأضفت إلى قائمة الاتهامات التاريخية الموجهة إلى البصاصين العاملين فى أجهزة الأمن السياسى تهمة: إفساد مستوى الإبداع!

فلولا أنهم ساقوا الناس إلى ظلام الزنازين أفواجاً، ما توقدت عواطف، تُوهم أصحابها أن ما يكتبونه من كلام ركيك، هو فن.

وذات مرّة، أقمنا احتفالية شنّعنا فيها على هذا الشعر، وذلك القص، فألقى صديقى المهندس «تيمور الملوانى» - أحد القادة البارزين للحركة الطلابية فى الستينيات والسبعينيات - قصيدته الشهيرة، التى يقول فى مطلعها «أحبتك... تلك مصيبة.. فى حق البشرية» وألفت بالاشتراك مع «عبد الرحمن الأبنودى» و «صبرى حافظ» غزلية يقول مطلعها:

«حبيبتى

عيناك بُلْغتان

عيناك

كخرمتى منخار ليلنا العميق».

ومن أشعر أبياتها، بيت يقول:

«وحين سرت تحت سور الداخلية العريض

حبيبتى

قررت أن أبيض».

وفيما بعد أدركت أن هذا النوع من الفن، هو مقاومة مشروعة للقهر، وتصد باسل للذين يودعون أصحاب الضمائر وراء الأسوار، ليقتلوا فى قلوبهم - بالحصار والتكرار - قدرتهم على إخصاب الحلم..

وكنت قد بدأت مغامرة الكتابة بمحاولة للقص لم تكتمل، فبعد تجارب، كان بعضها مبشراً، مللت القص، لأن أهل القص من جيلى - وفيهم مبدعون حقيقيون - فتحوا مناظرة حمقاء موضوعها: هل الابداع الفنى أكثر تأثيرا أم النضال السياسى المباشر؟ وفى موجة من الغباء تعصبوا للأول، فتعصبت - فى موجة غباء مضاد - للثانى، وأحرقت ما أبدعته، وخاصمت المبدعين، وشنعت عليهم.

ولو أنك قلت : ليتك لم تعد للقص.

فسوف أقول : عندك حق..

ولكنى - من سوء حظ كلينا - عدت إليه.

وفيما عدا قصتين، كتبت الأولى - وهى «الحب والصمت» - عام ١٩٦٤، والثانية - وهى «جنرالات بلا جنود» - عام ١٩٦٥، فإننى لم أعد إلى القص، إلا فى نهاية عقد الستينيات، حيث كتبت بقية قصص هذه المجموعة خلال عامى ١٩٦٩ و ١٩٧٠ والشهور الأولى من عام ١٩٧١، فى معتقل طره السياسى، دون أن ألقى بالاً إلى المشنّعين - ونشرت بعضاً منها فى بداية السبعينيات فى عدد من الدوريات العربية، وظل مشروع جمعها فى كتاب يتسرب مع الزمن حتى نسيته، ولعلى خشيت أن تستغل للتشنيع على أجهزة البص والحبس، مما يسئ إلى علاقات «المودة» التى يحملها لى أهلها.

وفى صباح ٥ يونيو من هذا العام - ١٩٩٢ - استيقظت فإذا خاطر الدعوة لاحتفال قومى بالعيد الخامس والعشرين للنكسة، يختلط بخاطر الشروع فى تجميع هذه القصص، الذى ظل يلح علىّ حتى لم أعد استطع منه مهرباً، وإذا بى أقاوم أسباب ترددى فى نشرها وأقول لنفسى: لعلها لو لم تصلح أن تكون قصصا.. تصلح أن تكون وثائق عن الزمن الذى عشناه، بأفراحه وأتراحه.. وضحكاته ودموعه، ففيها ظلال كثيرة من أوجاع عقد الستينيات، الذى ابتعدت ملامحه، وغرقت مسراته وأحزانه، حتى ليبدو - فى ضوء ما يجرى الآن - وكأنه من عقود العصر الحجرى.

أما وقد شاءت الظروف أن تنشر هذه المجموعة من القصص، بعد حوالى عشرين عاماً من كتابتها، فتلك تذكرة ضرورية، اكتشفت ضرورتها وأنا أقرأها جملة - بعد كل هذا الزمن الذى انقضى - فلم تدفعنى القراءة لكتابة هذه المقدمة فحسب، بل قادتنى - كذلك - لتغيير العنوان الذى قدمتها به إلى المطبعة لأول مرةً، - وهو «جنرالات بلا جنود» - فكان هذا «البيان المشترك ضد الزمن».

وقد تسأل : أى زمن؟.. وأى جنرالات؟

وذلك ما أسأله أنا أيضا!!

صلاح عيسى

مدينة الصحفيين - ٢٠ يونيو ١٩٩٢

الحب والصمت

«ووقف رجل فى أكبر ميادين المدينة ... وهتف بسقوط اللجلجة»

مثل كل الناس، كان لى أب.. ومثل بعضهم، كان أبى عسكرى بوليس فى أحد أقسام المدينة. وكان شاربه ذا عضلات قوية، ولقد ظللت لفترة طويلة، أتوهم أنه شئ عظيم، عظيم جدا، هكذا كان البائعون فى حارتنا الضيقة يعتبرونه، فيخافون منه، وينافقونه.

ولقد حدث وأنا فى السابعة أن أبى أقلع عن التدخين لقلة دخله، كما أبطل أيضا عادته اللطيفة فى حملى. ولم يعد يسمح لى أن أضربه بالكف على صدغه كما كنت أفعل وأنا صغير. ولم يعد يدللنى، بل أنه ضربنى مرة عندما بُلْتُ على المرتبة الصغيرة.

وحدث أننى فى تلك السن هويت الطيارات الورقية، وكنت أتفنن فى صنعها وألوانها، وأصنع لها حبلاً طويلاً جدا وأتركها تطير.. إلى حيث لا يمكن أن أراها.. إذ ذاك كنت أترك الخيط الذى فى يدى، فتختفى الطائرة بين طيّات السحاب.

وكانت السماء تمتلئ أيامها بطائرات كثيرة، كذلك كانت شوارع المدينة تمتلئ بتلاميذ المدارس يهتفون بأصوات مبحوحة بسقوط شخص لا أذكره، وكان أبى يخرج لكى يفرّق المظاهرات: على رأسه خوذة حديدية بيضاء، وفى يده عصى خشبية غليظة، يضرب بها الأولاد طول النهار، ثم يعود فى المساء منهكا متهدلا، وإذا ذاك كنت أراه غلباناً..

ومرة، كانت مظاهرات المدينة صاخبة أكثر مما ينبغى. وكان أبى يومها مرهقا، والأولاد ينحدرون من ميدان رحب نحو الشارع الذى يقود إلى حارتنا. صعدت النساء إلى أسطح البيوت. وأصوات المظاهرة الصاخبة تتسلل عبر جزيئيات الهواء، وعندما انحشرت كثافتها فى حارتنا الضيقة زغردت بعض الجارات تحية لأبنائهن، ورفع بعض الأولاد رؤوسهم إلى الأسطح حيث أطلت الأمهات فى فرح عذرى. والذى حدث - إن لم أكن قد نسيت - أن المظاهرة كانت تضم أغلب أولاد حارتنا، وكانت النساء تتفرجن على أولادهن فى فرحة بكر، والجنود يضربون، وانتحى أبى ركنا قصيا فى مكان ما من الشارع، ورفض أن يضرب الأولاد أمام أمهاتهن وهو شئ لم يعجب «زكى أفندى» - قائد القوة - فصاح فيه:

- أضرب يا عسكرى..

- ما أقدرش يا أفندم!..

ثار «زكى افندى». وخشى أن يفلت زمام الأمر منه، والمظاهرة تتحول إلى غضب جنونى، وبقية العساكر قد توقفوا عن الضرب وأخذوا يتابعون المناقشة بين قائدهم وبين أبى. وهوت كف «زكى أفندى» فوق صدغ أبى. وزأر:

- اضرب يا ابن الكلب

انغرست قدمه المجنونة فى كرش أبى الكبير.

أكبر الرجال والنساء فى حُبنا أبى لأنه رفض أن يضرب أبناءهم، لكن أبى كان حزناناً. وعندما عاد فى الظهيرة دخل حجرته متخفيا. نسيت أنا الحكاية. جففت الدموع القليلة التى ذرفتها على أبى الطيب. وصنعت طيّارة جديدة خضراء، وصنعت لها حبلا طويلا.. وأطلقتها. أخذت اغنى لها:

يا حمام.. يا مروح بلدك متهنى !

خلينى أنوّح وأنت اللى تغنى !

سمعت صدى صوتى فأعجبتنى حلاوته. وأخذت أغنى، وأغنى. ارتفع صوتى. ملأ الدنيا الصامتة حولى حياة وحركة. لسانى كان يدور فى فمى بسرعة، وشفتاى تنفرجان.. وتنفرجان، والصوت يخفت، ويعلو، والطيارة تطير، تطير. أنا وحدى، والنافذة والفضاء والحمام.

فجأة، سمعت صوتا لا علاقة له بأصوات الآدميين، شئ كزمجرة أسد أو عواء كلب، لم استطع أن أميز شيئا.. التفت فى خوف متذعر. كان أبى فوق رأسى، وجهه قد انقلب. عيناه مكان فمه. أنفه فى جبهته، وأذناه قد طالتا.

قبل أن يعود إلىَّ احساسى بالأمان ويتحرك لسانى الذى توقف فجأة، هوت يد أبى على صدغى.

كان كفه ضخما.. وثقيلا!!

وصحيح أن شوارع المدينة ظلت مرتعا للمظاهرات بعد ذلك. رغم أن الأولاد الذين كانوا يصنعون المظاهرات قد كبروا، وتوقفوا من زمن عن صنعها، إلا أن بطون النساء، كانت تقذف دواما أولاداً جدداً، يدخلون المدارس، ويصرخون، ويشتمون دواما أشخاصا لا أذكرهم. ولكننى لم أصنع شيئا من هذا، فمنذ اليوم الذى ضربنى فيه أبى نبت دمل صغير فوق لسانى. ويوما بعد يوم تضخم وتضخم، وعندما عالجته، كنت قد أصبحت لا أستطيع

الكلام بسهولة، وأصبحت أكرر الحرف الواحد مرات عشر قبل أن انطقه، وأصبحت الكلمة الواحدة تتطلب منى زمنا طويلا لكى أقولها، وهرب منى العيال يصنعون المظاهرات، ويتكلمون ويصرخون.

وكانت شوارع المدينة، ما تزال تلد المظاهرات، وكان أبى ما يزال يلبس خوذته الحديدية، ويأخذ عصاه الخشبية القصيرة ليضرب العيال. وعندما زرته فى مكان عمله بقسم الشرطة، اكتشفت بأسى قليل أنه لم يكن عظيما كما توهمت وانه ليس إلها، وبدتْ وقفته المتصلبة أمام باب حضرة المعاون، شيئا مزرياً وسخفيا، وكذلك اختلاسة الوقت ليدخن نصف سيجارة بشبق ملهوف، ولم يستطيع خيالى الطفل أن يتصور الإله واقفاً كالتمثال البليد، يضرب كعبيه فى الأرض، ويرفع يده إلى جبهته فى رعب كلما مر بعض الناس، وبعد وقت، اكتشفت أن أبى كان يحمل الباش شاويش «عوضين» فوق كتفيه، الذى كان هو الآخر يحمل الصول «محجوب» جالساً على منكبيه، ثم المعاون، فضابط المباحث، ويتربع المأمور كالزكيبة فوق أكتاف الجميع، وهكذا تحول أبى فى خيالى إلى ثور ذى قرنين، ولا أعنى أنه أصبح قوادا – فأمى كانت شريفة – ولكنه كان كذلك الثور الذى سمعت – وأنا – طفل أنه يحمل الدنيا فوق قرنيه، وهكذا أطلقت عليه، اسم «صابر أفندى ذو القرنين».

ولفترة بدأ أبى كفيلسوف خطير يتسا ءل بإلحاح :

– لماذا يضربون العيال، أضرب لهم مائة ولد بعشرة جنيهات؟! حرام!..

على أن السؤال الذى ظل يلح عليه، هو الطريقة التى يتمكن من خلالها أن يشتم «زكى أفندى» معاون القسم الذى ضربه بالكف أمام أهل حارته، ليستعيد كرامته المهيضة، ومكانته الضائعة بين أهل الحارة.

وعندما لمعت النجمة بجوار التاج على كتف «زكى أفندى»، وأصبح

مأموراً، كانت ذراع أبى تزدان بثلاثة شرائط، واحتل مكتبا فى القسم فى حجرة واسعة مزدحمة بمكاتب ناحلة، تنتشر فوق أسطحها دوائر من آثار أكواب الشاى الساخنة. وشخبطة أسماء الشاويشية، والصولات الذين عملوا عليها منذ زمن سحيق.

وعندما كنت أجول فى شوارع المدينة بحثا عن منوم مغناطيسى، قرأت أنه يستطيع معالجة اللّجْلجة بطرق مجربة ومضمونة وسرية جدا، كان أبى يصرخ فى البيت:

– «زكى أفندى» كلب.. ابن كلب!.

وكانت أمى توافق فى تسليم.. ولكن «ذا القرنين» كان مع ذلك ينفجر فيها:

– أنت مصيبة.. أنت لا تفهمين .. كان يوما أسود .. ذلك اليوم الذى زفونى إليك فيه!..

وأمى طيبة.. و «ذو القرنين» لا يكف عن الصراخ :

– مائة ولد بعشرة جنيهات، يا أنا.. يا إنت.. يا كلب.. يا ابن الكلب!

وقد كان. ذات صباح صرخ «ذو القرنين» فى وجه «زكى أفندى» صرخة صغيرة جدا.. وأحيل أبى إلى مجلس عسكرى، ورفتوه.. وعندما عاد بلا شرائط، ودون بدلته السوداء الأميرية، كان محمولا على الأيادى، وقال طبيب عجوز ناحل الشعر، انه فقد القدرة على الحركة وعلى الكلام..

فى تلك الاثناء توقفت المظاهرات التى كانت تملأ المدينة، وانتشرت المقاهى ووقف الأولاد على نواصى الشوارع يعلقون سلاسل من الذهب فى أعناقهم، وفشلت «الشيخة سعدية» فى علاجى من اللجلجة بعد أن سرقت منى نقودى، وسرق الباقى صاحب مكتبه عند ناصية الشارع كنت اشترى

منه الكتب والصحف لا قرأها وأكلم صفحاتها بعيوني. وتحول عدد كبير من زملاء أبي إلى العمل فى دوريات المساء، لأن المظاهرات قد توقفت، وحتى عندما سارت مظاهرة فى شارع المدينة الرئيسى تهتف بحياة أحد لاعبى الكرة، اشترك فيها العساكر. وحملهم الناس على أكتافهم، وكانت الحروف التى تصر على أن تتدلل فى حنجرتى قد بلغت إذ ذاك ثلاثة عشر حرفا كاملة، حسب الأحصاء الذى ظللت ليلة أجريه، وظهر لى مقال فى مجلة صغيرة، كان قراؤها يعدون على الأصابع، وأصبح أبى يتكلم بعيونه، وفقد شاربه كل عضلاته، فأسترخى متدليا – وطلب ذات يوم أن يحلقوه له.. وقد فعلوا!..

وعندما قبضوا على المنوم المغناطيسى الذى كنت أعالج على يديه علاجا فاشلا، قابلت «سعاد» وكان هذا فى بوفيه الكلية، ولقد ظللت صامتا، وان كانت عيناى قد تكلمتا مع عينيها لحظات، كما تحدثت أيضا حديثا خاطفا مع صدرها وفخذها. وكانا لبنين كوسادة تشتاقها رأسى. كذلك فعل الهواء مع شعرها الأسود الطويل، وغنت مطربة فى الراديو للحمام الذى يروح لبلده متهنياً، تاركاً إياها تنوح وهو يغنى. وسمعت أزيز طيارة فى السماء، وتحدث طالب عن أهمية أن ينتظم مشجعو أحد أندية المدينة فى رابطة حتى يردون على الرابطة المنافسة. وقال آخر أن أحلى شئ أن تغنى وأنت فى الحمام حيث ينطلق صوتك كما تشاء.

ولم تتحدث «سعاد» كثيرا، ولكنها أبدت أعجابها بما كتبت، وقالت إننى كاتب لا بأس به، وإن كانت كتابتى لم تعجب والدها.

وفى تلك السنة صبغ والدها لحيته الشهباء، وتزوج بنتا بكرا لأن زواج الأبكار مفضل على زواج الثيبات، وفصل طالبين من معهده الدينى لأن أحدهما غنى فى الفصل أغنية «كلمنى عن بكره» بينما ضبط عسكرى بوليس الآخر يقبل فتاة فى إحدي الحدائق العامة.

ولقد حدث أننى أحببت «سعاد» وبالطبع لم أقل لها ذلك، لأننى بعد عدة تجارب أجريتها أمام المرآة اكتشفت أننى عندما أقول لها كلمة: أحبك. فان هذا يحتاج إلى سبع دقائق بالضبط تزيد إلى عشرة إذا أضفت قبلها كلمة أنا!..

وكان عساكر البوليس فى شوارع المدينة التحتية، يتربصون بالعشاق فى تلك الأيام، ويفاجئون الشفة فوق الشفة، ويتلذذون بتعذيبهم، ثم يبتزون منهم بعض النقود، ونشرت إحدى الصحف أنه قد ضبط عشرة أولاد يقبلون عشر فتيات فى شارع واحد من شوارع المدينة، وتربص عدد من الرجال فى النواصى المظلمة من تلك الشوارع، وظهرت مهنة جديدة، هى الارتزاق من تهديد المحبين.. وسمعت أن فتاة من أسرة كريمة أصيبت بالشلل فى احدى تلك الكبسات!..

وفى ذلك اليوم الذى اذاع فيه الراديو خبر صعود كلبة إلى الفضاء، كتبت رسالة لسعاد، قلت لها فيها أننى كنت أصنع طيارات من الورق وأنا صغير، واننى لو واصلت ذلك فلربما أصبحت مخترعا عظيما، ورويت فى خطاب آخر، قصة الدمل الذى نبت فى لسانى، وقلت لها أننى لن احبها، وسأنسى هذا السخف، وكان جسد سعاد شهيا كوجهها، وقد جاءت به على أقدامها ساعياً إلى، وكانت شفتاها دسمتين يخرج الكلام منهما كاجتذابات مغناطيس، وفى أحد شوارع المدينة التحتية سرنا: الذراع منها فى الذراع منى، وهى تتكلم.. وتتكلم.. وتتكلم.. وغنى رجل فى الشارع المجاور اغنية «كلمة.. هى كلّ آمالى». وتحدثت خلايا رأسى مع بعضها، وتكلم كفى مع كفها حديثا سريعا، ومر عسكرى بوليس فى الشارع، وتنحنح بصوت مسموع، وسكتت «سعاد» حتى مر ثم عادت تتكلم.. وتتكلم!..

وفى شوارع المدينة الأمامية كثرت الحوادث، ذلك أن الناس كانوا يسيرون فى ذهول، وكتب عالم نفسى فى صحيفة يقول أن الناس يسيرون

كما لو كانوا قد فتحوا نوافذ فى صدورهم يتأملون منها فى داخلهم، وأن هذا هو السبب فى كثرة حوادث المواصلات. وحذّر العالم المذكور من أن تنتقل العدوى إلى السائقين، لأن ذلك يعنى انهيار المدينة بأكملها، وأكد أن على الدولة أن تقدم بعض المباهج والأفراح، وأن تزين الشوارع، ففى رأية أن منظر الشوارع القبيح هو السبب فى أن الناس قد فتحت نوافذ فى صدورها، وأدخلت رأسها تتأمل ما فى الداخل.. وقد قرأت هذا الرأى وأنا مستلق على شاطئ البحر، ذلك أننى هربت من المدينة، أو من «سعاد» بالذات، وكرهت لسانى المتدلل، ولسانها المنطلق، وصمت شفتى كالجليد!..

أما أبى، فكان يوجه عناية خاصة إلى شاربه، بعد أن عادت له قدرته على الكلام والحركة، فما يكاد ينبت، حتى يصيح بهستريا:

- ماكينة الحلاقة ياهوه.. الموس «يانبوية»..

وهكذا كنت استيقظ صباح كل يوم على صرخته، فأطرد خيال «سعاد» من الهجرة، وانهى حديث خلايا مخى مع بعضها، وأبدأ يوما ككل يوم...

وكان الرجل الذى عاد من القمر، يشغل أحاديث الناس فى كل مكان - فقد اكتشف أن الناس هناك بلا شفاه وانهم يتكلمون بكثرة، ويثرثرون، ويملأون الدنيا ضجيجا، واغلقت المدينة النوافذ التى فتحتها فى صدورها وبدأت تتبع أخبار سفّاح خطير، كان يضرب بالرصاص، زوجة خانته، وصديق طعنه من الظهر، واستدعيت قوات البوليس من الاحتياطى، لمطاردة المجرم، وحمل أبى جسده المنهك، واشترى صحيفة، وقرأ التفاصيل باهتمام شديد ثم هتف:

- «نبوية»، «سعيد مهران» يا «نبوية»!

وهزت أمى رأسها المكلل بالشيب، وبدأ أبى يروى لها الحكاية، ووجه حديثه الى عندما دخلت :

- ولد شهم ، «أدهم».. متى أرى فيك يوماً يازكى الكلب!..

واكتشف البوليس أن السفاح قد حول بيوت المدينة كلها إلى مخبأ كبير، وخلت الشوارع التحتية من رجال البوليس وانطلق العشاق يحبون بحرية، ولم يعد أبى يزعق طالبا الموس وماكينة الحلاقة، وانما أصبح يطلب الجريدة.

وفى أحد أيام الربيع التقيت «بسعاد»، وكان هذا فى الحديقة المجاورة للكلية. وجدتها أمامى فجأة. كانت شهية كالربيع. منطلقة كفرحة بكر. وبدون أن أقول شيئا، انفرجت شفتاها المبتسمتان عن كلمة: يا حبيبى، وسارت بى فى ممر أخضر طويل.. وتمتمت بكلمات قليلة، منها أننى غبى وأننى لم أفهم شيئا، وأنها تحبنى وهذا كفاية.

- أنا لم طلب منك الزواج، من قال أن أبنا نا سيكونون مثلك صامتين... لماذا لا يكونون مثلى، ثم.. من قال أنك ستظل صامتا طول عمرك!..

لم أتكلم. هفت خلاياى إليها، كنت أمر معها تحت قوس طويل من الشجر الأخضر، عندما رفعت قامتها القصيرة، أحاطت عنقى بذراعيها وألصقت شفتيها الدسمتين بشفتى المضمومتين.. فانفرجتا تعتصران شفتيها،. تفتحت خلاياى، مر داخلها شئ كالهوا،.. إندسّ صدرها الرمانى الصلب فى صدرى. أحسست بشئ كالحياة يتدفق فى خلاياى، فى لحظة لقائنا المحمومة همست وشفتاى بين شفتيها.

- «أحبك».

لدهشتى لم تستغرق الكلمة أكثر من ثوان.

فى اليوم التالى امتلأت المدينة بأخبار غريبة، ففى اللحظة التى كنت أقبل فيها «سعاد»، كان رجل آخر قد صعد إلى القمر فى صاروخ، ووقف

رجل فى أكبر ميادين المدينة هاتفا بسقوط اللجلجة، وكان أبى قد اختفى كفص ملح ذاب، وبكت أمى وهزت رأسها الذى أبيض شعره. قالت :

- أبوك هرب ورا «سعيد مهران»، يا عالم هل أعيش حتى يرجع أم لا؟.

(١٩٦٤)

جنرالات .. بلا جنود

«.. وأما رأسك .. فما أجملها .. ولكن أين جسدك؟..»

يا «أم هاشم».. يا بنتَ بنتِ رسول الله.. محبوبكم آل البيت شفٌ وجفٌ. امتص الصبر بالشمس كل دمِ عروقه. صابر ما طال الزمن. واقف بلا كلال. أكلت المصيبة قلبه.. والروح خراب..

لهفى عليك يا «حُسَيْن»: طار رأسك من كربلاء إلى القاهرة، مارا بأنحاء المعمورة، فبكت الدنيا دما، ضحك الخواجا اللعين، قهقهة الأصدقاء بلا صوت، كأنما أضحكتهم نكتة عدو، انداح داخل القلب حزنا أمر من العلقم. صاح صائح:

- أنا هنا.. أنا هنا ياستْ، بالأحضان يا جنودى المهزومين فى لا معركة، أكلتكم أرض الرمال المتحركة،

ضربنى فى المساء شخص لا أعرفه، صرخ داخلى ولم تتحرك صفحة وجهى.

هزّ أبوها كرشه المتهدل بالزمن:

- تريد أن تتزوج «سهى»؟. ايه!

ثقلتْ قدماى تحت المائدة.. مددت القدم أبحث عن أرض صلبة أثبّتُ بها رعشتى، الأرض رمال متحركة.. غصت فيها حتى القرار. صخب الصحاب فى المقهى يملأ قلبى عزاء ملتاعا.

«محمود» يدق المائدة بعنف:

- أنت تحب البنت، والبنت تحبك.. ما شأن أبيها؟

لم يرد أحد. دق «الخواجا» على منضدة أمامه:

- أنا صاحب المقهى ولست أنت..

كنغمة نشاز غنى صوت أبيها، من تحت أصابعه العابثة بشاربه الهتلرى، قال لسانه:

- كل ما يهمنى هو مستقبل «سهى».. سألت عنك.. أنت رجل طيب..

جلجلت ضحكة فى صحراء فجاوبها نعيق بوم.. وقالت أمى «اللهم اجعله خيرا» أما كلماته فتحملت ببخر أنفاسه..

- لماذا تريد أن تتزوجها.. بذلتك قديمة.. ولكنك أنيق..

غاص حذائى فى الرمال المتحركة.. حرك «محمود» يده فوق باب الضريح، صرخ:

- نظره يا أم هاشم!!.

دقات قدم الشرطى تأكل سُكْرى. الكأس كانت ملآنه، كذلك أصبحت مثانتى. غنّت خلايا رأسى أغنية قديمة، نقلتها إلى اللسان فتعوج

فتعوج بها وباخت. الروح تشعشع كأنما حملها الكحول المتطاير. الظلمة لا معنى لها، وكذلك البرد. متى قال «محمود»: إهجم عليها. ذات مسيرة فى شارع من شوارع العجوزة. وقال شئ نقى فى داخلى:

- تبدو من بنات العائلات..

قالت موجات الكحول المتطايرة من فيه:

- عائلات؟! يا أرْشَل؟!.. إنها كباريهات.. كباريهات جدا!..

تعلمنا يا أبا حنفى منك ما لم نكن نعلم.. وأما اقتحامك للخطر فشئ يدعو للإعجاب، ولكن أين أنت فى هذه الليلة الشاتية.. هذه البنت فى مدخل الطريق تنطبق عليها شروطك.. واضح أنها كباريهات.. تعلقت ذراعى بذراعها، لم تتكلم، ارتفع شخير الشرطى مارا بين أقدامنا، قالت:

- أين تسكن؟.

السؤال طريف.. والليلة تمشى بنشوة تملأ القلب بألوان من الجنون، وليالى العجوزة، كانت أفراحاً ثملة، ولكن لعن الله الزمن، صفحة الوجه بجوار الأذن اليسرى بها تشوّه خفيف، لهذا انسدل الشعر فوقها عمداً، لعله وشم يؤكد أن يديها تلقت يوما روث الماشية فى غروب طريق قروى. فوق دقات الحذاء ارتفع صوتها:

- الدنيا برد..

- ولكن الكونياك لذيذ..

أما المثانة فلعنة الله عليها. مرّت سيارة مسرعة. غنى داخلها صوت مذياع يقول: يا حبيبى تعال.. تحركت رأس «محمود» فى حركة بندولية، أسبل عينيه، وبربش جفنيه.

- لبيك يا أم هاشم.. جئت ومعى هذا الرجل الطيب، فلبِّك دعا قلبه، ولنا فى رحابك خير ملاذ.

تفصّد الجبين عرقا، نزّ الكونياك الرخيص من كل خلاياى.. قلت: تحاول مرة رابعة. وانحسر الظلام شيئا فشيئا، الفراش تحتنا أعلن افلاسى. ضحكت وسائده. وقالت خلية فى رأسى: لابد.. لعنة الله على الهزيمة. استجمعت صوراً طالما استفزت دمائى.. ولكن شيئا كالصاعقة سحب منى كل قوتى.. أحالنى.. إلى لا شئ. قفزت ليلة العجوزة إلى ذاكرتى فجأة، تم كل شئ ليلتها على ما يرام، وذكريات النشوة ابتعدت، أما الخيبة فلتجرعها من تحت الغطاء. رعشتها العارية الآن ضيق بالبرد، لا طلباً للنشوة، وها نحن نرقد هامدين كما لو كنا خضنا معركة..

سألتها فجأة عن اسمها..

- سهى!!.

استقام الحديث رغم النكبة.. قالت أن أباها كان شيخا من شيوخ الأزهر، ضحكتُ فى الظلام، فقد تزوج أبى منذ عامين..

- ستُذبحين عما قليل!!.

- لا .. تلك أشياء مضت من زمان.. الأفيون لعنة الله عليه!

ألف لعنة على الكذب والخديعة.. استرددت عريك، وفى رأسها حديث لا ريب عن الفتى الذى أفلس..

- لا .. تظنى بى الظنون.. محسوبك فحل وله جولات ولكنها الرطوبة لعنة الله عليها..

- طبعاً.. ضربنى أبى أمس.. منع المطر الناس من الخروج.. وانعدم الايراد.

.. كلماتك كاذبة، كم جسد التصق بجسدك، وأما أن أباها شيخ من شيوخ الأزهر فشئ غير مستبعد، أنت نفسك خطبت الجمعة مراراً، وطالبت برجم الزانية وليس الغريب حقا إلا هذا الضعف الطارىء حتى الموت..

- تصدقى.. كنت يوما من الاخوان المسلمين، وكانت لى زبيبة صلاة.. ثم..

- قال أبى أن المولى يرفع التكليف عن بعض عباده.. وهو منهم..

لذلك صاح صائح فى الخرابة.

- يا شيخ «متولى».. جا ءتك البشارة..

وأبوها ضخم كما ينبغى لتيس، وأما لحيته، فما أشبهها بشعر رأيته فى مكان ما من جسد ابنته..

عند الفجر قالت :

- لابد أن أنصرف، حارتكم ضيقة.. بطحنى طوب الأطفال فى حارة مثلها.

.. ذابت فى الحديث رغبتها فنامت، وأما فمى فقد اشعلته بسيجارة. انقلبت حجرتى إلى مسجد مهيب، صرخ فىَّ الشيخ :

- سودت وجهى يا خبيث..

قلـت :

- يا مولانا إن المولى يرفع التكليف عن بعض عباده..

قال: ولكنك لم ترض المرأة، لهذا غضبت عليك السماوات.

- ولكنى يا سيدنا قد هجرت المسجد من زمن.

قال: أنت حيث كنت تمثل لنا..

والعجيب حقا أن مكان المنبر قد انحسر عن أربع غانيات، وقالت واحدة: تعالَ!. وأما الأخرى فرقصت، أحاطت بى الاثنتان، وانتشى شئ فى داخلى. تكتل ذوب أعصابى.. قلت: نلنا المراد. تشاجرت الشقراء والسمراء مزقتا ثيابى فى جنون. هزّ مولانا رأسه فى رضى..

دغدغت غلة قدمى، فإذا بعينى تعودان من خلال الظلمة.. وهى مستكنة.. فى أحضانى.. قدمها بين أقدامى.. قالت :

- فُتّك بعافيه..

- ابقى قليلا..

فى الليلة الخامسة، حدث المراد. تكتل البرد والارتعاش فى لحظة محمومة. قال داخلى: انتصرنا بحمد الله. أما الضعف فليس إلا تجربة الغرير يلج أرضا طال بينها وبينه البعاد، قال رأسى فلتفتح النوافذ، ولتصرخ فى صمت الحزن بحجرات تضم الرجال والنساء واليأس، قائلا ابشروا فإن فتح الله قريب..

قالت زوجة أبى الجديدة، عندما لامست يدى كفها أول مرة:

- أبوك زعلان منك.. خيبت أمله.

شق صوته الأرض فانفجر تحت اقدامى :

- رفتوك؟.. أنا قلت هذا، مثلك لن يكون ضابطا إلاّ عندما يلغون الجيوش.

حمل بصاقه بقية الكلمات.. وليس كمحمود عزاء لقلب صادٍ.. وأما أبوها، فهز رأسه صارخاً:

- الشرع معى والقانون والحكومة.. فمن معك؟

صفق الحاضرون وطلبوا إعادة البيت. فأطبقت حنجرتى وصحت: «هؤلاء .. آبائى فجئنى بمثلهم .. إذا ما جمعتنا يا جرير المجالس» .. صفقت بيدها فى فرح صبيانى .. قالـت :

- تتزوجنى؟!

- نعـم ..

- ولكن؟...

- الضعف لعنة الله عليه؟!.

- هذا شئ طارئ؟!.

- لا أقصد!

عندما انتظرناها ليعرفها «محمود» أول مرة، صاح وقد لمحها دونى:

- دعك من صاحبتك.. هذه واحدة من الكباريهات..

كم وجه سيقابلك فى الطريق فتفع بسمته اصفرارا، ويضحك حتى يستلقى على قفاه، لمنظر أسرتك السعيد، وما ألذ أن تكون واجهة.. كذلك قال أبوها.

- أحتاج اسمك.. لنضعه على واجهة البيت.. وليأت الآتون كأنهم أصدقاء لك. فألسنة السوء لا ترحم..

بالأحضان أخذنى «الشيخ رواش» وقال

- مرحبا بك فى طريقنا أنت الآن فى طريق الروح الواصلة، من أهل الباطن أنت، علُوية روحك وليست سفلية، نريد منك القلب، وأما بقية الأعضاء، فهى من أهل الدنيا.. تفعل ما يفعلون، وليس على الأعمى والأعرج من حرج. وربك تواب رحيم.

لذلك اهتز الكيان منك فى «الحضرة». واهتزت الأعضاء، وصاح «أبو رواش» هذه ملَبسَة الروح ضعها فى فمك.. وعندما ترتفع إلى الله روحك، وتشد الملائكة إلى السماء، قلبك فلتتبادل الألسنة «ملبسة الروح» إذ ذاك تتحد فى ملكوت السماء القلوب وينتشر الحب من القلب.. إلى كل القلوب.

ودق بمسبحته فوق معدن رنأن وأنشد.

- و «والنبي يا مريد قوم نادي.. قوم حَيِّ جمال الهادي».

فاهتز الجسد بعجزه بندولياً يذهب ويجئ، كذلك لمحت العين في لحظة خاطفة، جسد «زينب» يهتز. وأنت يا مريدة الشيخ، ما أمتع جسدك لولا العجز، أما الآن، فما أشبه اهتزاز جسدي، بمحاولات اليائس يوم ضحكت منه الوسائد. والعجيب حقا، أن تنطلق في جسدك هذه الشرارة الجنسية، لذلك اقتربت أقدامك منها، والتصق جسدانا. مع اهتزاز المريدين. شعشعت الروح. ولتفعل الأعضاء ما تشاء فهي من أهل الدنيا، وأما القلب فهو في طريق الروح الواصلة، فلما التصق عجزها بمنتصف جسدك، انتشت أعضاؤك كأنك شربت خمرا. صحت :

- حيَّ ... يا قيوم

شعشعت الروح، مسُ لسانها شئ لا يصدَق ، انتقل ما في فمها إلى فمك، كذلك حدث العكس، وصاح «أبو رواش».

- مرحبا بك يا سيدي أحمد يا بدوي، شرفت مجلسنا، المريدون من أربعة أنحاء المعمورة، يهدونك القلب وانه لقليل..

ولما سألته :

- يا «بدوي» لماذا أعرضت عن «بنت برّي». أكان مجرد زهدٍ يا رجل؟. كذلك أعرض «يوسفٌ عن إمرأة العزيز»، وكيف أعرف الزاهد من العاجز، وألف لعنة على كل كذبة يصدقها الغافلون!

قلت له:

- مريدك أتى يسألك الحكمة.. أردتُ استنقاذ روح، ولكن منعني أبوها وأخجلني العجز..

قــال:

- فلما أتاها في السحر صائحا: زملوني.. دثروني، احتضنتْ خوفه ومنعت عنه الضُر..ّ وصدَّقته وكانت أول المؤمنين.

- ولكن أباها يا سيدنا رجل شرير.

- وما أنت بقادر على الحكم على القلوب، ولَيست الأعضاء أولا وآخراً إلا من أهل الدنيا.. وأمّا القلب فليسر على درب الروح الواصلة..

لهذا انتقلت إلى بيتها، وقال الأصدقاء: انتهيت. و صاح أبي: ألف لعنة.. وزّينت واجهة المنزل بالورد الأحمر والرياحين، وأعلام بها هلال ونجوم ثلاث. ردد أبوها وراء المأذون «زوجتك ابنتي البكر الرشيد». تأمل «محمود» لحية أبيها، قالت عيناه : أين رأيت مثل هذا الشعر من قبل؟. وأما كتاب «ألف ليلة» فما أمتعه، وأحلام المراهقة كم كانت لذيذة، وكم سرح الخيال محموما، خلف سطر يقول : فلما أتاها وجدها دُرّةً لم تثقب ومهرة لغيره، لم تُركب. تكتل ذوب الأعصاب أول مرة، وبعدها ضحكت الجدران لليال طويلة وقهقه الغطاء ألف مرة وانكمشت الروح خجلا. دق الباب وانفرج عن اللحية. قال الفم المعوج :

- هناك زبون ..

وليس المتعجل لبانته، كالمقيم مع الفشل، لهذا أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، وأما «زينب» فقالت :

- يا سيدنا احتاج حضرة..

تبسمت عجيزتها لمسي، وامتلأ القلب نشوة حتى الثمالة.. وقال «محمود»:

- ينبغي أن ينتهي كل هذا..

وأما الشيخ فصرخت رغوة على جانب فيه :

- يا عبدى.. أنت تريد.. وأنا أريد.. ولكنى فعّالٌ لما أريد.

- يا مولانا، العجز اخجلنى.

- وستر ضعفهم.. وزودهم بجنود لم بروها فكانوا من الشاكرين..

وعندما غرزت أصابعى فى دسم اللحم فى وليمة المولد، قالت «زينب»:

- هذه لِيَّة خروف فتمتع بملمس الدسم فى لحم الضأن، ففيه شفاء للناس.

رمق مولانا عجيزتها، ورفع فمه صائحا:

- كلوا من طيبات ما رزقناكم.

فى الخُلوة قال لى :

- إبشر يا مريدى.. أتانى الإمام «الحسين» أمس فى المنام، وكنتَ معه، وقال لى : هذا المريد رأس الجوالة فى الأرض، زوده الله بجنود لم يرها، فليسر فى كل مكان سارت فيه رأسى، وانه لواجد جنوده فإذا لقيهم فليقدهم إلى حيث تحتشد الثكالى والأرامل ويجتمع الحزانى، والأمهات اللواتى جف لبنهن، وليقل لهم على لسانى: ابشروا أنتم أبناء «الحسين»..

«لهذا خلعت بذلتى القديمة، وألقيت أناقتها التى صنعها الكواء فى ركن خُلوة الزفاق، وبذلة «الجنرال» كانت يوما عفريتة لأسطى.. وأمّا النجوم والسيف فكانت أوراق كتاب قديم..

«كم هى مضنية رحلة رأسك ياحبيبى «يا حُسين». وليس الطائر كالسائر على قدميه. وما يستوى الشيخ والمريد. وما أمر حزنك يا أم هاشم. وكم كان صبرك قاسيا.. أمّا ما فعلت يا حبيبتى عندما سال دم الأحباب تحت أقدامك تشربه الرمال.. فهو ما أدفع عمرى ثمنا لمعرفته. أطعمنى فلاح وسقانى وسألته :

- رأس الحسين مرت من هنا؟!

قــال :

- قطعوا رأس جدى يا مولانا.. كانوا يصيدون الحمام...

وقديما قالت «زينب»:

- لماذا لا تأكل حَمَاماً.. إنه مقو للباه.

وأما البذلة، فقد استخدمها كل زائر للحجرة فى بعض شؤونه، فأصبحت مجمع توقيعات الزائرين، وقال أبوها :

- اختفت حبوب منع الحمل من البلد وكنت أطحنها مع «الأفيون» ورأسى الآن تكاد تنفجر..

سال منخاره، فمسحه فى البدلة وكانت بجواره..

قال «أبوَ رواش».

- تكاثروا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة.

- سفاحا يا مولانا؟!

- إن خفتم الضر فاعزلوا...

- لم أجد جنودى يا مولانا.. و أكلت الحشرات بذلة الجنرالية ..

- عجزت العين ولكن القلب يرى!.

- واختفت حبوب منع الحمل..

- وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

- وحتى لو الجبت إبنا ليس ابنى؟.

- واجعل لى نصيرا من أهلى هارون أخى، أشدد به أزرى..

- ولكنه ابن عدوى..

«شعشعت الروح. فى الظلام، أنارت كوة برأس «الحسين»، سألتنى شفاهها: أين الجنود «يا جنرال»؟. فقلت. بحثت فلم أجد. والطريق الذى طارت عبرة رأسك من الخطوط المحرمة دوليا. وليس الطائر كصاحب قدمين كليلتين، وأما رأسك فما أجملها، لكن أين جسدك؟ قال: أتسألنى عما أريد أن أسألك عنه؟.

بحثت فى ظلام المقابر فلم أجد، وبت الليل فى المهجور منها، حولى عالم الأموات، ترنمت على شفتى ألف كلمة، وألف نشيد والروح الواصلة تبحث وما من مجيب، والظلام المطر يأكلنى يوما بعد يوم، لذلك شاب الشعر فى شرخ الشباب، ولم اتعلم من الشيوخ حكمتهم، ودق فهمى على الأذهان فما أضيع العمر، وأمس وجدت وثيقة زفافى فى جيبى، فتذكرت أن لى بيتا وزوجة. وسألنى أبوها :

- أين الجنود يا جنرال؟

لم أجب .ملأت ضحكاته الساخرة فراغ حجرة الزفاف، واستقبلتنى «زينب» باهتزاز العجيزة.. وقال مولانا :

- ابحث عن خلايا جسد الحسين.

قلـت :

- كيف تعيش رأسه بلا جسد.

ما أكثر الأسئلة التى تبحث عن جواب. وليس فى أقدامى قُدرة على السير. وعلى باب الضريح قابلتنى إمرأة فصاح فمها من خلال إطار السواد حول وجهها :

- القضية نمرة ٧٩٩٨ سنة كذا وستين، جنايات مصر، القتيل «سعيد

مهران» والقاتل «رؤوف علوان». وفضيلة المفتى أمر بالشنق، «وعشماوى» قبض خمسة جنيهات.. والحكم تم بعد المداولة.

وزارنى أبى على باب الضريح، قال : عد لبيتك.. فقد بارت بسببه سوق كل البغايا.. زوجتك فاقت الكل..

قالت رأسى المهتزة :

- يا من من يَرى ولا يُرى.. أعطِ البعوض جناحها!!

- لا افهمك!!

- واحلل عقدة من لسانى، يفقهوا قولى!

- اتعبتنى.. لو سمعت كلامى من البداية، لأصبحت اليوم جنرالا حقيقيا، ولكنك خبت.. ففصلوك من الكلية الحربية..

- والجنود يا أبى؟..

- طلق زوجتك..

- والحب؟.

« وما صبرنا إلا لأننا محبون، أليس الحب والصبر صنوين، فليهجر الحبيب ما شاء له الهجر، لهذا أتانى أبوها ببذلتى المرصعة بتوقيعات الزائرين. وحملتها على كتفى وأقدامى الكليلة أصبحت غير قادرة على السير وقال :

- هات وثيقة الزواج ..

- ولكن.

- قلت لك هاتها..

- سينفعكم اسمى..

ضحك الشعر تحت شفتيه وقال بخر أنفاسه..

- أصبح البغاء رسميا.. وحبوب منع الحمل تملأ الدنيا!

لهذا ضاع الجنود. وزارتني رأس الحسين، وقالت: ألف لعنة، جنودك ذهبوا إلى بيت زوجتك يصفقون في ليالي النشوة!.

يا أم هاشم.. يا بنتَ بنتِ رسول الله.. محبوبكم آل البيت شفٌ وجفٌ... امتص الصبر بالشمسِ كلَّ دم عروقه.. واقف بلا كلال. وما أمرَّ حزنك يا أم هاشم. وكم كان صبرك قاسياً. وأما ما فعلته يا حبيبتي عندما سال دم الأحباب تحت أقدامك تشربه الرمال.. فهو ما أدفع عمري ثمنا لمعرفته.. وإني لصابر حتى أعرف.. فما صبرنا إلا، لأننا محبون.. أليس الصبر والحب صنْوين؟!

(١٩٦٥)

الايتام على مأدبة اللئام

.. لكن شعارك أن كل الإنسان على الإنسان حلال: عرضه.. وماله.. ودمه!

للمرة السابعة خلال عام واحد، أقسم صديقي «الدكتور مراد» أنه سوف يغادر البلاد نهائيا ليقيم في الأحراش الإفريقية. وكان يردد ذلك وهو يفكر في طريقة ينقذ بها «ملكه» الذي كان قد حوصر حصارا قاتلا. وعندما نجح في إبعاد الخطر عنه مؤقتا، تنهد بارتياح وقال إن التخلص من مأزق شئ جميل، لذلك فسينفذ فكرته في الهجرة إلى شرق إفريقيا مهما كانت العقبات. وتأملت «الفيل الأسود» وحسبت كيف يمكن أن أهاجم الملك مرة ثانية دون أن يقتل وزيري، ثم همهمت بأن فكرته مغرية إلا أنني مللتُ ترديده لها وأن عليه أن «يكش ملكه» للمرة الثانية. إذ ذاك ابتسم وقطب حاجبيه طويلا. ونادى «ناهد» من الداخل وسألها عما إذا كانت البيرة قد تثلجت.. فعادت بعد لحظة بعربة شاي متوسطة تحمل البيرة وأطباق المزات.. وبينما استغرقني تأمل موقف الملك الصعب والتفكير في وسيلة لانقاذه من الموت، كان «مراد» يشرب في تلذذ ويثرثر أيضا بتدفق شديد. وكان الوباء

كالعادة ثرثرتنا اليومية، وقال أنه سيضطر إلى إنشاء معزل ثالث فى الطرف الشرقى للمدينة، ذلك أن الوباء انتشر وتمدد إلى مالا نهاية، وسأل ناهد عن رسالة الأدوية التى وصلت أخيرا فقالت انها اوشكت على النفاد فشرب كأسه.. وقال:

- لا أمل فى شئ.. لقد انتهينا.

أطرقت ناهد رأسها إلى الأرض، كانت آثار الجروح مازالت تملأ وجهها، وتشاغلت بإصلاح ثوبها الأبيض المرصع ببقع حمراء كبيرة. وسألت عن «ناعسة» فقال :

- اختفت.. وهم ينسجون حولها الاساطير..

وفى تلك السنة كانت «ناهد» قد اغتصبتنى فى حجرة الكشف وعلى مائدته الجلدية الباردة. حدث هذا ذات ظهيرة غاب فيها «مراد» عن عيادته، وقفت على الميزان وهى بجوارى تقرأ ما يؤشر إليه، وفى محاولتى للنزول وجدت نفسى فى أحضانها وهمهمة تمنع تصدر عنها لم أجد مبررا لها، إذ حتى هذه اللحظة لم أكن قد فكرت فى الاحتكاك بلحمها الطرى. وخلال دقائق محمومة مارست لذة الاحتكاك به وكان لزجا بالعرق، واسع المسام كدجاجة نتف ريشها، وكان الشعر ينتشر بين ثدييها فى خط طويل ينتهى قبل منتصف البطن ليعود بعد ذلك بقليل فى هرم كثيف تتزايد كثافته تدريجيا حتى تتحول ظلاما دامسا، ووجدت نفسى أسبح فى بحر من عرقها ثم أهمد تماما. ومنذ ذلك اليوم لم يتكرر ما حدث، وقد انتظرت فى قلق أن تعاود اغتصابها لى، ولكنها لم تفعل ففتر حماسى لذلك.

وكنت أعرف أنها عشيقة صديقى «مراد» وممرضته، فهى تمارس دورا وسطا بين الممرضة والزوجة. وفى جلساتنا الخاصة كان البالطو الأبيض يغادر

جسدها ليترك مكانه لفستان أخضر - وأحيانا بيجاما أو قميص نوم - تشرف بمهارة على تلبية ما نريده، حريصة على ألا تتجاوز وضعها الدقيق، فلا تهدم كل الحواجز بيننا وبينها، ولا تتدنى بها لتصبح خادمة.

وعندما تطفلت يوما على صديقى «مراد»، وسألته عن طبيعة العلاقة بينهما أكد أنها كائن شيطانى بلا أسرة، ولا ماض، والأرجح أنها غادرت أسرتها فى ظروف غامضة لا يعرفها. وأسرّ لى أنها اغتصبته رغما عنه فى ليلة شتوية مطيرة كان فيها سكرانا وحزينا لسبب ما. وأنها تكرر اغتصابها له كلما أرادت فليس له أن يعترض. وأكمل وهو يذيب شيئا فى كوب شاى أمامه:

- فى بعض الليالى تعذبنى الرغبة فيها فلا أجرؤ على الاقتراب منها وانتظر فى قلق أن تشير إلى، ولكنها لا تفعل.. ولا يبقى أمامى إذ ذاك إلا الاستعانة بمدد من الخارج.

كانت «ناهد» أميل إلى الاسمرار، ذات ملامح دقيقة كطفلة، تبدو من بعيد هادئة ورقيقة، وجسدها فى إطاره الخارجى عذرى الملامح، وليس كذلك إذا تأملت تكوينه الداخلى. وفى مرات قلائل - خاصة قبل أن يستفحل الوباء - رأيتها وهى تحشو سجائرنا بالحشيش، وكانت تفعل ذلك بدربه وتلذذ، وأصابعها النحيلة ذات الأظافر الطويلة الحادة تتحرك بمهارة وخبرة، ثم تدخن بشراهة، وتضم شفتيها الدسمتين على السيجارة فتسحب نفساً طويلا تحبسه فى صدرها فيذوب ولا يخرج منه إلا القليل، ونادرا ما كان الصمت يفارقها، فتبتسم ابتسامة خفيفة إذا ما سمعت ملحة. وتهز رأسها إذا سمعت نغما. ورفضت باصرار ذات ليلة أن ترقص، وتركت أكفنا المصفقة تدق الايقاع دون إجابة. فقلت: ليكن.. أرقص أنا. وأمسكت لى الواحدة وبرقت عيناها وهما تتابعان جسدى فى اهتزازاته السريعة، منتشيتين لأقصى الحدود برقصى.

وفى تلك السنة شغلنا مراد بحديث متصل عن البلهارسيا، وقال أنه يفكر فى طريقة جادة للقضاء عليها. وأن فكرة طارئة نبتت فى ذهنه وهو يستحم، أن يوقف حياته على هدف سام، وأن الهدف الذى اختاره، هو هزيمة البلهارسيا هزيمة ساحقة. وأكد أنه سيكون مشيرا أن يضع كمية كبيرة من مبيد حشرى حدد نوعه فى مجرى النيل، فتلك هى الوسيلة الوحيدة والسريعة لافناء قواقع البلهارسيا. ولما نبهناه إلى أن ذلك سيقتل الزرع والحيوان والإنسان أيضا، ضحك وقال بجدية شديدة رغم أن كلماته كانت مشبعة برائحة الكحول:

- البلهارسيا كائن حقير وتافه، فاما أن يعيش الناس حياة قوية وسليمة وإلا فلا مبرر للحياة أصلا..

وقد اعتبرنا المسألة واحدة من فكاهاته التى لا تنتهى رغم أنها أصبحت مرهقة لنا، إذ أصر على أن يضع فى كل مكان من مسكنه لوحات حجرية مجسمة تطل منها دودة بلهارسيا مقبضة وبشعة المنظر، وذكرها يحتضن أنثاها فى بطنه، وفى ليالى السمر كانت تتطفل علينا، تسمع كلماتنا، تراقب نظراتى المتسولة إلى «ناهد». وفى مرة أقسمت لهم أنها أخرجت لسانها لى. وقد ضحك «الشيخ رضوان» - إمام مسجدنا وواعظه ومقيم شعائره - طويلا، وقال أنه كان يتسا ءل دائما عن معنى حرف «الدال» الذى يسبق توقيع «مراد»، والآن فقط عرف أنه اختصار لكلمة «دودة»، أما «ناهد» فقد دافعت عن الدودة دفاعا حارا. وقالت أن لونها جميل وأنها تنصح بأن تنتج شركات الأصواف، صوفا بلونها الأصفر الباهت. بيد أنها عبرت عن كراهيتها للانثى التى كانت تستقر مستسلمة ببطن ذكـرها.

وفى الليلة نفسها هرش الشيخ «رضوان» مهبط بطنه - وكانت تلك إحدى عاداته المرذولة - وتحدث متفلسفا عن حكمة الله الذى خلق من كل زوجين اثنين، يسعى كلاهما للآخر، رجالهم قوامون على نسائهم حتى فى

زوجين اثنين، يسعى كلاهما للآخر، رجالهم قوامون على نسائهم حتى فى
دنيا البلهارسيا، سنة الله ولن تجد لسنَّة الله تبديلا، ولولا أن ناهد عاجلته بغابة الجوزة لاستمر فى حديثه الطويل. بيد أنه سحب نفسا عميقا، وأغلق عينه السليمة - فالأخرى عمشاء - ومضى يبتلعه ببطء، ثم طرد ما بقى منه - وكان قليلا - وأسند رأسه على كفه، وسبّح بحمد الله طويلا.

وكنا قد دخَّنا حتى اكتفينا عندما مضت «ناهد» إلى الداخل، ونادت «مراد» بصوت وحشى، فابتسم ابتسامة هزيلة واعتذر لنا ومضى خلفها، وإذ انفرد بى الشيخ قـال:

- هذه علامات الساعة.. صاحبتنا تتعشى الآن بالدكتور..

فدعوته إلى أن «يكرس» لنا كرسيا ندخنه ففعل، وقال وهو يناولنى الغابة أن «ناهد» حاولت أن تعتدى على عفافه، ولكنه قاومها بعنف:

- كانت متوحشة ومفترسة. خمشت وجهى بأظافرها الطويلة الحمراء، فأسالت دمائى، مزقت جبتى، عضتنى فى كتفى فضغطت على رقبتها. أفلتت منى، حاولت أن تنال مكمن عفتى، تمكنت من ثديها الأيسر، عصرته بكل ما فى كفى من قوة، فتهاوت على الأرض، هزمت تماما.. وبكت..

سألته عما إذا كانت قد قدّت ملابسه من قُبلُ أم من دبّر فضحك طويلا وقال أنها مزقتها جميعا ومن كل اتجاه. فقلت:

- محافظتك على عفافك، فى أيامنا هذه شجاعة تحسد عليها.

شكر الله الذى هداه إلى ذلك، وأكد أن جسدها مُشْعر، وأن الله يبارك فى الرجل المشعر ولا يبارك فى المرأة المشعرة.

ومن المؤسف حقا انني لم أتابع ما حدث للشيخ «رضوان» بعد ذلك، إذ قضيت ما تلا ذلك من أسابيع فى المستشفى عقب اعتداء وحشى وقع علىَّ فى الطريق الزراعى ذات سحر. وكنت قد أمضيت أغلب الليل أشرح

فى القرية، وقدت سيارتى وكان الظلام خانقا والطريق خاليا وصامتا كثير فرعونى. وكنت أتأمل فى إعجاب مسير الرصاصة التى اخترقت الجبهة، ولم أجد لها أثرا فى قاع الجمجمة، ولم أجد لها أثرا فى أى مكان آخر من الجسد، وسلمت القتيل لأهله مجموعة متناثرة من اللحم.

وعندما حاذيت النخل الكثيف فى منتصف الطريق وجدت عائقا يمنع سيارتى من الحركة، أوقفت المحرك. ولدت الظلمة أشباحا ضخمة نادانى واحد منها باسم لا أعرفه. كان صوته غليظا وعريضا، ردد الصمت والفراغ صداه المرعب. طلب منى أن أطفئ أنوار السيارة وأغادرها. ولم أكد أفعل حتى جاء صوته مرة أخرى عريضا كأنه الفضاء نفسه:

- يا ابن الكلب.. تحرم تتطاول على أسيادك.

ولم أسمع بقية الكلمات، إذ انهالت على العصى من كل جانب مؤلمة وبشعة، تدفق سائل غليظ القوام وحار على وجهى. خفت، تملكنى الرعب، إنحنيت على الأرض، قبلت أقدامهم. توسلت لهم، بكيت. أغمى علىّ. صحوت لأجدنى فى المستشفى. وفى تلك اللحظة فقط اكتشفت أننى لم أكن المقصود لأننى لا أحمل الأسم الذى نادوه. كما أنه لم يحدث أبدا أن تطاولت على أى من أسيادى، إذ كنت أتوهم - حتى تلك اللحظة - أننى بلا أسياد على الاطلاق. وقد ثبت فيما تلا ذلك من سنوات أن هذا وهم خاطئ دفعت ثمنه الكثير.

وفى المستشفى زارنى «الشيخ رضوان»، ودعا لى طويلا، وقرأ آياته وتعاويذه، فقلت له:

- أنا حزين يا مولانا، العار يجللنى، ثم أننى دهش: كيف لم أقاومهم؟ لماذا بكيت وقبلت أقدامهم؟.

بسمل واستغفر طويلا ثم قال :

- أبشر، سوف تتغير الدنيا. بهذا أنبأنى هاتف زارنى فى المنام.

وأقسم أن هاتفه بشره بأنه مدخر لرسالة عظمى، لا تقل عظمة عن رسالة «المسيخ الدجّال» وأنه تمهيدا لذلك قد رفعت عنه كل التكاليف، ومن اليوم فلا يخلجن من شئ، ولا يخافن من أحد.

ومضى فغاب طويلا، وسألت «ناهد» عنه فابتسمت ابتسامة ذات معنى. وأكد «مراد» أنه لن يأتى، وقد لا نراه بقية العمر، فقد لزم بيته ولم يعد يؤم الصلاة فى مسجد مدينتنا الصغير، ولم يعد كذلك يؤذن أو يلقى العظات، ذلك أنه ضبط ذات فجر وهو يحاول أن يلوط غلاما صغيرا فى الدور الثالث من مئذنة المسجد، وصرخ الغلام واختلف الرواة فيما إذا كانت صرخته استغاثة أو نشوة فتدافع الرجال الذين كانوا يستعدون لصلاة الفجر، وفرقوا بينهما، وضربوا الشيخ والغلام ومزقوا عمامة الأول وكاكولته وحتى قفطانه، ورفضوا أن يتركوا له ملابسه فسار شبه عار من المسجد إلى منزله، فلزمه صامتا وحزينا. وقيل - نقلا عن غلام أمرد يعمل عنده - أنه يفكر فى الهجرة إلى بلاد الانجليز التى أباحت اللواط - كما قرأ فى الصحف - وقد اتضح بعد ذلك أن تلك كلها أشاعات وأن الشيخ لم يفكر فى الهجرة، بل كان ينتظر فى قلق هاتفه. وكنت أقطع وقت المرض الطويل بالمستشفى فى قراءة تقرير عن حالة الأمن العام فى مدينتنا، وقال التقرير أن هناك زيادة ضخمة فى عدد جنايات الاعتداء على الأشخاص، بلغت ٢٥٧ حالة خلال الشهور الستة الأولى من العام، وأن هذه الحوادث تشمل الضرب الذى يفضى إلى موت والقتل العمد. هذا فضلا عن حوالى مائة جناية هتك عرض واغتصاب بالقوة أدى بعضها إلى موت الضحايا أثناء المقاومة. وقلت لنفسى إننى سأزيد الأرقام واحدا فى العام القادم. وأن ما حدث لى بكل بشاعته سيصبح فى النهاية مجرد رقم بارد من تلك الأرقام الغريبة.

وكذّب حضور «الشيخ رضوان» لزيارتى - مرة ثانية - كل ما قيل

عنه، وكان يومها هادئاً ونظيفا جدا، وسألته عن هاتفه فقال أنه زاره، وحاوره طويلا.. ثم قال له فى النهاية:

- ليكن شعارك أن كل الإنسان على الإنسان حلال: عرضة، وماله، ودمه.

وعندما خرجت من المستشفى كان الوباء فى بداياته الأولى. وزرت «مراد» فى معمله فوجدته يحلل بعض العينات أمام ميكروسكوب عتيق، والقيظ قد تركنا نصف موتى، جلست على مقعد معدنى شعرت براحة لرطوبته. قال :

- ظاهرة غريبة. العينات كلها سلبية حتى الآن. والمشكلة أن «ناعسة» ترفض أن تعطينا أى عينات.

وكان الوباء قد بدأ فى عزبة على أطراف مدينتنا ثم انتشر. كانت الأعراض واحدة. وربما فى الحالة الأولى فقط بدا الأمر غريبا. إذ أصر العريس - وأظن أن اسمه كان «أيوب» ألاّ يفض بكارة زوجته فى حضور شهود، ورفض المنديل الذى قدمه له أبوها طالبا منه أن يرده حاملا الدليل على أن ابنته صانت عرضها واحتفظت بعذريتها سليمة. وفى اللحظة نفسها كانت العروس - واسمها على سبيل القطع «ناعسة» - تطرد الداية وأم العريس وأخواته، وترفض أن تخلع ملابسها، أو أن يحضر أحد لحظة لقائها بزوجها، وعندما حاولت الداية وأم العريس أن توثقاها لكى تؤديا مهمتهما تشاجرت معهما وعضت الأولى فى عجيزتها. إذ ذاك ضرب أبوها العريس، وأمره أخوالها أن يفعل كغيره من العرسان، فرفض بشدة، وقال أنه سيدخل بها فى أى وقت يشاء، ولطمت أمها خديها وولولت فى الداخل، وحلّت شعرها. وانهالت العصى على «أيوب» من كل مكان، وتحطمت مصادر الضوء كلها، وفى الظلام الدامس أطلق مجهولون الرصاص، وخلت ساحة الحفل، وارتفعت أصوات النساء - التى كانت تزغرد قبل لحظات - تصرخ

فى رعب قاتل، ولطخت الدماء، التى سالت كنافورة قطعا كثيرة من أثاث العروس.

وفى السحر حملت إلينا الاسعاف «أيوب» مصابا بجرح عميق فى رأسه وبكسور فى ذراعيه وساقيه. وتفاقمت حالته فى اليوم التالى وأصيب بحمى حادة، ولم يكد يتحسن قليلا حتى أصبح يطرد كل ما فى جوفه. وتدهورت صحته بشكل مرعب، ورأيتها واقفة على باب حجرته، قلقة وحائرة. ولكن وجهها الأسمر لم يفقد حمرته فى أى لحظة، كذلك فشلت ملابسها المحتشمة أن تخفى قسمات جسدها المنسقة. كان كل جزء منه يقود إلى الآخر بشكل تلقائى. بحيث لم أستطع فى كل مرة أواجهها إلا أن أتفرس فى كل قسماته: وكانت عيناها صافيتين ثابتتين، لا تطرفان أبدا مهما حدقت فيهما، وفى مرة اجتذبنى صدرها، كان خصبا كأرض براح، وقلت لنفسى أن أطفال العالم سيسعدون لاشك عندما ينامون فوق هذه الخصوبة الواسعة الدافئة...

وبعد شهور من شفائه، عاد إلينا، ورأيته يومها: شاحباً ضعيف النظرات، خجولا. وكان شاربه قد تهدل. وشكا فى كلمات متقطعة أنه لا يستطيع أن يؤدى واجبه كزوج، وأنه فى اللحظة التى يشعر فيها أنه فى أقصى لحظات توهجه والتى تنتظرها زوجته فى عطش محموم، فى تلك اللحظة يشعر بألم شديد فى مؤخرة رأسه، وكأن آلافا من العصى الغليظة تنهال فوقه، ومع الألم الحاد تختفى حماسته تماما، ويرقد منهارا كخرقة قديمة بجوارها.. وضحك «مراد» ضحكة عالية وهو يروى الحكاية لنا فى المساء، وقال أن العالم يتفنن فى اكتشاف المثيرات ليخفى عجزه الدفين.

بيد أن الشهور التالية حملت إلينا الأبعاد الكاملة للخطر الذى تعرضت له مدينتنا والذى كان خطرا حقيقيا، إذ بدأت الحالات تتزايد، وظهر أن المرض كامن كالفجيعة، وأن ستارا من الخجل كان يحول بين الرجال وبين

التعبير عن الكارثة التى أودت برجولتهم. وقد تأملت طابورهم الطويل اليائس والخجول سواء فى ردهة المستشفى الطويلة، أو فى حجرة الانتظار بعيادة «مراد». وكانوا خليطا لا يجمعه شئ، معممين ومطربشين وعراة الرؤوس، وحالقى الشعور تماما، وعدد من شباب الهيبز بشعورهم الطويلة وسوالفهم النسائية، وقد تأملتهم «ناهد» بنظرة يطل منها الافتراس لم تدم إذ أدركها الفتور وخيبة الأمل سريعا.

وكانوا دوما قلقين يدخنون بشراهة وتتوهج أطراف لفائفهم حتى لتُحدث فرقعة خفيفة، والغريب أن نظراتهم كانت لا تستقر على شئ ولم تكن عيون أى منهم تلتقى بعيون غيره. إذ شغلت كلها بتأمل ديدان البهارسيا التى ملأت الحوائط فى تشكيلات هندسية معقدة. ويبدأ من تأملهم لها أنهم معجبون بها.

وفى مرات ليست كثيرة، جاءت نساء، سألن «مراد» أن يكتب لأزواجهن أدوية مقوية ومعيدة للشباب وباعثة على الحيوية. وقلن أن أزواجهن يخجلن من الذهاب إلى الطبيب وأنهن تفضلن أن يكون الدواء فى شكل مسحوق حتى يسهل عليهن أن تدسسنه فى طعام أو فى شراب دون أن تضطررن إلى الاعتراف لأزواجهن بأنهن لجأن للطبيب. وكان «مراد» يضحك فى سره وهو يطلب منهن أن تصعدن إلى منضدة الكشف، حيث يتيح ليده فرصة ملامسة أجسادهن، ليقول لى فى النهاية:

– تصور هذه الأجساد الجميلة... لو ظلت هكذا عطشى، إن كارثة قومية فى الطريق.

ويبدو أن توقعه كان صحيحا، إذ ظهر «الشيخ رضوان» فجأة ذات مساء، وأعلن أنه أنهى اعتكافه بعدما وصلته أنباء الوباء. وترحم على أيام الكوليرا والملاريا، واستعاذ بالله من شر النفوس السيئة، ومن كذب اللسان الذى دفع البعض إلى اتهامه بأنه عاد إلى ممارسة هوايته القديمة فى

الاستعانه بالأحجبة والتعاويذ لسلب الرجال قدرتهم على الإخصاب، وأقسم قسما مغلّظاً بأنه تاب عن ذلك توبة نصوحا. وأنه مزق الكتب والأحجبة كلها، بل أنه حاول أن يعود إليها ليستعين بها فى دفع البلاء الذى عم مدينتنا فلم يجدها، ثم سكت طويلا فسألته «ناهد» عن هاتفه، وماذا فعل معه.

– الظاهر أنه هاتف إبن أونطة، مضى ولم يعد.

وضحك ضحكة قصيرة وأضاف :

– عندما يخلو فراش الرجل من ضجيعة، أو تكون الغبارة رديئة، فإنه يفكر عادة فى أن يكون نبيا، وذلك فى ظنى ما دفع صديقنا الدودة إلى الاهتمام بحكاية البلهارسيا.

ضحكنا. قهقهت بطن الشيخ فى تموجات، واكتشفت لحظتها أنه ينتمى بشكل مباشر إلى جد من القردة العليا، كان وجهه مجدورا وأنفه ضخما ككرة صغيرة مليئة بالحفر. وتوقف الضحك وقلت جادا :

– ولكنك يا مولانا كنت متحمسا لدعوتك، وهى دعوة جديدة بالفعل..

شدّ نفسا طويلا من غابة الجوزة وازدرده.. قال :

– راجعت بعض الصحف فوجدت أنها دعوة قديمة جدا..

وضع مسبحته بجوار الاناء الذى يحمل جمرات النار، ومضى يتحدث عن فضائل «الغبارة الهندية» فقال أنها تنشط الجسد الخامد، وتوقظ الرغبة الهامدة وأنها مدرة للنسل وقاتلة للكدر. واقترح أن نكف عن التدخين فى الجوزة والسجائر. وأن نضع «الغبارة» كلها فوق النار ونغلق النوافذ فنستنشق هواء، كله خدر. وتحمست «ناهد» للاقتراح، واعترض مراد مؤكدا أن الطريقة قد تودى بنا وتقتلنا..

قطعت الحديث لالفت نظرهم إلى صورة غريبة وجدتها فى جريدتى، وكانت الصورة لامرأة فيتنامية قُتلت إثر غارة، ويبدو أنها كانت تستحم فى جدول صغير تاركة طفلتها على شاطئه فأصابتها الشظايا فى مقتل، وكانت الصورة لها وهى عارية تماما، ميتة. والطفلة الصغيرة قد تحركت نحو جثتها بعد ما قرصها الجوع، فالتهمت حلمتها، وأخذت ترضع من ثديها الميت. وقلت لهم :

– ما رأيكم يا أصدقاء فى هذه الصورة المعبرة؟

قال «مراد» أن جسد المرأة نموذج أنثوى رائع، وأخرج نظارته الطبية لكى يتأكد من أن ما قاله مطابق للواقع. وتغزلت بشعرها الأسود الطويل، وكان مبللا بالماء، يحيط بوجهها كشعار الحداد، بينما لفتت «ناهد» نظرنا إلى الشظية التى أصابت المرأة فى منتصف بطنها.. وقال «الشيخ رضوان» :

– هذا انتهاك لحرمة الموت. والصورة فوق هذا مثيرة للغرائز الدنيئة..

ضحكت «ناهد» ضحكة طويلة – وكانت تثرثر بكثرة، وتلك حالة نادرة – قالت :

– ولكن لا تنس يا مولانا أن الغرائز الدنيئة قد ماتت، وحتى لو كانت حية فإن ظهر المرأة لم يظهر!!!

وانفجرنا ضاحكين، حتى «الشيخ رضوان» نفسه قهقه مداريا خجله. وقلت مغيرا الحديث.

– الحقيقة أن الرصاصة هى أوقع ما فى الصورة، ماتت الطفلة لاشك، ولم يحن الثدي عليها بقطرة لبن واحدة.

وقال «مراد» أن هذا سيحدث فى مدينتنا، وأن الوباء سيقضى علينا تماما، وأنه يقدر لعمر المدينة ثلاثين عاما أخرى، كحد أقصى، يموت فى

نهايتها أصغر الرجال وبعدها نتركها خرابا يبابا وقد احترق فيها الحرث والنسل. ودعانا إلى أن نحزن مثله حزنا عميقا لا حد له، وليكن حزننا جليلا ككارثتنا، فنعيش الحياة بكل ثانية فيها لا نضن بشئ.. بيد أنه أكمل فكرته بتوضيح أكثر – عقب عودته من الداخل هو و «ناهد» – فقال:

– هذا بالطبع إذا كنا ما نزال نملك القدرة على ذلك!

(١٩٦٩)

أضغـــاث أحـــلام

«.. أودعت قلبي إلى من ليس يحفظه .. أبصرت خلفي وما طالعت قدامي ..»

١

في الصباح شرعت في قتل «رمسيس الثاني» أخرجت مسدسي - «براونتج ٩ طلقات» - تأملت حجمة الدقيق. قبلته. سرت إلى شفتي رطوبته. مزدحماً كان الميدان. رجال معروقون صُفر الوجوه. جمعهم ينظر إلى موطئ أقدامه. قلت : لعل قرشا ضاع، فمن يجده في هذا التزاحم؟.

وقفت «ليلى» على محطة الأتوبيس. أشارت إلى التمثال في وله. «سعاد» كانت معها. تعلقت عيناها بقمة التمثال العالية. ظلّت مشدودة إليه.

قلت : سأضرب الرأس حتى يموت بطلقة واحدة. كان موظفو شركتنا ينتشرون كالذباب المنهك.. قلت أنهم سيشهدون ضدى في المحكمة. صوبت المسدس. أطلقت رصاصاته التسع في تدافع مستمر. لم يحدث له شئ :

طاشت فى الهواء ثلاث رصاصات. توزع الباقى بين القاعدة وقدمه اليمنى، واحدة فقط أصابت وجهة الجرانيتى. أشار «رمسيس» إلى العمارة العالية. إقتربت منه. صحت.

- تريدنى أن أنتحر.. لن أفعل؟.. سأقتلك.. سأقتلك.

حرك قدمه اليمنى ليريحها من الوقفة. حملنى. طار بى. علقنى فوق لافته فندق يشغل الطابقين الأخيرين من ناطحة سحاب تطل على الميدان. صرخت جزعا. تسللت ضحكات خلفى. قالت بنت جالسة فى تراس الفندق :

- انزل يا شاطر... روّح لأمك

.. ..

.. ..

تقلبت فى فراشى. كانت قطتى تحوم حولَ إطار فوق «الكوميدينو» تتشممه. أطلت علىّ من خلاله ابتسامة «سعاد» الخائفة. تثاءبتُ. حملتُ فوطتى. توجهتُ إلى الحمام.

٢

فى الضحى.. قال صديقى «محمود» :

- شئ مرعب.. لم أنم دقيقة واحدة ليلة أمس.. صراخها أطار النوم من عينى.

- والطبيب ماذا قال؟.

- طلبته فى البيت فنفخ زعلانا. قلت إنها تصرخ.. ببرود قال : وما عساى أن أفعل؟. أى شئ يا دكتور أكاد أجَنّ. قال: لدى مسئوليات جسام فلا تضيع وقتى أعطها المسكّن. فقد مفعوله يا دكتور. لا جديد لدى. ثم بحسم: لا تتصل بى بعد العاشرة، من حقى أن أنام.

- كلب.

- أكلنا لحما وتركنا عظاماً.. بعت ما أمامى وما ورائى.. عفش زواجنا كله..

- إصبر.

- التليفزيون والثلاجة.. والبوتاجاز.. غرفة الصالون.. كل شئ.

- إصبر..

- حقا.. ولنفرض أننى لم أصبر.. فماذا سيحدث..

- لعل معجزة تحدث.

هربت ببصرى من النافذة .. كان التمثال واقفا يبتسم فى شماته. قلت:

- سأقتلك يا «رمسيس الكلب» .. سأقتلك.

٣

عند الظهر خرجتُ من باب الشركة. ضحكت من عمق حنجرتى على نكته سمعتها. انحنيت أنقب عن القرش الضائع فى الأرض.. صرخ فىّ شرطى المرور. ابتلع اتساع الميدان التمثال. اقتربت منه. تأملت قاعدته ملساء كانت. قلت : لو حاولتُ الصعود إليه فسأقع وتُدَق رأسى. لو سلم حتى طائرة. لم أوقع فى دفتر الانصراف لثالث يوم. غدا سيستدعينى المد العام.. ينظر إلى بعينيه الجاحظتين.

.. ..

- يا أستاذ «صابر».. لك ثلاثة أيام لم توقع فى الدفتر وعندما سألوك سخرت منهم.. لا أحد ينجى من العقاب.

تحين اللحظة الفاصلة. لهذا نعد العدة منذ أيام. أصرخ:

- أنت لست مديرا. أنت كلب. مرتشى ولص. بدل السفر ستة جنيهات فى الليلة. لماذا؟! تسافر إلى الاسكندرية لتصيف وتأخذ أجراً إضافيا وأنا انتحر فى عز الحر هنا، وتطلب منى أن أوقع فى دفتر الانصراف سفخص على أبوك. وقح.

يبهت وجه المدير العام. ينتشر الاحمرار فى ملامحه المكتنزة. ينظر الى فى خوف:

- لا تزعل يا أستاذ «صابر» إهدأ أرجوك.

أخبط على المكتب بمجمع يدى:

- إخرس.. ما لزوم هذه السكرتارية المهولة؟.. ماذا يفعلون؟.. يرتبون لك المواعيد الغرامية؟.. صورتك ربع صفحة إعلان فى الثلاث جرائد. من تظن نفسك؟.. «نيكسون»؟. أنت مجرد لص وضيع. وسأفضحك..

يخرج من وراء مكتبه.. يقترب منى.

- أرجوك يا أستاذ صابر.. عندى أولاد.. الله لا يفضحك..

جاء وقت تفجير القنبلة.. شيطان أنا وعهد الله.

- وليلى؟!

- مجرد سكرتيرة والله العظيم..

زغدته بيدى.. اهتز توازنه.. كاد يقع.

- .. والسهرات الخاصة فى شقة العجوزة؟

- سهرات عمل والله..!

- وهل العمل رقص.. ويسكى.. وحشيش؟!

- كذب والله العظيم كذب.. إشاعات المغرضين.

تحرك تاركاً مكانه.. حللت محله.. جلست خلف المكتب. المقعد مريح.. والهواء رطب والضوء خافت..

مددت يدى. سحبت سيجاراً هافانياً من علبة أنيقة على المكتب قلت:

- .. والاغراء بالعلاوات والمكافآت التشجيعية؟!..

- أطلب التحقيق العادل.. قدّم المغرضون شكاوى متعددة. للرقابة الإدارية ضدى، ولكن أوراقى سليمة.

- وبعد؟

- وحققوا معى أيضا فى الاتحاد الاشتراكى، وثبت أن أوراقى سليمة.

ضحكت.. أخذت أقلم اظافرى بمقص طويل وجدته على سطح المكتب.

عاد يقول:

- أوراقى سليمة.

خبطت على المكتب بعنف. وقلت:

- لكن ليلىْ دعت «سعاد» إلى شقة العجوزة يا وغد؟!.

- «سعاد» من؟.

- صاحبة أجمل صدر وأشهى شفتين!.

نظر إلى بحيرة. قال مراوغا.

- لا أفهم!

وقفت.. اقتربت منه عندما رأى المقص فى يدى خاف.. صرخت:

- بل تتغابى يا متصابى يا وضيع.. ألم تقل هذا الكلام؟ : عايز هذه البنت، من؟. الهايشة اللى هناك دى. «سعاد»؟. أيوه.. صدرها مهول، فكّرتنى بجبين راسل.. ستأتين بها هذا الاسبوع يا «ليلى». حدث أم لم يحدث.

- لم أقل هذا الكلام.. وأوراقى سليمة.

- لا تكذب.. وإلا ألقيت بك من النافذة..

- حاضر ولكن لا تزعل..

صحت وأنا ألوح بالمقص الحاد فى يدى :

- وابتعد عن الأجراس.. لو حاولت الاستعانة بمدد من الخارج سأقتلك فورا.

- بعدت.. لكن من نقل عنى هذا الكلام..

- قوادتك خاطبت «سعاد» لتذهب إلى شقة العجوزة، بدعوة منك.

- لم يحدث!

- ألا تعلم أننى «وسعاد» خطيبين و سنتزوج فى الخريف!

بُهتُّ. عدت إلى الالتفاف حوله فى حركة صامته.. قال بتسليم :

- ليكن .. ولكن كن عصريا.. أنت شاب وتفهم طبعا. مجرد نزوة أنا آسف لم أكن أعلم أن «سعاد» لك. طيش شباب..

صرخـت ..

- أتظن نفسك شاباً يا عجوز يا مخرف..

هجمت عليه. أوقعته على الأرض.. قاوم بشدة. خبطته على رأسه. صرخ مستغيثا. صحت :

- أكتم فمك وإلاّ قتلتك.. سأحولك إلى «أغا» كى تكف عن إدعاء الفحولة. سأخصيك ياكلب!.

تزايدت صرخاته. تهشمت زهرية ورد زجاجية فوق رأسه. مرق المقص فى يدى يمزق ملابسه الفاخرة.. وصل إلى هدفه رغم مقاومته الضارية .. وعندما فُتح الباب وتدفق الموظفون. كنت قد أتممت مهمتى. وهم يتدافعون نحوه.. خرجت متسللا، وضعت غنيمتى المبللة بالدم على مكتب «ليلى» بهدوء. ستفهم الإشارة وتعلم أن أوان اعتزالها القوادة قد حـــان.

.. ..

.. ..

انطلقت صفارة عالية - تزاحم البعض حولى.. اقتادنى الشرطى إلى كشك المرور فى الميدان.. قال الضابط :

- ما هذا يا أستاذ.. كادت السيارة تدهمك.

- كنت سرحانا.

- فيم ؟

- لا شئ.. أفكر..

- ولكن التفكير ممنوع يا أستاذ ؟

- كيف؟..

- ممنوع لدينا فى إدارة المرور.. إدفع الغرامة وإلا حبستك.

٤

جلست انتظر القطار على بوفيه المحطة.. طلبت شايا. أشعلت سيجارة.

... .

... .

قال القاضى :

– يا «صابر».. لماذا أحدثت بالمدير العام الإصابات المبينة بتقرير الطبيب الشرعى؟.

– لكى يسود العدل يا أفندم..

ابتسم القاضى. عوج طربوشه على الجانب الأيمن. قال :

– إعقل وأجِبْ.. أحسن لك.

– هذا هو العدل.. طلب منى هاتف فى المنام أن أحقق العدل على الأرض.

ضجّتْ القاعة بالضحك والهمهمة. صحت.

– إصمتوا أيها الناطقون بالدنيه المقترفون للخطيئة الصامتون على الإثم..

دقّ القاضى بمطرقته على المنصة. قال :

– أنت تهين الشهود.

– ولكنهم فريسيون.

– شهد الجميع بأن المدير العام كان حسن السير والسلوك. يصلى خمس مرات يوميا. ويصوم رمضان. ويتلو ورد التوبة قبل النوم. ويزور الكنيسة يوم الأحد فيعترف بين يدى أبونا «لوقا»..

– قلت أنهم فرّيسيون!

– ويدل ملفه السرى فى الوزارة. وفى كل الجهات التى تحتفظ بملفات سرية على أنه كان رجلا فاضلا تقيا ورعا.

– قلت إنهم فريسون

دق القاضى على المنصة. وصاح :

– ولكنه كان صديقى.

هززت رأسى منشدا

إن كان منزلتى فى الحب عنـدكم   ما قد رأيت فقد ضيّعت أيامـى

أمنيـة ظفـرت بهـا روحـى زمناً   واليـوم أحسبها أضغـاث أحـلام

نظر القاضى إلى أوراقه. وقال:

– تحال أوراق المتهم إلى فضيلة المفتى..

قادونى إلى الخارج. انشدتهم وِرْد التوبة الأخير :

أودعت قلبى إلى منْ ليس يحفظة   أبصرت خلفى وما طالعت قدامى

.. ..

.. ..

انحنى الجرسون أمامى.. قال:

– هل تريد شيئا.

– لا..

– رأيتك تشير.. ظننتك تطلبنى.

– كنت أكلم نفسى..

– هذا وباء منتشر هذه الأيام.. كان الله فى العون.

– قهوة.. قهوة سادة من فضلك..

وصل قطار الى رصيف ٣. تدافع عدد من الركاب. اشتد الزحام. حسوت القهوة الباردة مرة واحدة.

.. ..

.. ..

انشق الزحام فجأة عن رجل يجرى. لم يتنبه أحد فى البداية إلى صراخه. أخذ يلف فى فناء المحطة. تميزت صرخاته.

- أنا مش مجنون.. والله العظيم مش مجنون.

جلبابه ريفى ممزق. حافى القدمين تورمهما محاط بأربطة مهلهلة.

اندفع شرطى ريفى هزيل الجسم.. جرى خلفه. صرخ الشرطى.

- حَلّق يا جدع إنت وهو. إمسك هذا المجنون.

وقف الناس يتفرجون. تجمعت شلة من الرجال والنساء. أخذت تسمع صراخ الرجل :

- يا عالم وكتاب الله أنا عاقل.. والله العظيم عاقل..

صرخ العسكرى :

- على ماذا تتفرجون.. سيهرب وأروح أنا فى داهية.. حَلّق يا جدع.. أين عساكر المحطة؟

جرى خلفه.. انتقلت المطاردة إلى الساحة الخارجية للمحطة. تجمع المتفرجون. جرى كثيرون ليجدوا لأنفسهم مكانا. أخذت أدفع من أمامى لكى أجد لنفسى مكانا فى الصف الأول. عاد الرجل يصرخ :

- قعدت بالمستشفى سنتين.. هربت .. رجعت البلد. بَلّغ عنى.. يا عالم الجدونى.. والله أنا عاقل.. النهاردة السبت.. وإحنا فى شهر بؤونة.. والجمعة سبع أيام. والسما سبع طوابق.. وأعرف «نيكسون» و «موشى ديان» كمان.

جلس العسكرى لاهثا على الأرض.. قال متوسلا :

- يا «بيومى» حرام عليك.. أنا سأروح فى داهية بسببك.. عندى أولاد فلا تخرب بيتى.. تعال.. تعال..

أخرج «بيومى» من جيب جلبابه سكينا طويلا. تراجع رجلان كانا يهمان بالتدخل صرخ.

- أنا عاقل «يا أمباشى فرج».. الكلام الذى قلته صح أم لا؟.

قال العسكرى بتوسل :

- صحْ يا أخويا.. صح..

- صدق أم لا؟

- صدق يا أخويا صدق.. لكن تعال..

- لا تقترب منى.. أمامى أنت وكل الناس إلى القسم. أنت عارف كل شئ. قل لهم أن تهمة الحشيش مزورة، وأنه هو الذى دسها على.. وهو الذى أجبرنى على تطليقها، ولهف القيراط بتراب الفلوس.

- حاضر.. تعال.. تعال معى.. الحق علىّ.. أنا أرحتك ولم أضع الكلبشات فى يديك.. يكون هذا جزائى؟

شق شرطيان الزحام.. لمحهما «بيومى».. جرى بعيدا.. حصراه فى ركن من أركان الميدان دارت عيناه فى محجريهما. نظر إلينا نظرة متوسلة.. سكت الجميع. وهم يقودونه إلى الخارج كان يبكى بصوت مرتفع. نظر إلينا أخيرا نظرة عاتبة.. ومضى.

.. ..

.. ..

- يا أستاذ.. أستاذ..

- قمت متثاقلا.. قال الجرسون:

- نمت فى مكانك.. خشيت أن يفوتك القطار؟. إلى أين تسافر؟

- إلى.. إلى..

- طنطا أم الاسكندرية؟

- بلاد «واق الواق».

نظر إلى ببلادة.. مضى..

.. ..

.. ..

٥

فى المساء، تحدثت حبيبتى طويلا عن الحب والحرية.. كان رأسها محشوا بخليط من التعبيرات التليفزيونية والفلسفية.. ابتسم الجرسون ابتسامة لزجة.. قال

- تريدان شمسية؟

رفضت بتمتمة غير مفهومة. عاد يلح..

- كى تكونا بمأمن من التطفل.

صرخت فيه :

- إمش.. أغرب عن وجهى.. كلب..

نظر إلىّ خائفا. مضى. جاء المترودوتيل بالطلبات. اختفى الآخر.

علقت حبيبتى على الحادث بنقنقات أفكار. سرحت طويلا

.. ..

.. ..

جاء «بيومى».. انحنى أمامى. قبّل أقدامى. صاح

- أنت تعرف كل شئ.. فهل تشهد معى.
- طبعا... ولكن أين؟.
- لا أدرى. أكتب شكوى الآن.
- لضابط النقطة ؟!
- كتبت له واحدة.. مزّقها ورماها فى وجهى. قال : مجنون وابن......».
- .. والمأمور؟

- دخلت له قال : أمعقول أن يخطف سيادته إمرأة من رجل مقشف مثلك؟.
- لمن إذن؟
- فكر أنت؟!

.. ..

.. ..

قالت حبيبتى:

- أفكر فى ماذا؟.

عدت من جولتى منهكا. صرخ «بيومى» : انتظر لحظة. تركته. إمرأة متصابية تجلس على المنضدة المجاورة ومعها فتاة صغيرة.. أطنان أصباغ على وجه المرأة وفى فمها سيجارة. الفتاة قلقة مرتبكة. قلت :

- فى لا شئ

قالت حبيبتى :

- «صابر».. أحوالك غريبة هذه الأيام.. لعل أعصابك مضطربة..
- وآية ذلك أننى أحلم أحلاما غريبة!
- مثل؟
- رصاص وبنادق ومقصات. تمثال ضخم ودماء. «بيومى» يصرخ وما من سميع.
- مَنْ «بيومى»؟.
- صديق من أصدقاء الطفولة بالقرية.
- وأين هو الآن؟.
- فى مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة.
- يا حفيظ..

- وأمس ركبت حصانا أشهب، وسرت فى الشوارع أتهادى والناس تهتف بأسمى..

- أحلامك طريفة..

جاء رجل أكرش. استقبلته العجوز المتصابية باسمه.. ارتبكت البنت الصغيرة..

قالت «سعاد» :

- مررت على النجار أمس. قال أن ثمن القشرة زاد عما اتفقنا عليه وطلب مائة جنيه زيادة.

- لص.

- نعم.. ولكن ما العمل؟

- ملعون أبو القشرة.

- لا قيمة للموبيليا بدونها.

- ملعون أبوها فى الأرض.

انكسف وجهها. خَبَتْ لمعته. شعرها حريرى طويل. صدرها أموى وافر الدسامة. بدا من شق الثوب بعض فيضانه. أباحته لبدى المتلصصة أكثر من مرّة.. تسرب منه دفء منتشر. صحت يومها: «زملونى.. دثرونى». ضحكت وقبلت ظاهر كفّى وكانتا تعصران رمانتيها.

قالت : أنت عصبى جدا الليلة. ماذا حدث..

- لا شئ.

بدفقة حنان مفاجئة، قالت : «صابر» لا تُخْفِ عنى شيئا.

أخجلنى حنانها. قلت : لا شئ..

- لم تعد تهتم بعشنا. لعنت الموبيليات وغدا تلعننى.

- غير معقول. لكنى مرهق..

قالت :

- رأيت تصميما جميلا لركن الانتريه.. سأريكه غدا.. ما رأيك؟.

- نعم؟..

- أنت سرحان.. أسالك: أين نضع التليفزيون؟.

نفختُ بصوت مرتفع :

- لا أمل، يريد النجار مائة جنيه.. من أين نأتى بكل هذا؟.

- كلمت «ليلى» اليوم. قدمت طلب سلفة. وعدتنى بالتوصية عليها لدى المدير العام..

قلت أن الورقة التى قدَّمتها لابد قد تلوثت بالدم الذى سال حين وضعت غنيمتى على لوح الزجاج وهى تقطر دما.

قمت فجأة.. تركْت المكان.. مررت وأنا خارج بالمنضدة المجاورة.. كانت المرأة المتصابية تهمس للرجل :

- .. وهى عروس فى شهر العسل كما طلبت.

٦

«السيد المحترم صابر سويلم

تحية طيبة وبعد..

نظرا لتغيبكم عن العمل لمدة خمسة عشر يوما متواصلة دون إخطار فقد تقرر فصلكم من الخدمة اعتبارا من تاريخه.. تطبيقا للمادة ٣٤ من القانون..

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام».

«المدير العام»

٧

«إلى مولانا وسيدنا الأمام الشافعى رضى الله عنه وأرضاه. بمقامه الكريم بمصر المحروسة.

.. يا ملاذ العدل.. يا قاضى الشريعة..

سُقْت عليك حبيبى وحبيبك رسول الله وآل بيته الكرام. وحَلّفتك بالحسين الشهيد وأم هاشم الطاهرة. أن تأخذ لى حقى من المجرمين. سرقوا الحُرمة زوجتى وقيراط أرض كان عندى واتهمونى بالباطل والزور، ورمونى بمستشفى المجانين.. وغلاوتك عندى يا قاضى الشريعة أنا عاقل.. والحُرمة عايزانى.. وأنا عايزها.. العدل يا قاضى الشريعة.... العدل....

خادمكم ومحبوبكم إلى يوم القيامة

بيومى عبد الصمد

من كفر الشرقا – قليوبية

ملحوظة : أنا الأن بباب مقامكم الشريف. أنتظر كراماتك ياحبيبى يا قاضى الشريعة ليعود الحق إلى أهله، ويلقى الظالمون جزاءهم.. مدد .. مدد.. ماداد..

٨

قال صديقى «محمود»

– لا فائدة.. يوما سأقتلها لا تخلص من العذاب!

– إهدأ يا «محمود»..

بصوت مختنق قال :

– كيف أهدأ.. ذَبُلتْ.. ذابتْ، فى عينيها نظرة معذَّبة. لوى الألم شفتيها وكانتا جميلتين كحلم.. فقدتُ كل شئ.. تقتلنى بالعذاب كل يوم مائة مرة. ينشر صراخها جسدى، يبدأ بأعلى الجمجمة، ينثنى المنشار مرة ومرتين.. ثم يمر فى العظام الطرية.. يمر بطيئا جدا.. يمر.. طوال الليل والنهار..

صمت لحظة قال:

– أمس كان عيد زواجنا الأول..

– إصبر يا «محمود»..

– هق.. ولنفرض أننى لم أصبر.. فماذا سيحدث؟

– لعل معجزة تحدث.

– معجزة... تفوه على المعجزات

٩

فى الركن كانت «سعاد» تقف مع «ليلى».. كانتا تتضاحكان بشدة...

١٠

.. ..

.. ..

فى عز الظهر، بدأت مهمتى، ألقيت سلم الحبال على قمة تمثال رمسيس الثانى. شبكت مقدمة السلم فى رأسه. بدأت أصعد إلى القمة. ارتفعتُ. علوتُ. انهكنى الصعود.

قلت : لابد أن أصعد. صعدتُ. فى النهاية جلست فوق كتفيه.. أحطت رقبته بساقى. أخرجت الدُقْماق من جيبى. بدأت أدق.. وأدق.

... طارت شظية من التمثال كادت تصيب عيني. عدت أدق. كان الازميل صغيرا ولكنني عدت أدق.. نظرتُ من عل.. كان الناس صغارا، رؤوسهم محنية. قلت أن القرش مازال تائها. تنبه واحد. صاح من أسفل. لم أسمعه، لوّح بيده مهدداً.. صحت :

- اسكت
- ...
- اسكت

تجمع الناس.. ازدحم الميدان.. صعد الشرطي على السلم.. ظل يصعد ويصعد.. صاح :

- انزل يا مجنون..
- انزل أنت وإلاّ قتلتك

رفعت الدقماق.. هممت أن أقذفه في رأسه. في اللحظة التالية صرخ صرخة مهولة. تهاوى ساقطا على الأرض.. عجبت. كان «بيومي» يصعد سريعا على السلم. قال :

- غرست السكين في ظهره.

فرحت جدا.. سألته عن حاله. قال : وقفت بباب قاضي الشريعة حتى جاءتني البشارة. قلت : التمثال صلب جدا.. أين أدواتك؟. قال : ليس معي شئ. ولكن أسناني كالحديد.

عض جزءا من الذراع. أكلها بتلذذ. عض جزءا آخر.. وثالث... تجمع الناس في الميدان. ضحكت.. قالوا شيئا، صرخ «بيومي»......

- اسكتوا أيها الفريسيون.
- انزل يا مجنون أنت وهو.

صرخ :

- حَكَمَ قاضي الشريعة... ولابد من تنفيذ الحكم..

صعدت أقدام متعددة على الحبل.. قال صوت :

- يا «صابر».. أنا «محمود».. قتلتها واسترحت..

قلت : تعجلت ياغبي..

تعددت الأقدام الصاعدة على الحبل.. قال «بيومي» :

- سأقرضه بأسناني. حتى لا يصعد الأمباشي فرج.

قلت : أنتظر لحظة

كان الصاعدون قد توقفوا.. بدأوا يدقون التمثال بعنف شديد.. صاح واحد توقفوا.. نصبنا المدافع وستطلق النار عليهم. دوت الطلقات عنيفة.. فاهتز لدويها الميدان.

.. ..

.. ..

فتحت عيني، كانت قطتي واقفة في ركن الحجرة... وبجوارها إطار لصورة كانت على الكوميدينو.. وقفت تنظر إليه بخجل. قمت. نظرت إليّ القطة نظرة خائفة. جرت بأقصى سرعة.. رفعتُ الإطار. كان زجاجة قد تشقق. مسحت عليه. أطلّت ابتسامة «سعاد» المنكسرة منه.

(١٩٦٩)

بيــــان مشـــترك
ضـــــد الزمـــن

«وهل تستطيع أن تضمن لي إذا مت شهيداً؟..
ألا يعتبرني التاريخ مهرجاً».

١ إيقاعات ذات رنين مفجع

(تدحرجت حبات المطر على زجاج النافذة. لمعت في ضوء المصباح فاجتذبت بصري الذي كان قد غاب تماما في توهج المدفأة. تابعت أذني بصعوبة نقرات الماء على سطح الزجاج متوافقا - في ايقاع حنون - مع تنفسها البطيء. ها نحن في جزيرة من الدفء كما حلمنا مرة. فمن كان شريكي في الحلم؟. هي؟... ربما. ولعله واحد من أصدقاء العمر العديدين. ولكن القلق عليها يفسد كل شيء. وستكون جبانا حقا إذا تجاهلت بحر العواصف الذي يحيط بجزيرتك. ولكن من حقنا أن ننعم بشيخوخة دافئة. وتغز الروماتيزم لمفاصلك أسوأ أكدار الحياة. وتذكر أن «سعد زغلول» كان قائد ثورة، وخطيباً كالبحر الهادر وهو في الستين، ولكننا بالكاد نقدر على المشي إلى مقهى «الحرية» بباب اللوق، حيث يحتضن القلب ذكريات الزمان الخالي. هنا كانت مدرسة الحقوق ومبنى الجامعة القديم وقصر البستان، هنا

نلتقى بمن بقى من أصدقاء الزمان الأول، نتكلم ونثرثر ونترحم على عِشرة الماضى الجميل. ويتشاجر «منصور» مع «عبد الحميد» ، ويتهمه بقرص الزهر، ويستشهدان بك فينتزعاك من لحظة سارحة فى زفاف «السلطان فؤاد». أو فى جنازة «ويصا واصف»، بيد أننا نسينا الكثير. كانت الذاكرة فيما مضى من سنوات العمر تحتفظ بكل كلمة أو نأمة، ولكنها تآكلت كما تآكلت الأسنان، وصعُب التذكر كما ضاق التنفس. فألف رحمة على أيام الصبا الأول. وتفكيرك فى فقدها يورثك الجنون. كيف تخلو هذه الشقة غداً من أنفاسها ومن صوتها، وقد عاشت معك ثلاثين عاما طويلة، ولن تجد - بعدها - إنسانا تستطيع أن تزعم أنه يحفظ كل تفاصيلك وتحفظ كل تفاصيله. معها تكون حرا تماما، تضحك كمجنون وتغضب كطفل، تبكى وتغنى، وتقول كل ما يَعنُّ لك دون مراجعة. آه متى ينتهى هذا الكابوس؟. كانت دائما قوية، ولولا تَقلصات الولادة ما شاهدت لحظة ألم على ملامحها الهادئة. وترف على شفتيها وهى نائمة بسمة صغيرة، فتذكر أنك لم ترها أبداً وهى نائمة. فى أى وقت، أعود كنت أجدها ساهرة فى انتظارى، عيونها الوسنانة تتفجر بحيوية دافقة. فكيف تهاوى هذا البناء الشامخ فى لحظة واحدة؟. «والزمن» هذا ما قاله الطبيب فألف لعنة عليهما معا. نظر إلى نظرة مهنية وقال «القلب» لحظتها وددت لو قذفت به من النافذة. بلا مبالاة يتكلم كأننا نتحدث عن كلب ضال فى الطريق. شككت فيما وصف من أدوية وراجعته بمعلوماتى التى هشمها الزمان، قال :

- حضرتك طبيب؟.

قلت قبل أن الحظ ابتسامته الساخرة :

- بل مريض قديم، وفوق هذا فقد درست الطب لعدة سنوات!

زام بكلام غير مفهوم ولم يطمئن قلبى، إلا بعد عرض الأمر على صديق من أطباء المقهى، فأقر ما وصف من العلاج.

ولتعترف بأنك استرحت إليه قليلا بعد ذلك، فقد تقدمت صحتها

يوما بعد آخر، وكاشفته بخوفك عليها فدهش قليلا، ولكنه زام كالعادة، وطمأنك بكلمات كاعلانات التليفزيون .. ضخمة ولكنها رخيصة. لم يعد فى رأسها شعرة واحدة إلا وأبيض لونها. فهل تذكر متى رأيتَ بشائر الغزو؟ كان ذلك فى حجرة المأمور بسجن الأجانب. احتضنت قدها الصغير بشوق نصف عام من الغياب، وتنهدت كل خلاياها بين ذراعى. وأنا أقبِّل مفْرق شعرها، رأيت أول الشعرات البيض. ساعتها أدار الضابط وجهه عنا، وحمدت له هذا الموقف. كانت دائما خجولة، ترفض أن تبتذل عواطفها أو تعرضها على الآخرين، فماذا كان إسم ذلك الضابط : «محمد» أو «محمود»؟. ربما لم يكن هذا أو ذاك. يؤلمنى العجز عن التذكر. وكم ناشدت الأيام لحظة نسيان. بيد أن ملامح الرجل لم تكن سهلة النسيان. تابعت أخباره لسنوات فى تنقلات البوليس. ويوما لقيته وحيداً على منصة بار هادئ شأن الذى يستخفى. ذكَّرنى بنفسه، ودعانى لشراب فقبلت، لعل الخمر تنسينى ما حملته له من بغض طويل. قال : نسيتنا طبعا؟.. أتستغرب ملابسى المدنية؟ آخر خدمة الغُزُّ علقة... استغنوا عنى فى التطهير.

عزيته بكلمات أجهدنى الحصول عليها، فأردف :

- مبروك.. باضت لكم فى القفص.. هذه أيامكم، أما نحن فقد راحت علينا.

قلت بمشروع ابتسامة.

- على العموم تشكر.

- كيف حال الأصدقاء؟. ستعرضون بالطبع عما لقيتم من إهانات، قرأت ذلك فى الصحف.

ومضى، فضحكت بأسى وقلت أنه كان شريرا كالآخرين، وكان فى الجبل وحشا بكل معنى الكلمة، ولكن قلبى لا يطاوعنى على التشفى فيه. وإذا كانت قد باضت حقا فمن الذى أكل بيضتها؟.

توقف المطر فى الخارج وحركت رأسها. فتحت عينيها وظلت لحظة

صامتة ثم قالت :

- لماذا أنت ساهر حتى الآن؟.

- أنت بخير؟.

- طبعاً.. ولكن عليك أن تنام. تعال هنا.

افسحت لى مكانا بجوارها على السرير، وأحكمت الغطاء حولى، وشعرت بدفء جسدها، وكنت بين اليقظة والنوم عندما قال صوتها:

- هل لبست الجورب الصوفى؟!

***

رفع الطبيب السماعة، وابتسم ابتسامته المهنيّة وقال :

- عال. دقات القلب منتظمة، والضغط لا بأس به، وفى المرة القادمة ستأتين على أقدمك إلى عيادتى.

قال صوتها الضعيف وهى تعيد ترتيب ملابسها :

- حقا يا دكتور، أستطيع أن أمشى؟!

هزّ رأسه بثقة مفتعلة :

- بل أنت فى حاجة إلى التريض.. ولكن رفقا بنفسك.

ساعدتها «أحلام» على الجلوس، ناولته جهاز الضغط فرمقها بنظرة ذكرية لم تعجبنى. فى انتظار الشاى جلس يكتب تذكرته الطبية. يبدو أقل من الأربعين، ولكن الصلع التهم ملامح الشباب فى وجهه، تأمل أثاث الحجرة القديم، واللمبة الكبيرة التى تتدلى من سقفها قال:

- اطمئن. اجتازت الأزمة بسلام.

ثم ضاحكا :

- أنت تحبها أكثر مما يجب.

- عِشرة العمر يادكتور... أربعون عاما تقريبا.

ناولنى التذكرة ، قال :

- كنت أظن أن تقدم العمر وقِدَم الزواج كفيلان بـ... بـ......

وفرت عليه اللجلجة :

- لا.. هذا غير صحيح.

وضعت «أحلام» الشاى على المنضدة. تأملت صباها النضر بنظرة مشوقة، أما هو فقد عاد يتحسسها بنظرة ذكرية، قلت أن صلعته تحتاج إلى «بيريه» يحميها من البرد كما يفعل «عبد الحميد». قال بفضول :

- ابنتك؟

- تقريبا.. ابنة الجيران.. ولكننى فى مكان والدها.

زام مرة ثانية. استلقت عينيه على صورة لى فى إطار أنيق، فتأملها لحظة، وبدا مترددا.. ثم هرب إلى جرامفون قديم.. ولاحظ بوقه الكبير فسأل عنه. وهربت عيناه منى إلى الصورة. قلت أن عينيه لوزتين.. أما لونهما فمن الصعب أن أميزه. وَهنَ العظم وضعف البصر واشتعل الرأس شيبا. ويوم خرج «سعد زغلول» يتوكأ على عصاه، ويلف عنقه بشملته الصوفية حذر البرد، بُحَّ صوتى من الهتاف ولكن الارتعاش شمل كل شئ. لم يعد لنا صوت معدود بين الأصوات. ولعلك تذكر أول تجربة جنسية لاهثة مع «إجلال» فى حقل الذرة. كانت سريعة ومتوترة وبلا لذة. ولكن ذكرى آخر مرة قد ضاعت من الذاكرة. خمدت جذوة الحياة ولا أمل فى استردادها. ما الذى يجذبه فى الصورة؟. لعله الصبا المتفتح فيها. آه. غدا سيقارن شيخوخته بصور صباه، فيتفتت القلب حسرات. قال:

- لا تؤاخذنى.. هل كنت تعرف الدكتور «محمود محرم»؟.

لا فائدة، تحتفظ الذاكرة بالكثير، ولكنها تصدأ عند السؤال، ولا بأس من مجاملته بمحاولة التذكر. سيدلى طبعا ببيانات إضافية ليساعدك فى محاولتك اليائسة. وكم عدد الأشخاص الذين عرفناهم باسم

«محمود»؟. مطالعة الحياة سبعين عاما متصلة شئ مرهق على كل حال... ورغم كل ما قدم من توضيحات فلا مفر من إعلان اليأس، ورفع الراية البيضاء، اعتذرت بضعف الذاكرة. قال :

– إنه أبى، وقد رأيت صورتك تلك معلقة فى صالون منزلنا القديم.

خفق قلبى للذكرى، وتساءلت بلهفة :

– وهل مازالت كذلك حتى الآن؟

ابتسم بخجل :

– ظلت سنوات بعد وفاته، فقد دافعت أمى عن الترتيب الذى تركه لأثاث البيت. ولكن زوجتى تزعم أن ديكور المنزل الحديث ينفر من صور الأشخاص، وسألتنى عن علاقتك بأسرتنا فقلت أنك صديق لأبى، فهكذا كنت أظن، وأخيرا اضطررت إلى رفعها، ولا أدرى أين هى الآن؟.

ضحكت بأسى وقلت مهونا :

– مع أحد باعة الروبابيكيا بلا جدال، ولكنى أشكر للوالدين اهتمامهما.

رشف ثمالة كوبة.. وقال :

– ولكنك لم تكن تعرف أبى كما تقول، وأظن أنه قد تحدث عنك مرة ولكن نسيت التفاصيل..

قلت أنه ليس وحده الذى نسى، ولعلنى أنا نفسى قد نسيت، ما قيمة أى شئ، وما أهمية أن تتحقق كل أحلامك فى وقت لم يعد أمامك فيه إلا انتظار الموت. ضحّينا بملذات حقيقية فى الحياة.. ولكن الزمن بلا ذاكرة، لذلك كَرِهتُ كتب التاريخ، كما كرهت الراديو والصحف ، أما التليفزيون فلو توقعت اكتشافه فى الزمن الحالى لالتحقت بسيرك «الحلو» فضمنت ظهورا ثابتا على شاشته، وها هو شعور بالخجل يلفنى لأننى مضطر لأن أقدم له نفسى، قلت :

– هذه صورة منقولة من غلاف مجلة (اللطائف المصورة). ولعل أباك قد بروزها لأسباب قامت لديه.

أجهد نفسه ثم قال :

– يالى من نَسّاء كبير... تذكرت الآن... أظن أنك كنت متهما فى قضية ما.. سياسية فى الغالب.

– فى الغالب؟!

قال بحرج :

– أقصد أنك...

قلت بدفعة :

– أؤكد لك أننى لم أكن أحد أفراد عصابة «ريا وسكينة»..

اعتذر بكلمات متلاحقة. ندمت على غضبى. وهو يبدو سمينا ومتكورا شأن الذين يتغذون بالحياة، ولعلنى لو اتبعت طريقه لالتقيت به تحت رئاستى فى أى مستشفى.. واستئناف الحوار معه يبدو مشكلة. ولكن السكن فى هذا الحى الأثرى لم يعد مشكلة. لم تَعُد عليه عوادى الزمن كما عَدَتْ على طرقات المدينة. وأحمد الله على أنك وجدت من يذكرك فى هذا العالم. وهو على أى الأحوال معذور. لم يعد أحد يذكرنا.... فهل ضاع العمر هدرا؟. ولكننا لم نكن نفكر كذلك فى الزمن الحالى.. فهل شاخ ما فى رؤوسنا كما شاب الشعر وتساقط أكثره.

قلت مُطيّبا خاطره :

– أكان والدك طبيبا؟.

هز رأسه موافقا.. قلت

– لعلنا أبناء دفعة واحدة، فقد درست الطب ثلاث سنوات حوالى سنة ١٩٣٠.

قال كأنه حل معضلة

– صح.. كان أبى طبيب امتياز سنة ١٩٣٦ فمتى انهيت دراستك!.

– لم أنهها حتى اليوم. زج بى «صدقى باشا» فى السجن لأننى حاولت اغتياله. فلم أغادره إلا بعد عشر سنوات..

رفع رأسه دَهِشاً وقال :

– تذكرت الآن كل شئ.. ولكننى لا أصدق أنك اطلقت الرصاص حقا!.

تنهدت براحة ولم أرد. تحدث قليلا.. قلت أننى أبدو شيخا طيبا لا يتصور الإنسان أنه فكر فى القتل، قال وهو ينصرف :

– يا أستاذ «سليمان». نحن سَميّان، وأظن أن أبى قد اختار لى إسمك، ولكنه حرص على ألا يكون لى مصيرك..

ابتسمت برارة.. وصافحته ببرود.

***

ونحن فى الشرفة انعكست شمس الضحى على ملامحها الهادئة. خمدت نظراتها وضعف بصرها فيما ضعف من حواس. كانت عيناها تحسنان التكلم فيما مضى من أزمان. وفى ضجيج الزيارة فى السجن حيث تختلط الأصوات العالية كانت عيناها تخترقان الأسلاك وتعبران فوق خطوات الحراس، إذ ذاك كانت شحنات من الأمل تنفذ إلى صدرى، ويظل وجهها الأبيض نابضا فى خيالى بحيويته أياما، رغم ثقل السلاسل الحديدية وصلابة أحجار الجبل. وفى الحارة المجاورة مات واحد أمس فحزنتَ عليه كأنه وليدك، واجتررتَ اليأس ساعات طويلة. وها هو النواح يهد أعصابك هداً. ذكرتُ الطبيب وحكايته، فابتسمت عن طقم أسنان لامع وقالت :

– سيذكرك كثيرون، ولعلك لا تذكر أباه؟.

– لا أذكره، ولكن هذا شئ بلا معنى.. وقد تقززت لأنه يحمل أسمى فهو سمين كالبقة الحبلى.. ولعله هنأ نفسه لأنه تحاشى مصيرى..

جاءت الحلية، فألف رحمة لأيام الشاى والقهوة والسجائر والبيرة «الستاوت» الأصلية. ومرة فكرت وأنا فى الزنزانة أن أعد قائمة بالممنوعات فوجدتها أكثر من أن تحصى: المقعد والمرآة والساعة والثقاب والحزام والصحف وآلات الحلاقة.. ويوما طمحت إلى التأليف، فإذا عاودنى الطموح فسأكتب مقالاً عن الممنوعات فى حياتى – فكرة طريفة تصلح لصحف هذه الأيام التى يحررها القوادون. وها هى «فوزية» قد عادت إلى حالتها قبل المرض. فلتحمد الله على أنها استردت عافيتها. وهى لا تكف عن تأمل الأطفال فى الشوارع. كان الزمان جلفاً: التهم إبنكما الأول وهو فى السابعة، ولد ونما، ومات دون أن يعرفكَ أو تعرفه جيدا. يومها رأيت عينيها عبر الأسلاك باكيتين، وتوسلتَ للضابط الجبان أن يسمح لك بلقائها دون أسلاك فأبى واحتج بالتعليمات. رجوت كطفل، ولكن رأسه كانت أصلب من أحجار الجبل. صغيرة القد كما كانت دائما، ولكن السمنة تراكمت عليها ففقدت رشاقة الصبا والتفاف الأنثى الناضجة. وهذا الاكليل الأبيض على رأسها لم يفقد نعومته ولا استرساله، وتَذْكر كم دفنت رأسك بين تلافيفه فى سود الليالى. وكانت تَدِبُّ بقدمين خفيفتين على أرض شارع «الخليج المصرى»، من بيتها فى «الحلمية الجديدة» إلى مدرسة «سان فان دى بول». وزيها المدرسى الخفيف الزرقة، يوحى بأنها تتلفع بقطعة من سماء يوم شتوى بلا غيوم، وتابعتها عيناك الشابتان، وكان الزمن ضيّقا والحصار شديداً، ولكنك اكتشفت جيرتكما، وحفزت أمى من طرف خفى إلى دعوتها وأمها فى أيام «المقابلة»، واستطاع القلب أن يعرفها ويحفظ كل تفاصيلها، كما استطاعت الأذن أن تعى إيقاع صوتها الحنون وهى تغنى «يمامة.. بيضا».

شهقت لأن طفلا اندفع وراء كرته فكادت السيارة أن تدهمه، وتشنجت يدها على حديد الشرفة ثم انحطت على المقعد لاهثة بعد اطمئنانها على الطفل. قلت :

– هذه الانفعالات لاداعى لها. وأخرتها معك؟.

تنهدت بأسى.. وأطبقت رواية فرنسية كانت تقرأها وقالت :

- الناس يرمون لحمهم فى الطريق، فسدت الدنيا (وبرنّة نائحة) لا يعرف غلاوة الأطفال إلا من رزئ بالثكل.

كأن قلبك يتمزق بساطور جزار، جاء الأولاد تباعاً بعد خروجك من السجن، وما كادوا يُزهرون حتى اختطفتهم الأمراض.وتذكّر سنة الكوليرا اللعينة، ضاعت «صفية» و«سعد» فى شهر واحد، وعانيت الاحساس المُرّ بالفشل، وقلت أنك صيد سهل لمطارق الزمن، وسألت الإله حائراً: لماذا يترصدك؟!. وخبا حماسك الذى لم تزعزعه مرارة السجن. نسينا كثيرا من الأفراح.... فمتى تغادر الأحزان الذاكرة؟!.

لم يغادر المكان شئ سوى الشمس التى توارت فجأة مع رذاذ ماء. رفعت «فوزية» «رأسها وردت التحية على صوت فى الشرفة العليا. لم أسمع المتكلم. وَهنَ السمع كما وَهن كل شئ. قالت :

- أحلام تُصَبّح عليك.

رفعت وجهي فالتقى بوجهها النضر، مشرقة كشمس اليوم، عقصت شعرها فى منديل رقيق الألوان. كوّمت الملاءة التى كانت تنشرها قالت :

- كيف أنت ياعمى..؟. لا حل لكى لا أحرمك من الشمس إلاّ أن أنشر هذه البلوى عندكم.

بعد لحظات كانت واقفة تنشر ملاءتها. تأملتها «فوزية» بعين محبة.. وفتُ أنها تحبها بشكل غريب، لو عاشت «صفية» لكانت فى مثل سنِّها الآن أو أكبر قليلا. قالت وهى تتناول مشبكا :

- هل سمعتم الأنباء؟. قال الراديو الآن أنهم أغاروا على حلوان.

أثار كلامها اهتماماً حاداً فى صدْرينا. خرج صوتانا فى وقت واحد يسألان عن التفاصيل :

- هربت الطائرات، وسقط منزلان.

مصمصتُ فى أسف، ولكنها مضت معلقة على الخبر. قلت أن تفكيرها أكبر من سنِّها بكثير، وقد عادت الغارات ولكن أين القوة التى ترد المغيرين. لم تمنعك سنوات السجن من أن تخرج فى سرحات ليلية لاصطياد الجنود الإنجليز فى الطريق. كانت أفضل الليالى محصولا عندما يعم ظلام الغارات. ولكنك لم تشهد فرحة الجلاء عن القاهرة، لأن الحزن كان يفتت قلبك على «صفية» و «سعد»، أما هذه البنت فهى ثرثارة شأن الصغار وقد عرفت عنك كل شئ، بحكم الجيرة الطويلة، وها هى تشق طريقها فى دراسة الطب بمهارة تحسد عليها. شهدتها طفلة، وعالجتها خبرتى القليلة من المغص والنزلات المعوية، ولكنها ككل الشباب متعالمة وتصدر أحكاما نهائية على الأشياء وعندما تنفعل يتسلخ صوتها ويصبح كنقيق الضفادع.

ولأن الزمن أصبح هازلا فليس مستحيلا على الزمن أن تصبح يوما من نجوم العمل السياسى فى هذا البلد المنكوب.. ولم لا؟.. أليست اشتراكية متحمسة، بدليل أنها تعرف بعض القشور التى تصلح للثرثرة أو للمباهاة.. أما أنت فقد حكم عليك «صدقى باشا» أن تعيش كالحشرة فى أرشيف وزارة الصحة، ويومها استقبلك صديقك «منصور» بالأحضان والنكات، ولولا العقار الذى تركه الوالد، والتهام الزمن للأبناء لشحذنا من اشتراكييّ سنة ١٩٧٠ فأغثنا يارب السماوات. قدمت لها «فوزية» الشاى فشربته بلهوجة شديدة، واستمرت تتدفق بالكلام :

- لا مفر من الحرب المسألة ليست لعبة!!

هذا كلام يحتاج إلى نكتة بذيئة من نكت «منصور» الحريفة، وأظنان منه هى التى ألهبت مرارتى التهاباً مزمنا، ولا بد من التنفيس حتى لا تنفجر وتودى بى :

- كلام سليم.. ولكن من الذى يلعب؟.. أضعتم البلد بلهوكم.

وتتحدثون كأن المجرم شخص آخر.

تحفزتُ للجدل، ولتعترف بأنها رغم سطحية الكثير مما تقول تتفجر بالحماس لأشياء مجهولة... ويأبى عقلك أن يتصور حماسها هذا نابع من ذاتها، ولعلها تحب واحدا من ثوريي هذه الأيام السوداء، ذلك أنها تردد الكلمات كأنها تتلقى بين كل كلمة وأخرى قبلة ساخنة، ولتقر بأن شفتيها جميلتين، وينبغي أن أؤنب نفسي لأنني ألهبت خيالها وهي في بداية الشباب بذكرياتي. بيد أنها أصبحت كائنا مزعجا تتحدث بصوت عال، وبثقة وغرور، كأننا ندبّن في حلبة صراع. ولولا حب «فوزية» الشديد لها لعاملتها بالخشونة التي تستحقها، ذلك أنها حشرة مقلقة، وها هي تختم كلامها..

- إن البكاء على الماضي قلة عقل، وقد أودَت النكسة بمن سببوها وأمامنا واجب لابد أن نؤديه..

أستفزني غرورها، واستفزني أكثر إعجاب «فوزية» الواضح بها.. قلت:

- هذا ضحك على الذقون ياست «أحلام».. وذقني شابت، ولن تضحك على قارورة مثلك، لم تودي النكسة إلا بضحاياها، وأنتم تكتفون بالكلام.. وإذا هشّ أحد عليكم بعصا جريتم كالفيران..

أكلمتُ ضاحكا:

- أراهن أنك ستتخرجين وتسمنين على دماء الفلاحين الذين تدافعين عنهم، ثم تلهفين واحداً من رؤساء مجالس الإدارات، فيستولدك عددا من البنين والبنات، وكان الله بالسر عليما.

أحمر وجهها الرقيق من الانفعال، واحتجت «فوزية» بهمهمة غير مفهومة وقالت:

- «سليمان».. لا تغضبها.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة حائرة.. وقالت..

- سأحاول ألاّ أكون كذلك.. ولكني لا أدري ماذا كنتم تفعلون لو كنتم مكاننا؟

خفّ توتري، وداخلني إشفاق حاد عليها، وقلت أنني أصبحت قاسياً دون أن أدري، فكيف تسللت إليّ عبر الزمن كل هذه القسوة الجلفة، آه ما أكثر ما قتل داخلنا من مشاعر، وسيَقضي علينا في النهاية نزيف داخلي من خيبة الآمال التي تَنِزُّ في القلب.. صببتُ على حماس الطفلة المشتعل دلوا من الماء المثلج، فيالي من عجوز حاقد..

- لا أدري.. نحن ثُوار على المعاش.. لا أحد يذكرنا أو يريدنا، ولكنني أذكر أنني عندما قررت فعلت، ولم أتكلم كثيرا.

غابت عيناها وراء يمامة سارحة في الجو. وضعت كفها في مقلة الشمس، لتحميها من الضوء.. شاقني منظرها، تسلل عبر الزمن إيقاع موسيقى خافت وغنت «فوزية»: «يمامة بيضا» فانتشى القلب مع صوتها الشجي. من الحارة المجاورة تصاعدت صوت الندابة ترثي الميت.. قلت لنفسي:

- إنني عجوز حقا.

٢

مشروع للتأمين ضد غدر الزمان

في المقهى تبادلا الفكاهات ورمي الزهر. وقصصت عن الدكتور «سليمان محرم» وعن «أحلام» ولكن أحدا لم ينتبه إليّ. وجاءت الشيشة لمنصور، فقبلها بلذة حسية. وتذكرت أنه قال مرة أن شرب الشيشة هو تمرين على أفضل طرق التقبيل التي تفتح الباب أمام عوالم النشوة الأصلية. وقال «عبد الحميد» إن الانتقال إلى «البيتيت إزوازو» سيكون واجبا قوميا بعد

الهزيمة الساحقة التى سيمنى بها «منصور». كانت دقات الطاولة كالمطارق النحاسية. أغلقتها رغم عنف الاحتجاجات.

وجاء «التمر هندى» فشربت هنيئا، وجريت بعد أول رشفة خلف بائع العرقسوس فى شوارع الحلمية، وكاد يدهسنى حصان كان يجر «فَيتُونًا» بداخله باشا تركى مبروم الشوارب.. وكان الزمن ١٩١٧ أو ١٩١٨، فكم من السنوات مضى على ذلك؟. تهدل شاربى وأصبح خطاً ناحلا ولولا الحياء لحوته كشبان هذه الأيام. رفض «عبد الحميد» أن يخلع الطربوش تنفيذاً لتعليمات مجلس قيادة الثورة، وظل متمسكاً بموقفه، ولم يستبدله بهذا البيريه إلا عندما هزمته نظرات العابرين الذين اعتبروه من أعاجيب الماضى. وضحك «منصور» يومها وأكد أن اصراره على عدم السير عارى الرأس لا تفسير له إلا أنه يخشى على قدرته الجنسية من أن تتطاير من صلعته. ويوم ماتت «أم المصريين» مشيتُ فى جنازتها وبكيت بالدمع الهتون. تذكرت الدنيا فى عز شبابها وحيويتها، كانت إمرأة قوية وأيضا جميلة، وكان جمالها جليلاً، لذلك تصدرت صورتها حجرتك. ولم يبق من آثار ذلك الماضى سوى «منصور» صديق القمطر الواحد بخليل أغا الابتدائية والخديوية الثانوية، دفعته صداقة العمر لأن يشاركك مغامرتك الأولى، ولكنه نجا من عيون الرقباء. وتمر السنون فتلتقيان فى أرشيف وزارة الصحة، يومها احتضنك وقبلك وكاد يبكى فرحا، زعق بأعلى صوته :

- ضيّعتك السياسة وطالما نصحتك، أما أنا فان عشق البنات البكارى وغير البكارى قد ضيعنى.. ولذلك قضت مقاديره أن يلتقى المتعوس بخائب الرجاء. أما من منا المتعوس ومن منّا خائب الرجاء، فهذا المعنى فى بطن الشاعر، والأرجح أنه فى مؤخرته واللهَ أعلم. والآن فلتسمعوا يا حشرات الأرشيف.. دعونى أقدم لكم هذا الرجل العظيم الذى قضى فى السجون عشر سنوات من أجل من يسميهم بالشعب المصرى. وهو بطل، أقسم على ذلك بأشهى من ضاجعت من نساء.. ولكن الذين أضاع عمره من

أجلهم. ونحن منهم، قضوا أعمارهم فى تدخين الحشيش وابتلاع المزول، ومضاجعة النساء، وأحيانا الغلمان والبهائم لذلك فهو فى الغالب مجنون.. فوق أنه بطل.

ضحك الجميع، وها هو أمامى شاهد على أن ذلك الزمان لم يكن وهماً، ففيه ضحكنا ولعبنا. وقد عاش أعزبا رغم مغامراته العديدة وتذكر أنه قبل المخاطرة بنفسه ليؤمن ظهرك يوم المغامرة الكبرى، رغم أنه لم يكن يهتم بشىء.

وذكرت الغارة فمط شفتيه استياء وقال :

- أنت مصاب بداء السياسة، وبودّى أن تصاب بداء عضال كالذى عندى.

ضحكتُ رغم أن القلب كان يعانى إحساساً مريرا بالخيبة، وبدت بدانته رمزا لكف الزمن عن صقلنا. أحكم «عبد الحميد» البيريه الذى يدفئ صلعته وقال :

- هيه.. تحدثْ يامولانا وأطربنا.

خلع منظاره ذو الإطار الذهبى وقال :

- الظاهر أننى سأعلن التسليم النهائى. ولا بأس إذ ذاك من الاهتمام بشئ آخر، كالامبريالية أو كرة القدم. فى الأسبوع الماضى تلبستنى حالة انتعاظ شيطانية، برمت شاربى لها، واهتزت حواجبى على واحدة ونص. وهى خادمة، ولكنها صبية وملفوفة القوام وطماعة وأخلاقها فى الدرك الأسفل. ولكن المسألة إنتهت إلى فشل ذريع بعد كل هذا المجهود. نهج أخوكم، ونام كالرطل، وضحكت بنت الكلب، ونصحتنى أن ألبس بنطلونى حذر البرد.

لفتت قهقهاتنا العصبية نظر عدد من الشبان الجالسين حولنا، فحاصرتنا نظراتهم الداهشة ممزوجة بابتسامات هازئة. قلت :

- الحمد لله.. أراحنا من وجع الدماغ.

سحب نفسا طويلا من الشيشة، وصفق طالبا تغيير النار، ثم قال :

- ولكنك خيبة وطول عمرك رجل شرعى، أما أنا فقد ذاعت شهرتى فى أرجاء المملكة، ويوماً طاردتنى إحدى أميرات البيت المالك فقضى الزمن ابن الكلب أن تسخر منى خادمة. وعصر اليوم قابلتنى الملعونة على السلم فغنت «ما اخدش العجوز أنا».

تواصل الضحك طاردا كَدَر اليوم، وتحدث «عبد الحميد» وكان أصيانا نسبيا، عن المقويات، ولكن «منصور» أعلن يأسه من كل شئ، وقال:

- أزمتى مستحكمة كأزمة الشرق الأوسط، ولكن لا بأس من دعوتكم إلى كأس فى «لابيتيت إزْوازو».

ذكّرتهم بأن الطبيب منعنى من شرب الخمر، فأقسم «عبد الحميد» أنها جالبة للنشوات فى سنوات الكدر التى نعيشها، فقلت أن كلامه صحيح، ولكن الخوف أصبح كل شئ فى حياتنا. وكأس واحدة من الخمر كفيلة بأن تقعدك أسبوعا حبيس الفراش. ذلك أن عشر سنوات من أكل العدس والفاصوليا والعسل الأسود قد أصابتك بما لا شفاء منه، والغريب أن الرجل قد نجا رغم كثرة المترصدين، والسماء لا تسمع الشكوى، فهل ضعف سمعها مثلنا.

تحدث «عبد الحميد» بصوت حلقى :

- «سليمان» زعيم قديم، فماذا لو ضبطه، أحد المعجبين بنضاله فى حانة من الدرجة الثالثة كـ «لبيتيت ازوازو».

هذا أنسب الأوقات للهذر السخيف، لم يعد أحد يذكرنا أو يعرفنا وأمس قالت «أحلام» بصوت حاد أن ما كنا نفعله هو مجرد «إرهاب» وأن العمل الثورى شئ غير هذا، فتأمل عجائب الدنيا. كانت طفلة فى الثالثة عندما رأيتها لأول مرة، وكم حملتها ولاعبتها. وتابعت مع الأيام اندفاعاتها إلى عالم الأنوثة، وشاقتنى أثداؤها الرقيقة فاستعذت بالله من الشيطان

الرجيم، وها هى تردد كلمات يلقنها لها من لا تعرفه. خفتت نظرات الإكبار والولاء، وأصبحت كلماتها سرطانا يمزّق البدن. ولتقر أنك تحبها رغم هذا. أما هذا الرجل الأصلع الذى لا يكف عن الشكوى من ابنته، فماذا تقول لـه؟.

- المعجبون بنضالى لا يذهبون إلى الحانات.

تناول «منصور» بقية النقود من الجرسون وقال :

- هذا غير حقيقىٌ، ألا تقرأ عن شبّاب هذه الأيام، إنهم يحششون ويرقصون، ويضاجعون حبيباتهم فى الحدائق العامة، وبدلا من صيحات النشوة التقليدية، يتخلصون من توترهم بالهتاف بسقوط التدخل الأمريكى فى فيتنام. ولو كنت أعلم أن الثورية هى هذا، لكنت أعظم ثوار هذا العصر. ولكن هذا الرجل الذى حاول قتل «صدقى باشا»، علمنا أن السياسة بهدلة، وضياع للمستقبل وفى النهاية لا تجد حتى من يذكرك؟

فى قلبك راحة، فلتقل أنه كائن تافه، ثم أنّه حِسّى إلى درجة القرف، ولكنك لن تنسى أنكما ارتبطما برباط لا تدرى سببه، حَمَى ظهرك وأنت تقوم بمحاولتك واختفى بالمسدس، فكادت القضية أن تجهض لولا شهود الرؤية الملاعين، وهو يشعر بالمصيبة مثلك، وفى القلب محترق الآمال، وحصاد مر: ضاع الأبناء والعمر، ونَسِيَنا الجميع. ويوم سقطت «فوزية» فى قبضة المرض، وكاد الرعب من فقدها يقتلك. ولتتصور الحَياة من غيرها. آه.. هذا العالم مرير، والزمان غادر حقا، فهل يشهدنا الصباح أحياء.. أم يأتى هؤلاء الأصدقاء غدا يعزون فيك.. يقول الجيران : رجل عجوز مات، ويمضون إلى حياتهم العادية، ولن تجد من يحزن عليك فى هذا العالم العريض سوى «فوزية». فما أقل ما سوف يُذرف عليك من دموع. أما «أحلام» فسيجفف صديقها المجهول دموعها بقبلاته. ستشعر «فوزية» بالفراغ القاتل بعد رحيلك وستقول أن الزمان يترصدها كما ترصدها السجن وفقد الأبناء والخيبة المتلاحقة. وفيم يثرثر الصديقان الآن؟.

هذه صلعة «عبد الحميد» تبدو فى الضوء الخافت متجعدة حزينة، والمكان هادئ ضيق أشبه بزنزانة سجن القناطر الذى نزلت به ضيفا لعدة شهور. وليس هناك أحد سوى بضعة أشخاص على المائدتين المجاورتين، و «المدام» خلف «البار» تتحدث مع شاب طويل. والحديث أغلبه همس، والضوء خافت، ولا بأس بكوب البيرة، فهى مدرّة للبول، واحتجازه بعض سخافات الزمن تصيبك بين حين وآخر، وخاصة فى الشتاء. قال «عبد الحميد» مواصلا ما كان يرويه:

- وهكذا وجدت نفسى أمام شاب كالحائط، أحمر الخدين، يضع ذراعه فى ذراع ابنتى، وكنت قد لهثت من محاولة اللحاق بهما.

«منصور»، وهو يضيف الثلج والصودا إلى كأسه :

- موقف محرج. وماذا فعلت؟

- كذبت عَلىَّ البنت طبعا.. وقالت أنه زميلها فى الكلية.

تساءلتُ :

- وهل صدقتها؟

«منصور» بدفعه :

- طبعا... أنه رطل كحضرتك!

«عبد الحميد» :

- لا طبعا لم أصدقها. والحقيقة أنه لم يترك لى فرصة لذلك. فقد انحنى وقدم لى نفسه باعتباره معيداً بالكلية. وقال بوقاحة مدهشة أنه والبنت حبيبين منذ أربع سنوات، وأنه سعيد بالتعرف علىّ وسألنى عما إذا كنت استطيع مساعدته فى الحصول على شقة بإحدى عمارات التأمين باعتبارى موظفا سابقا بها. ذلك أنهما قررا أن يتزوجا فى الصيف القادم، عقب تخرج البنت.

صمت لحظة، وقام ليدخل دورة المياه فلاحظت أنه يفعل ذلك بكثرة مثلنا جميعا. وقلت لنفسى أن كل أجهزتنا قد تدمرت تماما، فنكصنا إلى

زمن الطفولة الأول ووضع كل منا مبولة بجانب سريره. فمتى ينتهى تقهقرنا بالعودة إلى رحم الأم.

أكمل بعد عودته :

- والخلاصة أننى وجدت نفسى كاللوح بينهما. فقد اعترضت البنت على شقق التأمين وقالت أنها قديمة وواسعة وتبتلع أثاثا كثيرا. قضت مقاديره، أن يسقط شعرنا ونستبدله بقرون. فأدركونى بكأس من ماركة «تيس» سنة ١٩٧٠.

تصاعدت أصواتنا مهنئين :

- ستصبح جَداً عما قريب، ولتحمد الله على أنك أنجبت. سأموت دون أن يبكيني أحد، أما «سليمان» فقد أضاعت السياسة نصف عمره، والتهمت الكوليرا نصفه الباقى.

- صلِّ شكراً لله، فأن تعش تَيْساً خير من أن تعيش لا شئ.

رفع يديه إلى جانبى وجهه ممتناً وشاكراً. وقال وهو يرفع سبابتيه إلى جانبى رأسه على هيئة قرنين.

- ولكنى أريد زجاجة ماركة «سفنتى تيس»

سأل المدام فأستغربت الطلب. وضحكت عندما ترجم لها «منصور» طلبه. وقبلت دعوتنا إلى كأس لاحظتُ أنه مخلوط بالماء المقطر وانتقلت الجلسة إلى البار.

أعاد «عبد الحميد» رواية الحكاية على «المدام» فسمعتها باهتمام مبالغ فيه. وقلت أن عمرها يزيد على الخمسين، ولكن المكياج يجعلها تبدو أقل من الأربعين. ولاشك أن السواد الذى يتوج رأسها هو باروكة. وانحنى «منصور» على أذنى فأنبأنى أن الحالة عاودته وبشرنى بأن ليلتنا ستكون فُلاً. نصحته بأن يتروى فلعلها حالة كاذبة فشتمنى وقال :

- تعلّم ياغبى كيف تصطاد امرأة كنوز. يسعدنى يامدام أن أقدم لك أصدقائي: هذا السفنتى تيس هو الأستاذ «عبد الحميد واصف» موظف

من أوائل الذين وضعوا أسس التأمين على الحياة فى بلادنا ولكنه تعيس الحظ فقد كان شؤما على عملائه.. وعلى شركته. فإذا أمّن أحد على حياته بمعرفته يموت، وبهذا يخسر المُؤمَّن روحه، وتخسر الشركة قيمة التأمين، لذلك كرهة الأثنان، أما هذا الرجل العجوز فهو الأستاذ «سليمان البنهاوى» فهو مناضل قديم، حاول قتل «صدقى باشا» ودفع ثمن ذلك عشر سنوات قضاها متنزها بين أبى زعبل وطره.

قطع «عبد الحميد» الحديث محتجا.. واختصتنى المرأة بلفتة اهتمام مفاجئة وقالت:

– السجن شئ سخيف... ولكنك عُوِّضت عن ذلك طبعا بعد الثورة؟

ضحك «منصور» ضحكة عالية وقال :

– طبعا... أرسلوا له وسألوه : أين أنت يا نور العيون؟.. أوحشتنا يا رجل... لا أوحش الله منك ياسي «بنهاوي». فقال الملعون بتواضع ها أنذا. فقالوا : إذن تفضل ياروح أمك. وأرسلوه إلى المعتقل كنوع من التكريم لبطولته واستمروا يكرمونه عامين كاملين.

ابتسمت المرأة ابتسامة بلا معنى وأشعلت سيجارتها. أثارتنى رائحة التبغ، فأستنشقت الدخان المتطاير، وقلت أن «فوزية» ستلومنى لأننى تأخرت، وستشم رائحة البيرة، وتقلق على صحتى.. ومن لى بيوم من أيام ذلك الماضى الذى لن يعود. ويوم تسللت إلى حجرة المقابلة فوضعت صورة كبيرة لى فى مواجهة المقعد الذى تعودتُ الجلوس عليه. ستعرف لا ريب الوجه الذى يتابعها دائما بعينين متعطشتين ترعيانها فى طريق الذهاب والعودة إلى المدرسة. ومتى يتوقف المطر الذى يسقط بالخارج.. وحكايات «منصور» لا تنتهى.. و «عبد الحميد» يفرض مشكلته على الحديث. قالت المدام:

– لا تحزن يا «عبد الحميد بك» تغيرت الدنيا،، وهذه مسألة عادية...

– ولماذا تتغير؟. ماذا كان يضيرها لو انتظرت حتى نموت فتتغيرت على كيفها؟.

«منصور»:

– طول عمرك رجل رجعى، ولذلك تستحق كل ما يجرى لك. اختفى «سيد درويش» ومات «الشيخ زكريا» و «بيرم التونسى» وأصبح «عبد الوهاب» يغنى منولوجات، ولذلك أرى أن نموت.

«عبد الحميد» : .

– ونُعى «مكرم عبيد» فى ثلاثة سطور و «مصطفى النحاس» فى ربع عمود لذلك استحقت الصحف ألا نقرأها لأنها غادرة كالزمان.

قلت بحزن : لم أستطع أن أشارك فى توديع النحاس، بسبب جلطة الساق فبكيت فى الشرفة حتى آلمتنى عيناى.. ومع ذلك اعتقلت عامين بتهمة المشاركة في جنازته.. همس «منصور» :

– يا أولاد الكلب، قلبتموها محزنة، والحزن يطفئ الشهوة، فكفوا عن هذا النواح.

تساءلت المدام ببسمة مدربّة :

– ماذا يضايقك يا «منصور بك»؟

– لا شئ يا مدام.. ولكننى تذكرت صديقة أدعوكم لشرب كأس رحمة ونوراً على روحها.

ثم هتف رافعاً كأسه

– فى صحة المرحومة زينب البكرية!

تساءلت عينيها فاستمر...

– ألف رحمة عليك ياست «زينب»، لو عرفت لك قبرا لزرته و مارست فى قنانة الحب مع هذه السيدة الجميلة. ثم حزّمت خضري ورقصت عشرة بلدى، وهتفت كثوار هذه الأيام بسقوط الزمن والعدو الصهيونى،

وأقمت حضرة ذكر، وقد تسألون من «زينب البكرية»؟، وهو سؤال يدل على أنكم غدارين كالزمن: بنت أشراف كانت، تعلق قلبها بولد فرنساوي فصعدت وراءه إلى القلعة وعاشت معه، وعندما رحل الفرنسيون حزمت متاعها ونزلت إلى «الجودارية»، فأختفت لدى إحدى جارياتها، ولكن الوشاة سلموها للوالي، وسألوا أباها وكان رجعيا كعبد الحميد واصف، فقال إني برئ منها، فأخذوها وقطعوا رقبتها، أو هكذا يقول «الجبرتي»، وهو مؤرخ يامدام وليس بائع بسطرمة كما قد يتبادر إلى ذهنك ، وأراهن أنه كان أيامها شيخا عجوزاً لا يقدر على النساء ويبرك كالجمل بين فخذى أىّ امرأة..

قالت المدام بأسى:

- مسكينة؟

«منصور» بسخط :

- لو ظهرت اليوم لاعتبروها مدافعة عن حقوق المرأة ولعيّنوها زعيمة للفيمنيست ولذلك، أدعوك إلى جولة بمقابر باب النصر، لنحيى معا ذكرى هذه الإنسانة المسكينة ونؤنس وحدتها، بمضاجعة توقظ صرخات نشوتنا - أثنا ءها - الموتى!، فنسألهم عن العلاقة بين النصر والقرافه؟!

***

وعندما عاد من دورة المياه كان قد أفرغ ما في مثانته وأيضا ما في جوفه. وانقطع المطر في الخارج. سألته ونحن على الباب عن حاله قال :

- كانت رغبة كاذبة.. وقد فكرت وأنا بالداخل أن من الأفضل لى أن اتصرف وسوف أنضم إلى السادة البكرية... إكراما لحبيبتي زينب.

ونحن ندب في الطريق «سألت» عبد الحميد :

- على فكرة ما إسم ابنتك؟

- زينب..

«منصور» بصوت عال :

- «البكرية»؟

- لأ طبعا زينب عبد الحميد واصف.

شكا «منصور» من البرد، وقفنا ننتظر تاكسي.. وقال «عبد الحميد» دون مناسبة ظاهرة:

- ستودعون الحياة دون ضجيج، ولو سمعتم كلامى لأمنتم على حياتكم بمبلغ محترم، وإذ ذاك لنشرنا صوركم في الصحف بعد عمر طويل، وتحتها بالبنط العريض : هذا الرجل ترك لورثته ألف جنيه (ثم بلهجة إعلانية)... التأمين ضمان وأمان... وسعادة واطمئنان.. مرة ذهبت لأحد كبار الساسة ودعوته لأن يؤمن على حياته، فتركنى أثرثر أكثر من ساعة حتى ظننت أننى سأخرج بعمولة محترمة عن البوليصة التى سأظفر بها منه، ثم قال لى : أنا لا تهمنى حياتى لأن بوليصتكم لن تدفع المكتوب، ولكن هل تستطيع أن تؤمن على حب زوجتى ووفائها؟. هل تضمن لي ألا يزعق إبنى في وجهى، أو يجعل امرأته تطردنى من البيت؟. هل تؤمّن لى ضد غدر الأصدقاء؟. هل تضمن لى إذا متُ شهيداً ألاّ يعتبرنى التاريخ مهرّجا؟. هل تضمن لي كل.. أو بعض هذا؟. لو فعلت لتدافع الناس على شركتكم بالملايين. أعجبنى منطقه فقدمت مذكرة إلى مجلس إدارة الشركة بعنوان «مشروع للتأمين ضد غدر الزمان». كانت قطعة من الأدب الرفيع لذلك كافأنى عليها المدير العام بخصم خمسة أيام من مرتبى.

صمتَ.. شقّت أنوار التاكسى طبقات الظلمة الباردة.

٣
جولة بين ابتسامات متقلصة

انتهى المشروع إلى الفشل الذريع. وفى نهاية اليوم تأملت حصاده، فقلت إننا احترقنا وما كان قد كان. لن يكف القلب عن اجترار الأحلام - حتى ولو تكاتف عليه كل بأس العالم. في الليل تأملت حلمى ورسمته بأدق

ما يكون، وكان مبهجا وأنا تائه فيه، فى حجرة النوم الدافئة، والعواصف تزمجر فى الخارج. وكانت مستغرقة فى قراءة رواية فرنسية، ومنظارها يُبْعد عنى عينيها، وعندما فتشوا المنزل أول مرّة، استولوا على خطاباتنا المتبادلة، وفى المرة الثانية استولوا على ما كنت قد كتبته لها فى السجن، ولم يبق لأيام الخريف من زاد سوى الحسرات. وتذكر أن «كين بويد». - مفتش الداخلية الإنجليزى - أشعل غليونه وقال :

- كيف تفكر فى القتل ولديك كل هذه الطاقة الشاعرية.

عجبتُ ساعتها لملاحظته، بيد أن طاقة الحب قادرة على الكثير.

قلت:

- غداً عيد زواجنا السابع والثلاثين.

قالت وهى تخلع منظارها وتقبلنى فى وجنتى..

- كل سنة وأنت طيب.

تملكنى إحساس طاغ لحظتها بأن هذا قد يكون آخر أعيادنا فطردته بقسوة، وأحطت كتفيها بذراعى، وقلت :

- وأنت طيبة، لدى فكرة لعيدنا هذا العام.. أود لو قمنا بجولة كالسائحين.. نتفقد آثار الماضى. نزور مدرستك القديمة حيث رأيتك أول مرة.. والخديوية الثانوية التى قضيت بها أحلى سنوات العمر، وبيوتنا القديمة. وكشك الموسيقى.. أعنى كل ما يذكرنا بما مضى.

غابت نظراتها وراء حلم مستعص طمست السنون معالمه، وقالت :

- قلبك شاب رغم تجاعيد الوجه، ولكن هل تساعد الصحة؟

قلت أن الحلم يستحق كل المشاق، وناقشنا التفاصيل وحددنا اتجاهات السير، وثار اعتراض بأن الكثير من الأشياء قد اندثر، فقلت أن رائحة الماضى تنشع من أرضه وسنشمها رغم كل شئ.

صفقت «أحلام»، وقالت أنها ستعد حفل المساء. وشهدنا الصباح ندب على الأرض بقلق، نحتضن الحلم، وأما عند الغروب فقد خيمت الكآبة

على كل شئ: قلت هذا لنفسى رغم محاولتى إخفاء شعورى عنها. ولكن الخيبة فرضت نفسها على ملامحى. فكيف ديست آثار العمر بكل هذه القسوة.. وكنت أعلم من البداية أن الكثير من الأشياء قد تغير، ولكن الزمن وغد حقا : أهذا هو شارع الخليج الذى شهدك مُحبا متيماً، والذى كانت تظلله الأشجار؟!. اقتلعت يد الزمن القاسية أكثر بيوته. اتسع حتى شعرت بنفسى ورقة طائرة فى ضجيجه، اختفت البواكى كما اختفى الخليج وجُفف من قبل.

وضجيج الترام مزعج كلعنة أبدية ولم يعد هناك ظل نتقي به الهجير وتسرح فى براحه العيون خلف قامتها النحيلة الرقيقة، وها هو الزحام كيوم الحشر فلا تصطدم العين إلاّ بأرداف مهتزة سارحة، ورجال قلقين وعيون زاعقة بالهم، أماّ هذا الطلل البالى فهو مدرسة الخديوية القديمة، أصبحت خرابة يسكنها البوم والهوام وكلاب الطريق، وفيها تفجر الضحك من قلب لم يكن قد عاقر الأحزان بعد. الخديوية الجديدة نظيفة ومنسقة ولكنها عاطلة عن الجلال كذلك طلبتها. ولعل خيبة الأمل لا تقود خُطواتك إلى «باب النصر» حيث تختط لنفسك قبراً. ولن تعدم غدا صحيفة من هذر هذه الأيام، بطالب قُوّادٌ من الذين يكتبون فيها بتنظيف القاهرة من آثار الماضى لتمد عنقها للمستقبل، ولولا السياحة لهدموا الهرم الأكبر، وأقاموا مكانه حانات للمضاجعة، فهم يدهسون كل شئ. وأمس عثرت «أحلام» عندما قرأت فى الصحيفة مقالاً يقول كاتبه أننا قتلة محترفين، وأن الالتحام بالجماهير والعمل المنظم، هو طريق العمل الثورى، فقلت أن ابن الكلب كان يبول على نفسه عندما كنا نحن ندفع ثمن وطنيتنا، وهو يلهف مرتب لكتابة هذا الهذر السخيف. فمن يضمن لي أن لا يُعتبر «صدقى» غدا بطلا وطنيا، وندان لأننا خونة؟. وأين الحقيقة فى هذا الطوفان من الأكاذيب، ولكن هذه الأفكار عكارة تبدد صفو اليوم.

ولننحت بالأظافر علّنا نجد من آثار الماضى شيئا يبعث النشوة فى القلب الحزين، ولكن الكلاب شوهوا شوارع الحلمية فضاع صمتها الجليل

الذى طالما سرح فيه القلب نشوانا.. وقامت عمارات طويلة كزبانية الجحيم، على هذه الأرض كان بيتنا الصغير. فى مكان ما منها التقينا وجها لوجه لأول مرة. أطرقت بعينيها السوداوين خجلا، واتقدت خدودها كالجمر، دسست فى يدها ورقة كانت أول ما كتبته لها من رسائل الحب، فأين يقع هذا المكان الآن من هذه البناية العالية. هل أصبح دورة مياه؟!.

سألتها عما إذا كانت تذكر ذلك. فقال صوتها اللاهث: نعم. واختلفنا فى تحديد المكان. قلت أننى سلّمتها إياها فى الحديقة. وقالت بل كان ذلك فى حجرة الصالون. استغرقت المناقشة وقتا إلتهم بهجة الذكرى. أهى الذاكرة المخزون التى تزيف التاريخ؟. ومن المؤسف أن رسائلك قد ضاعت بفضل كلاب الحراسة الذين أطلقهم وراءك «كين بويد»... فهل يكتشفها أحد المؤرخين فيما بعد؟!. وفيم تلوم مهرجى سنة ١٩٧. وأنت نفسك قد نسيت. وأمس أعلنتُ الأصدقاء بمشروعى ودعوتهم لحضور الاحتفال فى المساء. ضحك «منصور» وقال :

- فكرة طريفة. وسأدعوكم بدورى إلى حضرة ذكر فى ساحة شهيدة العشق الدنيوى «زينب البكرية».

انتهت ضحكته بسعال متتابع تصدّع له صدره، قال أن الزمن الغادر ابن الكلب أصبح يلزمه بيته أطول مما يحتمله وأضاف :

- وأن تكون عجوزاً ووحيداً فى شتاء قاس، ذلك شئ لا يطاق، وليس العدو الرئيسى لنا هو الامبريالية كما تزعم أبواق الحكومة، ولكنه الروماتيزم والسعال والربو وآلام الكلى..

قهقه «عبد الحميد» قائلاً :

- فى صيف هذا العام ستزف ابنتى، وأدعوكم لأن تحضروا حفل تتويجى بالقرون، وبذلك يكون عمركم الطويل قد شهد تتويج خمسة ملوك، الملك فؤاد والملك جورج الخامس وفاروق الأول والأخير واليزابيث والعبد لله.

لم استطع اكتشاف لون البيريه الذى يلبسه، أهو أزرق أم أسود. وتذكرت أنه قاوم خلع الطربوش بضراوة يحسد عليها.. أردف «منصور»

- يتحدثون عن عقارات لتجديد الشباب، ولكننا نعيش فى عالم غير عالمنا بحق.

«عبد الحميد».

- فُضّك من هذه السيرة، شخنا وانتهى الأمر، فلماذا المقاومة؟

قاومت رغبتى فى الكلام لحظة ثم قلت :

- تقدمت الدنيا، وينبغى أن نُسَر لذلك.

«منصور» صائحا :

- هذه أكذوبة تقولها من وراء قلبك. كان رطل اللحم بخمسة قروش فأصبح بسبعين. وكانت النسوان العشرة بقرش، فأصبحت أقبح امرأة توجع قلبك بالحديث عن الحب قبل أن تخلع ما تقضى الأقدار بخلعه من ملابسها.

ضحكتُ أسيانا وقلت أننى صريع مثله. وها هو الشعب يسرح فى الطرقات لاه عنك، ضعيف الذاكرة، ولم يعن أحد بأن يحفظ لك آثار الماضى العظيم...

قلت ..

- نحن لا نفكر إلاّ فى أنفسنا، ومن الحمق أن ننكر أن الدنيا تقدمت للأمام.

«عبد الحميد» :

- وآية ذلك أن أولادنا يصرون على تتويجنا بالقرون قبل أن نغادر الحياة.

«منصور»زاعقا :

- وآيته أن الحكومة كرمت بطولتك بطريقتها، ونحن فى زمن حرب فأخشى أن يقودك لسانك إلى المعتقل مرة أخرى فتخرج منه إلى القبر.

ضحكت مغلوبا على أمرى، ها هى النتيجة أمامى، بدأ الهدم فى بواكى شارع محمد على. آه، كم سرح الخيال خلف فكرة مستعصية أو نشوة دانية، وبين لحظة وأخرى أشعر بآلام الروماتيزم فى مفاصلى، وبدا أنه من المستحيل أن نكمل السير إلى كشك الموسيقى على الأقدام، فدعوت التاكس.... فيا لضجيج العالم. كان «الفيْتون» رقيقا حانياً، فهل تطوف بنا فى هدوء الكشك ذكرى لهفة القلب، فتنتشى الروح كما حدث فى زماننا الذى مضى، طارت عينى إلى مكانه فقصر بصرى الذى ضعف عن التقاط صورته، وتقدمنا بخطواتنا البطيئة. واستندتْ إلى ذراعى فلاحظت أن قامتها قد انحنت قليلا : آخر مرة رأيته فيها كان بعد هدم سور الحديقة بقليل، مزقوا جلالها وفتتوا بهجتها، شقها ذلك الطريق الملعون، وانتهت خضرتها إلى لاشئ.

وها هو الكشك مجرد «برجولا» ضمن كازينو مزدحم ومرهق، جلسنا إلى إحدى الموائد. إزداد ألم المفاصل بمجرد أن ارتميت على المقعد، جاءت جلستنا بجوار عاشقين عصريين تقاربت رأساهما، وغابا فى حديث هامس :

قالت «فوزية» :

- أرهقنى المشى. وأشعر أن قلبى يكاد ينفجر من الخفقان.

- وأنا أيضا.. مفاصلي تؤلمنى.

شربنا المرطبات، واجتذب حديث العاشقين سمعى الثقيل، فأدنيت أذنى منهما دون أن أشعر. وعندما قاما فجاءة إلى منضدة فى الطرف الآخر، خجلت لتطفلى، سيقولان لاشك أننى عجوز سمج ومتطفل.

وعندما وصلنا إلى المنزل، عجبت لأننى طوال جلستى فى البرجولا لم أذكر لقاءنا فى كشك الموسيقى.

أطفأنا الشمع نحن الثلاثة. قبّلتنى «أحلام» على وجنتى وقبلت «فوزية». ارتعشت يدى وأنا أقطع التورته فأكملت «أحلام» تقطيعها ووزعتها علينا، وقالت :

- صنعتها بنفسى، فما رأيكم؟.

تصاعدت التهانى من كل اتجاه.

احتضنتها «فوزية» بامتنان، وقلت أنها طفلة رقيقة، وضحك «منصور» ضحكته العالية، وهمس فى أذنى قائلا:

- هل تسمح لى أن اقبلها قبلة أبوية.

زجرته، فأكد لى أنه أعلن الإفلاس الكامل، ولا ضرر من القبلة. وانهمكت «زينب» و «أحلام» فى حديث جاد، حبك «عبد الحميد» البيريه، ونظر إلى ابنته، وهمس محاذراً أن يسمعه خطيبها الذى كان يقف بجوارنا :

- يتحدثان عن منظمة فتح كأنهما من عتاة الساسة، لذلك استحققنا القرون.

وأعلنت «أحلام» أن لها صديقا من المهتمين بالتاريخ يطلب لقائى لاستجلاء بعض النقاط في بحث يعده، عن جذور النضال الشعبى الذى مهد لثورة ٢٣ يوليو.! أبهجنى الخبر. وطلبت تفاصيل عن الصديق المذكور. فتحدثت عنه بودٍ واضح، فقلت لنفسى أننى سأعرف حبيبها أخيرا.. قال «عبدالحميد» :

- حذار أن يكون من المتعاونين مع المخابرات!.

ردت «أحلام» بجفاء واضح :

- أنا أعرف كيف اختار أصدقائى. ولا مبرر للتطاول على الناس.

تكهرب الجو لحظة، ولكن «منصور» قال :

- يبدو أن هذا الرجل الطيب سيدخل التاريخ، شأنه شأن كبار الناس المهمين من أمثال «سعد زغلول» و«النحاس» و «شفيقة القبطية» و«بديعة مصابنى»، وبما أن الدار أمان، فقد قررت أن أنال نصيبى من المجد المنتظر. فمن المعروف أن هذا الكتكوت المفترس باعتبار ما كان، قد قبض عليه بعد إطلاق النار مباشرة على «صدقى باشا» واستغرب الناس لأن البوليس لم يجد معه المسدس ساعة القبض عليه، وبحث مدير الأمن العام أيامها المرحوم «غزالى باشا» عن شريك للمتهم، ولكن تنقيبه لم يفض إلى شئ. ويسعدنى أن أعلن أن العبد الفقير لله، كان ذلك الشريك المجهول، وأثناء الهرج والمرج

الذى أعقب الحادثة حصلت على المسدس، وقد يقول بعض من يعرف سيرتى ما شأنى وهذه الأمور؟. والحقيقة أنه لا شأن لى بها. ساعدته لأننا أصدقاء طفولة، ورغم أننى كنت أكره «صدقى باشا» جداً فأننى كنت أحب الخمر والنسوان أكثر من أى شئ فى الحياة، لذلك ترددت فى القبول أياما ولكننى من باب الجدعنه لا غير، قبلت. ولا أنكر أن مفاصلى سابت عقب الحادثة ولكن الله سلم. وقد احتفظت بالمسدس كنوع من التكريم لشخصى الضعيف. ولكنى قررت فى هذه المناسبة السعيدة، أن أعيده إليه هدية، بمناسبة العيد السابع والثلاثين لزواجه السعيد.

صفق الحاضرون. وفضضت الأوراق عن المسدس لتتفحصه العيون : مسدس «ساقية» قديم. خزان الرصاص فيه كبير، وبدا أن يداً قد أعادت صقله حديثا.. بقايا الصدأ مازالت تحيط بماسورته، ولكنه يعمل. أدرته. وتأكدت من ذلك. صفق الحاضرون. ارتجفت يدى وأنا أمسكه. اجتذب بصر «أحلام» وفحصته عيناها الواسعتان الجميلتان. تصاعد اهتمامها به إلى الذروة. سألت عن ماركته وأى نوع من الرصاص يمكن استخدامه فيه. لماذا هو ضخم هكذا؟. هل يمكن التصويب به بالتوجيه، أم أن وضع الهدف فى منتصف الدبانة شرط للإصابة.. وأخيرا قالت :

- هل استطيع أن احتفظ به؟.

قلت بدون تفكير تقريبا.

- طبعا.. اعتبريه هدية منى!.

قالت : قصدت أن أحتفظ به بعض الوقت؟

ضحكت، وأحطت كتفيها بذراعى قائلا :

- لن أورثك شيئا سواه، فسوف أموت فقيرا.

وكان المطر يغسل النوافذ والشوارع والبيوت.

(١٩٦٩)

ثـــلاث مشـــانق متيـــنة الصـــنع

« .. ما من أحد من الذين يجلسون حولك .. إلا سكير ابن حشاش .. فلا تكن حنبليا ».

١ إحالة الأوراق إلى فضيلة المفتى:

من تلك اللحظة بدأ مقتلنا. كان ذلك فى شحوب الغروب، ونحن نغادر المدرج. فكّرت أن أسمعها أفحش الكلمات. قاومت رغبتى بعنف، خفَتت بعد قليل مخلّفةً رماداً فى تجويف رأسى.

رفعت رأسها فاهتز ذيل الحصان الأسود فى مؤخرته. سألت :

- ما رأيك فيما قاله «الدكتور كمال»؟.

كانت بعض الخبرات الخاصة قد علّمتنى أن أردّ على السؤال بسؤال، طلبت رأيها:

- تعلم أنّ فهمى لهذه المسائل قليل.. ولكن الفكرة باهرة حقا.

كان ذلك رأيى عدلت عنه فى صدى رنّة الثقة التى تكلمتْ بها .

- ليست جديدة على أى حال..

علقتْ بضحكة مقتضبة. عرجنا فى الممشى متجهين إلى باب الجامعة الرئيسى. دقت الساعة.. لم أعن بمراجعة دقاتها... فى المقدمة أشباح تغادر المكان. دقات الأقدام تأتى من خلفنا. مغيراً الجو قلت :

- الفساتين الشتوية تزيدك فتنة.

ابتسمت. ضغط كفها على ذراعى ضغطة رقيقة ممتنة. مس مرفقى جانب ثديها. هزّتنى رعشة دفء.

وأنا أقرأ ساعتى :

- مازال لدينا وقت نتعشى فيه بمنزلى.... موافقة؟.

تركتْ ذراعى برد فعل لم تحسن التحكم فيه..

- ... لدينا كمية من اللحوم والفاكهة ستؤرخ بها للأيام التالية.

- و «رياض»؟..

- لا شأن لك به.. ليس بالشقة، فقد تغيب عن المحاضرة.

أوقفتنا إشارة المرور أمام باب الجامعة. انعكست أشعتها الحمراء على وجهها...

- «رياض» كائن غريب؟.

وأنا أتناول يدها لنعبر الطريق.

- هذا ما يقوله «المقدس سمعان»، وعنده أنه من السهل أن ينفذ الجمل من سمِّ الخياط، أما المستحيل فهو أن ينفذ ابنه «رياض» إلى ملكوت السماء، ولكن هذا ليس موضوعنا. حوّل «المقدس سمعان» إيراد ماكينة الطحين إلى دجاج وفواكه ولحوم، أدعوك لالتهام بعضها، ويمكنك اعتبارى بعض هذا البعض.

تنهدت ببطء. تأملتُ عينيها، كانتا غائبتين :

- لا أستطيع أن أتأخر.. نؤجلها ليوم آخر.

- التاكسى بقرب المسافات. لم تذهب منذ أسبوع.

تحصنت فى آخر مواقعها :

- لدى أسباب أخرى غير الوقت.. ربما بعد يومين أو ثلاثة.

هززت رأسى بابتسامة وصفتها بأنها وقحة. سألتها والأتوبيس يهل من بعيد عما إذا كانت مصابة بمغص.

- هل أدركتك الإكس؟

ضربتنى ضربة خفيفة على صدرى. قفزت إلى السيارة فى لهوجة شديدة. غابت فى الفراغ.

***

«عزيزى عادل»

«تأكيدا لرسالتى رقم ٣٨ السابقة، وقياماً بمسئوليتى تجاهك أكرر لك النصيحة «سَحَر» ليست مخلصة لك. تأمل صدرها ستجد شامة فوق النهد الأيسر وأخرى فى أعلى السُرة، وثالثة فوق مهبط البطن بقليل. وفى أعلى الفخذ آثار عملية جراحية قديمة. ألا تستغرب معرفتى لهذه الحقائق؟!.

«ناصح أمين».

فتحت درج المكتب بهدوء.. أخرجت ملفا ضخما عنوانه «سحر ٧ / ١٢ / ١٩٤٣» وأرفقت الورقة به. أعدته إلى مكانه.. أشعلت سيجارتى.

قال «رياض»:

- هل من جديد؟

ابتسمت.. قلت

- لاشئ... خطاب من مكتب الأمن.

***

عند العشاء أشعل «رياض» موقد الكيروسين «. فى ضجته خفَّ الزحام فى رأسى. التهمت النيران جونلتها القصيرة التى انحسرت عن فخذ أبيض نابض بحيوية دافقة. اختفت الصورة كلها. عادت الضجة تملأ كل

تجويف الرأس.. الصالة زمهريرة البرد والموقد ينشر ضجته دون مقاومة. فتح «رياض» فمه ليتكلم أزعجنى منظر الطعام فى تجويفه.

- ما أخبار محاضرة «الدكتور كمال»؟..

- لا بأس بها.

مستطلعا بعينيه بينما أنيابه تمزق فخذ الدجاجة. قلت :

- شرح تجربة جديدة للعلاج الجماعى تقوم على اختيار جماعة تتخلص من حساسيتها تجاه خطاياها بأن يعترف كل فرد بآثامه بصراحة تامة أمام الجميع.

- وهل نجحت التجربة؟.

- ربما.... قال أيضا أننا فى النهاية سنجد أنفسنا أبرياء، تماما فما نتصوره خطايا... هو بالفعل ما يفعله الآخرون.

- والفائدة؟

- سنعدل عن تأنيب أنفسنا بلا مبرر.

أضاف السكر إلى الشاى.

- تجربة مثيرة على أى حال ليتنى حضرت. أخذنى «المقدس» لانتظار ظهور العذراء فوق قبة كنيسة الزيتون. لم أطق الزحام. قلت له أننى أرغب حقا فى الانتحار ولكن ليس تحت الأقدام. غضب عمك المقدس، وأنذرنى بأننى سأنفى من الملكوت، فشلت فى كتم ضحكتى وهربت منه لكى انتحر فى مكان هادئ، ولكن محاولتى ورقمها ٣٨ فشلت.

- لماذا؟.

- كان ظلام الشاطئ يخفى عاشقين أفزعهما ظهورى. ظنا أنى أريد بهما سوءا وقد تحول المشهد إلى تراجيكوميدى من اللون المبتذل، وحاول الولد رشوتى خيل إليه أننى شرطى، وفى النهاية فقدت حماسى للموضوع كله.

وأنا أرفض سيجارته المنتفخة ذات الأريج النفاذ :

- بودى أن أعرف سببا مقنعا لتفكيرك الهزلى فى الانتحار؟

سحب نفسا عميقا من سيجارته. تأمل الرماد المتراكم فى قمتها محافظا عليه، قال:

- سمعت أنّ المنتحر لا يدخل ملكوت السماء.

***

فى دفء الضحى بدا «التايير» الأخضر أنيقا على جسدها. أمّا مشارف فخذيها فناعمة بيضاء. وحيدان كنا فى البرجولا. عدد قليل من العشاق حولنا. قالت :

- هنأنى «الدكتور كمال» أمس على بحث أعمال السنة.

- عظيم.

بابتسامة زهو :

- المهم أنه قال : عدلتُ عن الظن بأن الفتيات الجميلات دائما تافهات.

فجّر زهوها صديدُ الضيق فى صدرى. هرست بأصابعى زهرة كانت قد أهدتها لى قبل دقائق. لم أعلق.

التفت أهدابها بوجهى لكى تصطادا عينى. أملت وجهى فأصابت القذيفة سحلية صغيرة كانت تصعد فوق جذع الشجرة. سألتنى عما إذا كان هذا يضايقنى؟. نفيت ذلك.

- أنت لا تغار على.

- الغيرة إحساس بدائى... ثم أننى أثق فيك

غنى راديو عابر فى المشى المجاور.

- تشاجرت جارتنا مع امرأة البواب... آه... كانت معركة حامية.

- ....

- شغل عيال. [illegible] أطفالهما، وسرعان ما دقت النار فى العمارة، وارتفعت الأص[illegible] الأرضى والسابع عبر بئر السلم.

- ....

- قالت امرأة البواب أنها قحبه وزوجها قواد..... وأولادها كلهم سفاح.

- هذا سب علنى لو طبق قانون العقوبات

علا صوت الراديو خلفنا

- هل ما قالته عنها صحيح؟.

- ليس هناك دخان بلا نار. جارتى لن تنام لعدة ليال.

يدها فى يدى ضغطتها. اختنق صوتى برغبة طارئة :

- أما نحن فنستطيع أن «ننام» الآن!.

- فى عز الضحى؟

- ما يحدد وقت النوم ليست الساعة، بل الرغبة.

كل شئ كان معروفا من قبل.. ونحن نتجه إلى التاكسى طلبتْ منى أن أكف عن الوقاحة، باخ حماسى للأغنية التى كان الراديو يذيعها. يكرر المطرب المذهب بالحاح سمج. فى الشارع السابق لشارعنا سبقتها - كالعادة - بخطوات سريعة حتى لا يرانا أحد معا. دخلت باب المنزل كالهارب. خطواتها تدق الأرض خلفى فى ايقاع رتيب، يقلل التعود من سخف كل شئ. اعترضت زوجة البواب طريقى:

- خطاب لك يا أستاذ عادل.

عادت «مريم» من كوخها فى بئر السلم، الخطاب فى يدها. أحد أطفالها يجذب جلبابها. عرفت الخط على مظروف الخطاب. ما أنشط مكتب الأمن، وما أكسل قانون العقوبات.

قبل أن أصعد كانت «سحر» قد وضعت قدمها اليمنى على أول درجات السلم :

قالت «مريم» :

- أين تقصدين يا شابة؟.

بغيظ خانق :

- عيادة الدكتور مصطفى.

صعدت كالهاربة. وقفت لحظة متعمدا حتى اختفت دقات أقدامها فى الدور الثالث. أنهيت مسرعاً حديثا ملفقا بدأته مع زوجة البواب. لاحقتنى كلماتها فى السلمة السابعة عشر :

- جاءت «فردوس» الغسالة... وستعود يوم الأحد.

ثم بصوت خافت :

- ربنا يهدى العاصى.

***

من الحمام جاء صوت المياه وهى تتساقط. أشعلتُ سيجارتى. قضت رائحة الدخان على عبير تركته فى الغرفة. فتحتُ باب الشرفة. واجهت ضوء الشمس. قالت ساعتى أن «رياض» سيعود بعد ساعتين. «سَحَر» - ككل مرة - تبكى الآن فى الحمام وتمسح دموعها بظاهر كفها. كالعادة ستعود بعينين ذابلتين غاب عنهما وهج الشهوة، كسيرتين وذليلتين.. لا داعى لليأس، أمامنا وقت لجولة أخرى. إذا غلبتها الشهوة تحيلها كائنا آخر.

تعلقت عينى السارحة بعصافير جاءت من المزارع القريبة. متى أطير فى الفضاء كهذه العصافير؟

عينا بواب عمارتنا تطاردان العصافير، شاربه فضى، يجلس كحكيم أفلست بضاعته. رجل منكسر أما زوجته فشرسة كوحش. قالت «سحر» : نظرتها ترعبنى.. يخيل إلىّ أنها لا تصدقنى. المزارع رحبة ومتسعة فلماذا لم تكن عصفورا؟. اصطدمت يدى بالخطاب.

«عزيزى عادل

أنت إلى الآن لم تصدقنى طبعا. ولكن هل يكفيك أن تعلم أن

«سحر» عندما تغلبها النشوة تصيح قائلة «رائع».. «مدهش»... أيكفيك هذا لكي تتأكد أني سبقتك إليها.

«مخلص أمين»

كان رقمه ٤ وضعته في الملف

٢ المشنقة الأولى: مقتل صورة عارية في المرآة

ليلة العيد التقينا. انتهوا من صلاة العشاء وبدأوا يصلون التراويح. تصاعد تكبيرهم يقتحم صمت مخدعنا. كانت متشبثة بحمالة صدرها تمانع في خلعها. لم تنس في آخر لحظات الممانعة أن تمد يدها المرتعشة بالرغبة فتظلم الحجرة. وأنا منهمك في عملي طرأت على ذهني فكرة: هناك لاشك رجل يعاني سكرات الموت الآن في نفس اللحظة. طردت الفكرة في موجة تقبيل حادة. طاردتني بالحاح، خمد حماسي لما كنت أفعله. انقلبت راقداً إلى جوارها. كانت تلهث ذائبة. يدها تتحسس رقبتي. أدرت وجهي إليها. شفتاي باردتان. لفظتهما. ظل وجهها على صدري. أشعلت عود ثقاب..، صرخت منزعجة.، سحبت الملاءة بسرعة. غطت نفسها. عاودتني الرغبة أن أسمعها أفحش الكلمات، أتعامل معها كيفي. خفت أن أفقدها. تراجعت. الرجل الذي يعاني سُكرات الموت دخل الآن في مجال الغيبوبة. عاد فخذها العاري يلقي نفسه فوق فخذي.. البرودة تنتقل إلى جسدي عبر أنفاسها الساخنة. وجه الرجل الميت شق الظلام. احتجت إلى كل قدرتي على الإبصار لكي اكتشف ملامحه. تأكدت أنه خالي. عيناه جاحظتان، بشرته مليئة بالتجاعيد. ملامحه تتجمع في تشكيل متسول راجٍ، تعلق بوجهي المرهق.. أما أمي فكانت تخفي يأسها وحزنها في نظرة صابرة. قال :

- كأس واحد.. واحد فقط..

بدت لي الرغبة مشروعة تماما.. أما أمي فقالت لهجتها الصابرة.

- لا.. الدكتور قال : لا

خارج الحجرة دَمَعت عينا أمي.. بكيت مثلها. توقفت دموعها، لم تتوقف دموعي. دققت النظر. لم يكن الرجل خالي كما تصورت. على النضد المجاور للفراش اصطدمت يدي الممدودة بتمثال برونزي للمسيح مصلوبا، ارتجفت لبرودته : هدية «المقدس سمعان» ولا يمكن رفضها .في غرفة واحدة أعيش مع إنسان مصلوب مسمر الأطراف. عيناه حزينتان عاتبتان، تكذبان قسمي بأني برئ من دمه. شعرتُ أن لحظة إندماجنا قد أفلتتْ. ابتعدت عني قليلا، لحمها غريب عن لحمي تبينت خطوطه رغم الظلمة. قال صوت في الخارج: جزار.. الضحية.. كل عيد وأنتم بخير. تحسستْ رقبتي بأصابعها. في جموح الرغبة تنسى كل شئ. من المسجد المجاور تصاعدت تكبيرات العيد وضجة أطفال الشارع.

- لم نلتق منذ شهر.

ثم وهي تنتقل بأصابعها من صدري إلى بطني :

- رغم هذا فأنت غير متحمس.

- ....

- أنكر ألا أجئ.... هذه المرأة تتعقبني بعينين مجرمتين، وكلما رأتني قالت: ربنا يهدي العاصي، وكل مرة تسألني إلى أين أنا ذاهبة. أوف..

«المرأة حقيقة مزعجة ولكن اهتمامها بها يبعث على السأم، ومن هو هذا المخلص الأمين؟. هل أصفعها بالملف وكافة المستندات. ستنكر بلاشك. الأدلة صاعقة. داعرة من الدرجة الأولى فما هذه الحساسية المرضية.. ومتى يطبقون قانون العقوبات».

- صعدت خلفي مرة إلى عيادة الدكتور مصطفى، فوجدتني في غرفة

الانتظار وانتحت بالتومرجي ركنا وتهامست معه، وطبعا أكّد لها أنني زبونة معروفة.

- رتّبت كل شئ... ذكاؤك فوق مستوى الشبهات.

- ....

- ما أخبار جارتكم؟.

وضعت رأسها على كتفي. ثديها العاري أمام عيني.. شممت أريجه... كفها الآخر يتحسس ببطء فخذي:

- لاشئ... وأمس زارتنا وأعادت على سمع أخي كل الكلام البذئ الذي قالته لها امرأة البواب.

شددتُ عليها.. اختنقت لهجتها برغبة حادة. شفتاي تدنوان من شفتيها.

- ماذا قالت؟.

قبلتني ولم تجب. حثثتها:

- أظن أنها تعيد هذا الكلام على أخي لعله يصدقه، تريد أن تفتح له الطريق.... وقحة.....

أزاحت الكلمة الأخيرة وجه خالي. كفها تتحسس أدقّ مراكز الاحساس فيّ. كنت خامد الرغبة تماما. استفزني شئ للضحك. قاومتُ. استسلمت له في النهاية. انفجرت ضاحكا. مددت يدي. أضأت النور فجأة. عكست مرآة الزينة أمامنا تفاصيل الموقف. لمّتْ نفسها بسرعة. اختلطت ضحكاتي الهيستيرية بتكبيرات العيد.

- سحبت الملاءة لتتغطى. منعتها. انتزعتُ الملاءة. ألقيتها بعيداً. تملكها غضب جنوني. سبتني بأقذع الألفاظ . لم أتوقف عن الضحك، مشهدنا ونحن عاريين مضحك فعلاً. أشرتُ إلى صورتها في المرآة واصفا كل مساحة في جسدها.

صاحت

- أسكت يامجنون يا ابن الكلب.

لم أسكت. مدت يدها إلى التمثال البرونزي.. رفعته إلى أعلى.

صاحت :

- سأقتلك .

ترددت قليلا خفتت ضحكتي. ارتعشت طاقة أنفها. قذفت التمثال بقوة فاصطدم بصورتنا في المرآة. تحطمت إلى مزقٍ صغيرة. سقطت فوق السرير تبكي في تشنج عصبي. عريها الباكي أمامي. لم تعن بتغطيته. كففت عن الضحك. خرجت تاركا الغرفة في خطوات بطيئة.

٣

المشنقة الثانية: سقوط المدعي العام

اخترقت عيناها ظهري كرصاصتين مكتومتين. تعثّرت أقدامي في درجة السّلم. لابد أن أنفيها تماما من حياتي. قبوعها في بئر السلم يعطيها ميزة المراقب الدائم. عيناها الثاقبتان تريان كل شئ.

قالت «سحر» :

- نظرتها تقول أنها لن تسكت. وأنا نازلة هزت رأسها وتصعّبت بشفتيها، وسألت ربها متى يهدي العاصي، فهرب الدم من جسدي.

تفتعل المناسبات لتكلمني كلما رأتني صاعدا. تؤكد وجودها. استندتْ على «درابزين» السُّلم. رفعت رأسها منادية. توقفت عن الصعود.

- الإيصال جاهز. هل أصعد به؟.

- سأغير هدومي وانزل فوراً.. الغسالة فوق؟.

مدّت يدها تلم الفستان فوق فتحة صدرها. لا تأمن لعيني. هربتُ

بهما بعيدا. وقعتا فى شَرَك عينيها. مسحتُ بهما مسطح صدرها. أكل الزمن بعض اللحم، لكن ما بقى كان صالحا لوليمة على أى حال.

- «فردوس»؟.. لا.. لم تأت ولن تأت!

عيناى تسقطان فى شراك عينيها. عن سؤال لم أسأله أجابت :

- هى الآن بالتخشيبة. هاجموا منزلها أمس..

دق الباب. وجدتها أمامى. جريت فارتديت الروب على ملابسى الداخلية جلستْ على مقعد بمنتصف الصالة. رائحة صابون رخيص تنتشر من وجهها الذى كان نضرا كما ينبغى لبشرة خرجت لتوها من تحت الماء. مدت يدها بالابصال، وسألت عن «رياض». وبدون مناسبة قالت :

- مسكينة «فردوس» أخذوها من الدار للنار.

- مخدرات؟.

- لا.. ربنا أمر بالستر، ولكن الحجر الدائر لابد من لطه.

ابتسامتها لزجة. صفعها خيالى. تركتها تنظف الشقة وخرجتُ إلى الشرفة. على الطوار المقابل يجلس زوجها يتمتع بالشمس. عيناه سابحتان فى الفضاء. تركتها خلفى تعيد ترتيب الملاءة فوق السرير. سيكون عملا شيطانيا لو افترستها وحارسها ينتظر الوحى. عجوز ضعيف فكيف استولدها كل هؤلاء الأبناء؟. اسمه الذى يناديه به الجميع فى الشارع دون أن يحتج: «زوج مريم».

- ... وكانت تروح وتجئ وقضاؤها فى إثرها... أعنى «فردوس».

لم تمانع عينى، فى أن تواصل روايتها :

- .. سألوا عنها مرارا... ومرة استجوبونى فى النقطة : ألا تصطحب أحدا معها إلى شقتكم؟.

تمهد لشئ مرعب ولابد من سبر غورها حتى النهاية. وهى تنظف التسريحة وجدت بعض الأوراق المالية الصغيرة ملقاة فى اهمال. ناولتنى إياها، قائلة :

- فلوسكم كثيرة، لذلك تضيع فيما لا فائدة فيه.

أطبقت أصابعى على كفها بالنقود. ضغطت الكف لأتغلب على ممانعتها. أصرت بلا حماس على الرفض، تكلمت كفى مع كفها. علىَّ أن أقدِّر لقدمى قبل الخطو موضعها. لانت كفها. فتحت ثوبها. وضعت النقود بين الصدر وحمالته. طاردت عيناى النقود، اصطدمتا بعينيها المتجاهلتين. تركت الغرفة. جلست أدخن فى الصالة. جاءنى صوتها يغنى: «ياللى زرعتوا البرتقال». وشت بحته بعبث ساخر. أقعدنى التردد. خاضت رحلة طويلة من دروب قريتها إلى شوارع المدينة وأزقتها، فماذا لقيت فيها؟. قطعت الغناء، قالت دون تمهيد :

- ربنا يسامحنى، أضَرتُ فردوس دون أن أقصد. مرة تشاجرت معها فأسمعتها وسخ الآذان، أعمانى الغضب فقلت كل شئ، ولابد أن ابن الحرام سمع، فقد كانت مراقبة.

متآمرة من نوع شديد الخبث. فضحت المرأة على ملأ متعمدة فهل استكتبت أحد العرضحالية شكوى ضدها، حتى أودت بها؟.

- هذه آخرة السير البطال... أخذت جزاءها.

مصمصت شفتيها معلنة أنها لم تصدق وعظى :

- حكَمْ.. ولكنها تجرى على ولايا ... وفتحت بيوت الكشيرات ....

انفجرت فى صدرى آمال خبيثة. تحصنت فى موقع مكين حتى لا تستدرجنى ثم تصرخ وتجمع على السكان، فتكون فضيحة من نوع يصعب غفرانه. لسانها سليط يشهد بذلك تاريخها الحافل فى المعارك. وليس لها كبير. هل وعدها أحد بمنحة ضخمة إذا أخلت الشقة. ما أسهل أن تفضحنى فتجعل الإقامة بها عذاباً لا يطاق. لتمسك المسبحة هونا ما، فهى تبدو طيعة بعكس نظراتها الباردة القاتلة.

- ربنا يهدى العاصى، وعلى فكرة نريد غسالة أخرى.

تجمدت يدها على المكنسة، قالت نظراتها: كفَّ عن وعظك السخيف. لسانها قال غاضبا:

- أنتم كالقرع لا تمدون إلا إلى الخارج.. هل دعوتنى لأغسل لك ورفضت؟!

خنقت الحدةَ كلماتها الأخيرة. عَلَتْ ملامحها نظرة غضب سطحية. لم أتحكم فى ذراعى الذى مد كفى ليربت على خدّها. لانت..

- لا تغضبى.. نحن لا نستغنى عنك، ولكنك هل يمكنك حقا.. أن...؟

انفجرت:

- لست عمياء ولا كتعاء... فى رقبتى كوم عيال.

أضعف مما تصور الخيال. روح استهانة باهرة.. بوقاحة قلت:

- «فردوس» كانت تغسل وتطبخ وتكنس و...

- ماذا.... ؟..

رفضت عيناها أن تفهما.. أشارت يدى - اهتززت قليلا:

- و ... تدعك لنا ظهورنا فى الحمام؟. نحن عُزاب وأنت أدرى طبعا بالمشاكل.

بسخرية:

- إلا هذه.... النسوان لا تكف عن التسلل إليكم، أنا لا تجوز على الحيل: عيادة الدكتور.. المصوراتى، هذه حركات مفهومة..

بَرِحَ الخفاء، تعرف عنا الكثير. تبدو مستعدة للتنازل، لن ترتعب مرة أخرى تحت وهج عينها، لن أرضى إلا بالرضوخ النهائى.

- ولكن الأمر لا يسلم.. والبحر بحب الزيادة، ثم أنك تعجبيننى...

- سأكفيك.. لسانى..

سئمتُ المناقشة، لا علاقة بين شئ وشئ. يقول اللسان، ما لا تفعله

نخاذ. شددتها إلىّ. استسلمت كخرقة: أنفاسها بخراء. فقدت حماستى. صلت. لابد من الانتصار النهائى. سأصنع من إحدى قطع ملابسها الداخلية علما أرفعه على سارية الشرفة. لذلك أتحمل ثقل أنفاسها، وترهل جسدها.

فى اللحظة المناسبة قالت:

- لا.. كله إلا هذا.. لا أرفع ذيلى لأحد مهما حدث.

حائرا وأنا أتأمل عريى:

- ولكن ما الفرق، لقد قبلتك واحتضنتك.. و.. و..

- ولو، هذا شئ آخر، ولكنى لا أرفع ذيلى إلا لزوجى...

وأنا البس ملابسى:

- متى يهدى الله العاصى؟.

تناولت النقود. أعادتها إلى صدرها.

٤

المشنقة الثالثة: مسيرة ضد الموت فوق قمة جبل

بين رفوف الكتب لامست ذوائب شعرها وجهى، قبلتها قبلة خفيفة. زجرتنى نظرتها. جلست إلى المنضدة، أدنيتُ مقعدها من مقعدى. نفخت عاتبة، أعادت مقعدها إلى مكانه. غاب وجهها فى صفحة الكتاب. تأملت جديتها بنظرة هازلة. أجلسها خيالى عارية تقرأ كتابات العالمات. مصحفها الذهبى يتدلى بين نهدين مترعين. فتحت صفحة منه، قرأت «وقيل لها أدخلى الصرح فلما دخلته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها. صدق الله العظيم». ترفض الملابس القصيرة. تقاطع الديكولتيه بكل درجاته. وبعد أجازة العيد واجهتنى ملامحها بنُذر القطيعة. تنسحب من كل مجتمع أكون فيه. إنفردت بها أخيرا فى البوفيه. بكت بعد أول كلمة. لولا أن المكان

قليل الرواد لكانت فضيحة يعيش على أصدائها الهواة. حاولت أن أنسلّ موقفى. فشلت. تحبها ولكن الشك دمّر كل شئ.

فى أيام القطيعة كاد الهجر أن يقتلك. عزّ على القلب أن تواجهه العيون التى طالما اشتهته وكأنها لم تعرفه أبداً. أليس هذا اللسان المخاصم هو الذى تغنى بك فى لحظة النشوة، ووصفك بأنك «رائع» و «مدهش» فكيف أصبحنا غرباء؟.

فى اللقاء التالى عرفت أن الخيوط لم تنقطع بعد، قالت «لست عايشة ولن أكون». عالٍ وبالكذب تستقيم الأمور. لعنة الله على التعود. ما العلاقة بين تهتكها وبين أى شئ. ماذا أغرانى بما فعلت؟. قانون العقوبات. «سلمتك نفسى لأننى أحبك، ولكنك لا تستحق». تجاهلتُ رغبتها الطاغية. ستقودها أقدامها إليك مهما حدث. لا تزد الخرق على الراتق. رقم الخطاب الأخير ٤٢. «آه.. أنت تظننى.. م..م.. أستطيع الاستغناء عنك.. وعن أى رجل آخر».. حوار لذيذ على أى حال. طبقوا قانون العقوبات يا أولاد الكلب. «كل مرّة أبكى وأقرر أنها الأخيرة، وأنا أغتسل أتقيأ وأقسم ألا أعود.. وكفرت عن ذلك مراراً بالصيام والصلاة». كانت تعود من الحمام منهوكة شاحبة تنصرف بسرعة. «أمى لا تفارق السجادة، وأبى رجل محترم.. لو عرف أخى لقتلنا». لماذا تأخر مجلس الشعب فى نظر قانون العقوبات الجديد؟.

- أكرهك وأكره نفسى وبودى أن أقتلك.

لم يحدث. قادتها قدماها إلى الشقة. عريها كان نابضا بشهوة أسابيع القطيعة. دق الجرس. توقف كل شئ. باردة الجثة كميّت. قامت مرتعبة تبحث عن ملابسها. إنهارت باكية. صرختُ فيها. قالت : انفضحنا وانقضى الأمر. لعنتها فى سرى...

قالت بوحشية :

- قلت أن «رياض» لن يأتى، وها هو قد جاء. سينقب فى كل الغرف، وقد يسعدك أن تعرف أن نظراته لى غير طبيعية.

صحت :

- إهدئى «رياض» معه مفتاح ولن يحضر قبل العاشرة.

- هى إمرأة البواب... انفضحنا.

انخرطتْ فى نشيج هستيرى قلت بهمس غاضب: اسكتى.

اغلقت الباب عليها بالمفتاح.

شممت رائحة مؤامرة فى الجو.. على الباب رأيت «مريم» :

- عجايب، لماذا تقف هكذا كالخفير؟. أريد أن أدخل.

ببرود. قلت :

- أيقظتنى من النوم ماذا تريدين...؟..

- عينى على النوم الأفرنجى.. أنا عارفه وشايفة.

تدبر لفضيحة من النوع الساخن..

- إفرضى.. لا أحب المطاردة. وأكره أن يتجسس علىّ أحد...

- وأنا يا روحى لا أحب أن يأكل أحد عرقى..

- عرقك؟..

استندت بمرفقها على الباب. هزت رأسها هزة مغناجة :

- طبعا يا عينى.. منعت لسانى من الكلام وهذا يعرقنى.

مددت يدى بالنقود. ترددتُ لحظة. سحبتها من يدها إلى الداخل، دسست النقود بيدى بين نهديها. خلّصتُ شفتيها من شفتى، أبعدت يدى التى كانت تعبث بجنون فى مهبط بطنها:

- ما هذا؟ أدميت شفتى.. أنت مجنون.

- سأنتظرك بعد انصرافها..

هزت رأسها هزة لم أفهمها. سألت «سَحَر»

- من؟!

وأنا أسحبها للفراش

- مريم المجدلية.

***

دخل «رياض» إلى المكتبة. ألقى بحقيبته المنتفخة :

- كيف حالكم أيها المحبون الأغبياء؟.

ابتسمت «سحر».

- أنبهك إلى أن أى هجوم سيرد عليه بمثله.

- هذا ليس هجوما، ولكنه حقيقة علمية، الأفضل أن اترككما لجلسة بها كمية من الغبارة المعتبرة. ولكن لعن الله الدكتور كمال.. وبحوث أعمال السنة وعلم النفس والذين وضعوا تقاويه.

مهددنا :

- هنا مكتبة فأعقل أحسن لك.

- غبى ككل المحبين. الحب نشاط غير جدّى ومضيعة للوقت، كيف ينتحر جحش مثلك، ووراء عيون جميلة كهذه العيون، وشفاه بوقظ الشوق إليها موتى قدماء المصريين.

- حاسب

تساءلتْ :

- أهذا غزل.

أنكر باستهانة. قال :

- الليلة عيد ميلادى، وأنا أنوى أن انتحر ولكى يكون وداعاً حافلا فأننى أدعوكما إلى جلسة تبدأ من المغرب بـ «مونت بيلا» المقطم...

سحر :

- لا استطيع أن أتأخر، أبى يعتبر المرأة عورة ولابد أن تختفى بعد المغرب.

ساخرا :

- تتسكعين مع المحروس حتى العاشرة، وهناك أعذار سخيفة مثل محاضرة مسائية. حفل تكريم أستاذ، مذاكرة مع صديقة... ... ... إلخ.

حسمتُ المناقشة :

- قبلنا الدعوة فأرحنا من إلحاحك ولكن «مونت بيلا» مكان غير مناسب.

- النقود موجودة. طبَّ أبى وأرسل مبلغاً لا بأس به. لن نسكر أو نشاهد الرقص. فى التراس المطل على الجبل سنطفئ الشموع، وسأودعكم وصيتى قبل أن انتحر جادا.

***

رغم كل المحاذير شربنا. وحدتنا تقريبا مع هضاب الجبل وضوء القمر الضنين. أطفأنا الشموع بضجة ابتلعها الفضاء. قاومت «سَحَر» إغراءنا أن تشرب. شربت عدة كؤوس من النبيذ قدمها «رياض» مؤكداً أنها من دمه. رغم قلتها كفت لوضع ابتسامة بلهاء على شفتيها.

- لا أطمئن إلا للبيرة، فهى مشروب نظيف.

تصاعدت رائحة المخدر من سيجارة «رياض» قال :

- ولكن «الويسكى» رائع.. أما الحشيش فـ «مدهش».

ناظراً إلى سيجارته المشتعلة.

- نحن فى مكان عام، أتريد أن تبيت فى التخشيبة؟

الخلاء هو كل ما يحيط بنا.. لم يبد عليها أنها تهتم بشئ....

باستهانة رد :

- نحن نخاف من أشباح، أولاد الكلب لا يطبقون قانون العقوبات، وما من أحد ممن يجلسون حولك، إلاّ وهو سكير إبن حشاش أو العكس. فلا تكن حنبليا. وصباح اليوم فكرت فى طريقة حديثة للانتحار، فقلت للعسكرى: يا شرطى، معى نصف قرش حشيش فما قولك؟. سألنى: غُبارة أم كبس؟. قلت : كَبْس. سألنى عن ماركته قلت: أمل حياتى. قال: ماركة ممتازة، ولكننى أنصحك بـ «للصبر حدود» فهى أعظم ماركات الكبس. تركته ومضيت فعلام تخاف؟. أما أنا فقياماً بمسئوليتى تجاهك أقول لك أن الويسكى «رائع» أما الحشيش «فمدهش».

«سَحَر» بابتسامة بلهاء :

- فعلا هو «رائع» و «مدهش» ولكنى أكره الحنابلة وأبى منهم.
فى عينيها نظرة ذائبة أعرفها من طول ما خبرتها، ترد على نظرتى الذاهلة :
- ما الخطأ فيما يقول.... إنه «رائع» و «مدهش» وهو كذلك فعلا.
تنبهت إلى ما تريد أن تقول. قهقه «رياض» قال :
- الساعة الآن التاسعة والنصف. بقت على الرحيل ساعة، أمّا و أنتما تشربان على حسابى، وتحتفلان بعيد ميلادى السادس والعشرين، فمن حقى أن ألقى خطبة!
ناولته السيجارة. لم أتذكر متى أخذتها .. وقف خطيبا:
- المسألة يا آنساتى وسادتى. أننى قررت أن انتحر بطريقة مستحدثة ذلك أن كل الطرق أصبحت قديمة ومستهلكة: النيل - القطار - المُجَمّع - البرج، ولأن بعض الأصدقاء يتصورون أننى جبان أنشر إشاعة انتحارى على سبيل الدعاية لشخصى الضعيف. فإنى أعلنهم أننى أبحث بجدية مفرطة، وأنهم إذا أشاروا علىّ بطريقة حديثة، فسوف أنفذها فوراً. ولا بأس من استعراض معلوماتكم التاريخية حول أشهر وسائل الانتحار.
سحر : كليوباترا والأفعى!
- كانت عابثة، ولن تتحكم فىّ أفعى مع العلم أننى أكره «الأفاعى».
- الأرشيدوق.. ولىّ عهد النمسا وعشيقته..
- جميل ولكن أين لى عشيقته الجميلة.
بإشارة من يده رفض الانتحار الهتلري.
- إننى ضحيته فكيف أقلد طريقته.. هل غلب حماركم.؟ بحثت فى تاريخ الرهبان البوذيين فى فيتنام. إنها طريقة مثيرة، ولكن لماذا أحرق نفسى.. و علام احتج؟ فى البداية قررت أن أحرق نفسى أمام أبى فقد صفعنى بكفه الضخمة لأنه وجدنى وأنا طفل أعبث بأعضائى الجنسية، ورغم أننى كنت سعيدا لحظتها فقد انهال على ضربا.

سحابة صحو، قلت :
- «رياض» كفى.
السيجارة بين شفتى «سحر» لا أدرى كيف وصلت إليها. بابتسامة سارحة أكمل :
- فى الصيف الماضى، أردت أن استعرض أمامه اعجابى بـ «إيمانويل كانط» وفلسفة الشك، فبصق فى وجهى، لذلك أردت أن أحرق نفسى أمامه.....
- ....
- فكرت أن يكون لانتحارى سببا سياسيا، فوجدتها جميعا تدعو للانتحار واحترت فى تفضيل أحدها على الآخر.
سَحَر :
- لماذا لا تبحث عن سبب غرامى. هذا يُكسبك عطفا كبيرا على المستوى الشعبى؟..
- حبيبتى لا تستحق الانتحار من أجلها فهى خائنة.
- المجرمة.
- بالعكس أنها «رائعة» و «مدهشة».
وبصرى المرتاب يتنقل بينهما :
- لماذا تكرر هذين اللفظين.. كأنهما كل قاموسك.
سَحَر بضحكة ذات ذيل عابث :
- لا تناقض بين هذه كليهما. أعرف انسانا «رائعا» و «مدهشا»، ولكنه فى نفس الوقت مجرم.
- خِفْت أن أعترف لها بحبى فيظننى أبى عدت للعبث بأعضائى التناسلية.
- أخذت الشر وراحت..
- نعم.. لكنها راحت به إلى غرفة نوم رجل آخر..
ناولتها السيجارة الثانية دون أن أشعر.

- المجرمة.

- ولكنها فاتنة وذات ثلاث شامات: واحدة فوق النهد الأيسر، وأخرى فى أعلى السرة، وثالثة فوق مهبط البطن بقليل.

صحت

- «رياض»... آن لنا أن نعود

٥

تنفيذ الحكم

ونحن ننحدر فى شوارع المدينة الجبلية شعرت بدوار. تقيأت «سحر». معدتى كانت عائمة. هاجنى قيئها. أفرغت ما فى بطنى. نظر «رياض» إلى إفرازاتنا. قال:

- تغذيتما بقدونس، وهو مضر للقلب وللمعدة كالأسبرين. هددنى أبى بالنفى من ملكوت السماء، ولكننى ضبطته يدب على خادمتنا الطفلة ذات ليلة. ويصلى فى الصباح.

ضحك وغنى «ليه عزيز دمعى تذله كل ساعة بين ايديك». كان أحسننا حالا رغم سُكْره البيِّن. مضينا نبحث عن تاكسى يقودنا إلى المدينة. وقف فى منتصف الطريق وواجهنا قائلا:

- يا صديقىَّ إننى محصور تماما. ساعة وأنا أقاوم مثانة تكاد تنفجر، وذلك تطهر لا يليق، وتزمت لا معنى له، وما أمتع أن يتبول الإنسان على هذه المدينة من ارتفاع شاهق كهذا.

ومضى فى الظلام.

(١٩٦٩/ ١٩٧٠)

الغربة فى شارع كثيف الزحام

«.. إلى طاهر البدرى»

١

ظلال شاحبة فى مطبعة سيئة السمعة

ما أطول الطريق. ما أخنق زحامه. أن تبدأ رحلة بلا سبب أو هدف، ذلك هو العذاب. تبحث العين عن لحظة فراغ تسرح فيها فلا تجد. كتل البشر جدران صماء. وتحلم مرة أخرى بالفراغ السعيد، فمتى يكف القلب عن الحلم؟. كفانا ما حصدنا من هشيم. تأمل هؤلاء الناس: كم كان السير وسط مواكبهم يوما نشوة القلب والروح، أحب من الحياة، أشهى من القُبل. ويقول إنسان قديم يحتضر داخلك: ذاك كان زمن ومضى. ويقول رأسك التائه أبدا بخدر المنوم: حتام تعود قدماك المنهكتان بقبض الريح؟. نُكب العمر بالأحلام. وليكن لنا فى راحة اليأس ملجأ فى زمن عزّت فيه الملاجئ.

بيد أن القلب يخون رغبتك فى راحة اليأس. ويقود الأقدام المنهكة مع هذا الصديق القديم. إلى أين؟. لا تدرى. فلنسر دون سؤال. ويوما قرأت أن عذاب الإنسان قد بدأ بسؤال. وعشت تعشق علامات الاستفهام. والرحلة بدأت مغرية.، وها هى تتحول إلى عذاب. وهو يستحث أشواقك الخامدة

للمجهول. لنصبر قليلا، فربما جاد الزمن بلحظة مسرة تعوض القلب ما يعانيه من خيبة.

كنت قد حفظت صديقى كما أحفظ جدول الضرب، ونشيد بلادى بلادى... ولون عينى زوجتى : ٧×٩ = ٦٣، ٨×٨ = ٦٤، ٤×٤ = ١٦. بلادى. بلادى. لك حبى وفؤادى. مصر يا أم البلاد. أنت غايتى والمراد. وعلى كل العباد. كم لنيلك من أيادى. عينا زوجتى واسعتان. سنجابيتا اللون. انسانهما أزرق كسطح بحر فى مقلة شمس. بياضهما ناصع.. فى لحظات الكدر تشوبه عكارة كالرماد. صديقى «صابر سعيد عبد السلام الكردانى»، أحفظه منذ خمسة عشر عاما. عمر عذراء صغيرة كالبنت الساكنة أمامى. عرفته ضاحكا وعابسا. عاشقا وزوجا. سجينا وطليقا. مريضاً يمزق السعال صدره. منديله الأبيض يعود مبرقعا ببقع دم أحمر قان. حكى قصة غرامه. قصيرة كالقزم كانت قصته: نظرة فابتسامة فكلام فغرام فزواج فسجن فطلاق ففراق. مررنا معا بين صفين من العساكر. تتحرك عصيهم الغليظة فتهوى علينا. ضخما كان. طويلاً عريضاً. وجهه طفولى. كذلك قلبه. يوم ماتت أمه بكى. أكره البكاء فى الزحام. أحبه فى سكون الوحدة. انحنيت يومها عليه. قلت:

- تتهمنى بما تعرف، وها أنت متلبس بلحظة ميتافيزيقية.

ابتسم ابتسامة محزون قديم. قال :

- ولكن العين تدمع.. والقلب يحزن..

وتلا القارئ، فى ركن من رأسى «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» قلت : نحن عراة تماما فأين زمن البروج المشيدة؟. حائط واحد نستند إليه يا أولاد الكلب. الرصاص ينطلق وما من ساتر، والصواعق تتوالى وما من مانع. السيارات سارحة مسرعة. تدهمنا. تقضى علينا. لحظة أمان واحدة، ذهب زمن النوم المريح. ومن الذى نبهك إلى أن كلمة «قرير العين» لم تعد تستخدم؟. صديق فى المجمع اللغوى؟. أظن ذلك. فكرت أن أقوم.. أمشى فى الشارع. أسمى نفسى «عمر قرير العين

الدهشان». أحمل جردل بوية بيضاء. فرشاة ضخمة. على أرض الشارع أكتب. على حائط السينما أكتب: «أريد أن أنام قرير العين»، «عاش النوم بلا كوابيس» «يسقط بعوض الأنوفليس وذباب التسى تسى». قرأ القارئ «والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون». أغمضت عينى. قلت أننى فى حاجة إلى حبة من مُنَوِّمى المفضل. رؤوس مليئة بالهم، وعيون أذبلها السهد. شهوات منطلقة بلا رقيب. جرائم تدبر وما من مراقب. ومخبر يسرح وراء فكرة خَيِّرة. لافتات مرهقة. كوفى. رقعى. فارسي. نسخ. فلتكن لى لافتة. يد تخبط ردفا سارحا كقبة ولىّ. ومرفق يحتك بنهد لم يعرف عبث العابثين بعد. خبز فوق دراجة يقودها بهلوان يخترق الزحام. أفواه زاعقة تعرض بضاعة. ومن من مشتر. اتفاق على ليلة غرام فى ركن. شيخ يبحث عن مسجد نذر أن يصلى به. صديقى يعابث فكرته الغريبة. يوما سألنى وها هو يعيد السؤال :

- هل طبعت لنفسك بطاقة زيارة ؟

نفيت ذلك دهشا . قال:

- هذا خطأ جسيم.. يجب أن تكون لك بطاقة.. «كارد فيزيت».

ضحكت. شقنا الزحام نصفين. اختفى عن عينى.

[البنت الساكنة أمامى فى خطر. لو أملك الشجاعة كى أحذرها من اللعب بالنار ولكن ما شأنى. ليلة قلقة. فشل المنوم فى أن ينيمنى غشه الغشاشون كما غشوا كل شىء. وقفة حائرة بالشرفة: آه طفلة صغيرة تقفز إلى شرفة رجل فى ظلام الليل. اختفيا فى الداخل. ظللت واقفا حتى عادت. ذلك النهد الطفل الذى لم يتعد عامه الثالث. كيف تعصره فى الظلمة كف سفاحة؟. هل تملك الجنون لتصرخ محتجا ؟].

فجأة وجدت «صابر» إلى جوارى. قال :

- لا أحد من هؤلاء له بطاقة.

فكّرت فى أن المنوِّم الذى آخذه فقد مفعوله. (بدأنا بالليبريوم . ١

مليغرام، ثم الليبريوم ٢٠ ملليغرام. حبة صفراء صغيرة. تحت اللسان تدور. يد رحيمة تتسلل تحت الجلد. تمسح الأعصاب. تهدهدها. يبدو النوم قريبا. يختفي ذباب التسي – تسي. تموت على سطح الزجاج بعوضة أنوفليس حقيرة. أتثاءب. أضع رأسي تحت الوسادة. أنام، انتهينا بالفاليوم. حبة بيضاء سميكة. وكوب لبن ساخن في اثرها. ضحك في الحجاب الحاجز تكسل الحنجرة عن النطق به. ابتسامة بلهاء. ليذهب كل شئ إلى الجحيم: الماضي والحاضر والمستقبل. ملعون في كل كتاب : الحزن والقلق والخوف. بدأنا بالليبريوم ١٠ ملليغرام في سجن القناطر سنة ١٩٤٩، وانتهينا بالفاليوم وكوب اللبن الساخن «ونوال جلال الدين» في ١٠ ديسمبر ١٩٦٦. تصفيق حاد).

عاد «صابر» من كثافة الزحام :

– أين أنت يا رجل.. ما رأيك في موضوع البطاقة ؟.

– معي بطاقة عائلية فيها اسم زوجتي وابنتي. فكرت في إلغائها. خفت أن ينقص مقررنا من السكر والزيت.

ضحك. ضحكته عالية كطفل يكره الأصول. وضع ذراعه في ذراعي.

(أمس عاتبتني زوجتي، لأنني عندما نسير معا لا أضع ذراعي في ذراعها. عجبت لأنها تهتم بذلك. قالت: أنت ما عدت تحبني. قلت : لسنا أطفالا صغاراً. عاتبتني بسمتها. سرح الكدر رماديا في بياض عيونها الناصع. قالت : لم نكن يوما صغاراً، وكنت لا تترك يدي، ولا يخف ضغطك عليها بل يزداد، فماذا حدث ؟. عذابنا بدأ بعلامة استفهام. نشوتنا بدأت بها أيضا. كاسفا قلت : الدنيا حر أخشى أن تعرق كفي على ذراعك).

ها هو ظلي يسير إلى جواري. ترحل الشمس الآن وتولد في الصباح. نحن نرحل دون أن نولد. ذلك الظل من لي بتحديد مثل تحديده ؟ وكيف يتأتى أن تكون له هذه الخطوط الحادة ؟. خلاياي لا يجمعها شئ. قال :

– ولكنك لا تستطيع أن تلغي بطاقتك العائلية ؟.

ضربني واحد بكتفه وهو سائر. دهشت لأن لي كتفا. تحسسته فرحا بوجوده. قلت:

– ما معنى أن تكون لك بطاقة، فيها اسمك وتاريخ ميلادك وبصمتك ؟. هذا شئ سخيف جدا.

سعل سعلة أطول من المعتاد فعاودني القلق القديم. قلت إن رحمة أدركته قبل أن يقضي عليه الداء. وإلى متى يحتمل صدره العليل معاناة الحياة؟. ها هو يبدو قويا يدب فوق الأرض بعنف. كأن الموت لم يسكن صدره شهورا طويلة. شاهد على أن الحياة قاهرة الفناء منذ القدم. لكن محكمتك لا تؤمن إلا بشهود الزور.

***

[بالقرب من القلب الطيب اختبأت يوما متفجرات الموت. سهر أكثر من طبيب يتعهد الحالة بقلق. يومها شممت رائحة الموت. ما أتعس أن تموت غريباً دون أن تنوح عليك امرأة، يتفجر قلبها بصراخ الاحتياج: يا سَبْعي.. يا ضَبْعي... يا حارق مهجتي. في الغربة تموت. لست سبعا ولا ضبعا. تبتل فرحا صدور الكلاب. يصيحون : مبروك، انتهينا من واحد منهم.. العقبى لمن بقي. في فناء السجن عقدت اجتماعات سريعة. تحت نظر الحراس، تبادلنا الكلام همسا. ونحن في الجبل يوماً. قال واحد بجواري:

– سنكون كلابا حقاً إذا صمتنا. لا بد من نقله إلى المصحة.

تحدث واحد عن العقل. قال آخر ضاحكا: وقعنا في يد من لا يخافه ولا يرحمنا. ثبت «حلمي» نظارته الطبية بعد أن انزلقت بالعرق. قال :

– كطبيب أصرح أنني لا أضمن حياته إذا لم ينقل إلى المصحة.

عاد يمسح نظارته من تراب الجبل. رفع «الأزمة» هوى بها على الحجر الصلد. حملت «المقطف» على ظهري لأعود بالحجارة المتكسرة. قال :

– أمس منعوني من الدخول إليه. يريدون إخفاء حقيقة المرض عنا.

قلت : نناقش الأمر فى المساء وما يتفق عليه ينفذ.

فى الظهيرة خرجت لأعود بالغذاء. الأرض رمال ساخنة. قدمى العارية تدوس حصى كالجمر. لا نسمة هواء. قطة برية تنهش لحم عصفور. نتن الرائحة أمام باب المشرحة. ذباب دائخ بالجو الخانق يطير فى سرعة هيستيرية. نظرت داخل المشرحة عبر خصاص نافذتها. كانت مظلمة مليئة بأسرة قديمة. ارتجف جسدى فجأة برعب خانق. سكن القلب هم مقيم. تركت الدلو أمام باب المستشفى. قال «الشاويش متولى»:

- إلى أين ؟

- عندى إسهال.

مستريباً، قال :

- إمش عدل، إلى الأجزخانة طوالى...

وضعت السيجارة فى يده. ابتسم ابتسامة لص محترف. قلت إننى لن أدخن حتى المساء. لم يبد ذلك مهما لحظتها. لمحت تدهوره السريع قبل أن أصل إليه. خطا ناحلا قد كان. ساقاه رفيعتين كعصوين من البوص. عيناه غائرتان كأنهما لا شىء. شاربه الكث يلتهم نصف وجه. عروق الرقبة بارزة. ما أشرّه المرض. وكنت تبحث دائما عن «أمنا الغولة» كما صورتها حكايات الصبا. فتأمل ما يمكن أن تفعل باللحم الحى. ما كاد يتكلم حتى دهمته نوبة سعال متصل. انتفخت عروق الرقبة، كادت تنفجر. قلت:

- لا تتكلم.

دهمتنى رائحة «الديتول». كرهتها من يومها. أصبحتْ رمزا للفناء. قال:

- لا أمل.. أتسع ثقب الرئة اليمنى.. وليلة أمس لم أنم لحظة واحدة...

عاد لهاثه يتزايد. محاولا الابتسام قلت :

- لا تكن ثقيل الظل. دور ثلاثة يسلم عليك. وقد طمأننى «حلمى» أمس. فلماذا اليأس؟.

- بُصاقى كله دم أحمر، والحالة أوشكت على الانتقال للدرجة الثالثة..

خفق القلب مُوجَعا. صداقة العمر توشك على الانقصاف. لا أمل فى أن تسمع أذن صرختنا فى هذا المكان الموحش. وسط الكلاب نعيش. من ينجدنا فى ظلمات الليالى؟. لن يبدو هزلا أن تحمل مصباحا وتذهب إلى إدارة السجن فى عز الظُهر. تتشمم وتبحث. فإذا سئلت فلتجب بأنك تبحث عن إنسان. ستبدو نكتة. لكننا فى زمن ضحكه كالبكاء. ابتسم ابتسامة قصيرة. قال :

- أكره أن أعذبكم معى.

تزايد الهمس فى المساء. جاء واحد من دور ثلاثة يسأل:

- الزملاء فوق يسألون عما ستفعلون.

قال «حلمى» متجهما :

- فى الصباح سنقول لهم.

تأملت وجهه الصلب بأمل. قلت إنه يستطيع أن يفعل الكثير.

كان عقلا محضا حتى ليخيل إلىّ إنه لم يعرف البكاء أبداً. وعيناه رغم الزجاج تبدوان كاشفتين، فى وهجهما يستحيل الكذب. قلبوا الأمر بحثا وشرحاً. كنت منهكا. حملت مائة «مقطف» من الحجارة. كتفى تؤلمنى. تابعت المناقشة ساكنا. تحدث «حلمى» عن تطورات المرض. سأل واحد: أكان مريضا قبل السجن؟. لعن أكثر من صوت الأسفلت البارد والنوافذ المفتوحة وزمهرير الشتاء. قال آخر: والغطاء المهلهل والغذاء السيئ. وتساءل عاشر: ومستشفى السجن؟. «حلمى» بصوت حاسم : زفت وقطران. مستشفى بدائى لا يصلح لعلاج الدوسنتاريا فكيف بالدرن؟. الاسم مرعب. سرحت أثناء المناقشة. إلى قريتنا طرت. أكلت فطيراً وعسلاً أبيض

مع أمى. لبست زوجتى ملسا ريفيا فبدت فاتنة فيه. خرجت إلى الشارع تزور بعض القريبات. عدت من قريتى محملا بالغبار وكومة من الهموم. كان القرار بصاغ. قال «حلمى»:

- سأبلغ المأمور غدا أننا سنضرب عن الطعام إذا لم ينقل «صابر» إلى المصحة خلال أسبوع..

وافق الجميع. تساءل أكثر من صوت: وترتيبات الاضراب ؟.. قال : سيقوم بها «عمر الدهشان». صمت لحظة قال:

- أريد تفويضا بأن أتعامل معه حسب الموقف..

طلبوا توضيحا، اهتز شاربه الكث:

- يعنى.. إذا قلَّ أدبه أو طالت يده عاملته بالمثل..

وافقوا بعد مناقشة مرهقة].

***

انشق الزحام عن لافتات متشابكة: «حاتى الحرية». «فطاطرى المشهد الحسينى». «مكتبة محمد على صبيح وأولاده». «الستر». «الجامعة الأزهرية». قال صابر:

- أيها الرجل الفاليومى.. إلى أين ذهبت ؟

- آه.. كنت أفكر فى «حلمى».. ستحضر استقبال «نوال» فى المطار غدا ؟.

- طبعا.. لا شئ ورائنا. ولكن قبل ذلك يجب أن تكون معنا بطاقات.

وقفنا نشرب عصير قصبه. كان غريب الرائحة. ذكرتنى لذعته بالخمر الذى كنا نصنعه فى السجن. كادت معدتى تنقلب. ما أبشع كل هذا .. قلت :

- تتكلم كلاما غير مفهوم، أرهقتنى متابعتك.

- أنت رجل فاليومى وهذا يكفى.

نفخت ضائقاً..

- لم أعد استجيب له. وأمس سألت «حلمى» أن يجد لى بديلا عنه. صاح ساخطا أننى أستغله استغلالا سيئا.

ضحك ضحكته الجهورية العالية. نظرت إلينا بنت بلد بدهشة. علقت عينى بعينيها. شاقتنى حيوتها ودعوة عبث برىء فى نظرتها. قال :

- ولكن زوجته، باعتبار ما سيكون، هى المسؤولة عن تحويلك إلى الحالة الفاليومية..

[طولها المنسجم، نطقها للفظة «البوستيش»، واللدغة وهى تقول «البيروك». حكمت زوجتى بأنها مدعية وتافهة. التقيت بها أول مرة فى عيادته. قدَّمها قائلا:

- مدام «نوال جلال الدين». صاحبة معمل لرسم القلب، وتحتكر رسم القلب لمرضانا.

التفت إليها قائلا:

- وهذا يا ستى «عمر الدهشان» الذى حدثتك عنه.

ابتسمت ابتسامة واسعة. قالت:

- روى عنك «حلمى» الكثير.

- خيرا ؟!

- إلى حد ما.. وهو يقول أنك أظرف من يسكر فى العالم.

ضحكت قائلا:

- غيبة وغيمة لا تصدران إلا عن وغد مثله..

- سمعت أنك كنت تسكر بعسل أسود مخمر، فما رأيك فى الويسكى؟

- أموت فيه.

قالت وهى تنصرف :

- عال.. سأنتظرك مع «حلمى» غدا..

قال «حلمى» مصافحا:

- ها أنت ترين أنه خجول، والواقع أننا لا نعرف شخصا إسمه «عمر».. نعرفه بإسم «عمر حورية» نسبة إلى زوجته التى لا يسير أحدهما بدون الآخر..

وجهت الدعوة إليها.. مضت تاركة عبيرا طازجا فى الغرفة.. قلت ضاحكا:

- يا ابن اللئيمة.. ولماذا لا تشحذ دعوة لزوجتك ؟!.

بضحكة عالية.. قال :

- دعوت «حورية» لكى أضمن ألا تنافسنى أنت !.

هكذا دخلت دنيايا.. ذلك الوجه الآخر من الحياة، كيف غاب عنا ؟[ها أنت تكتشف جهلك بالكثير من الأشياء. وحتى فى عالم النساء تبدو غبياً وأحمق. فلتتعلم مرة أخرى كيف نعيش].

بنبرة ساخرة قال «صابر» :

- سيكون زواجا رائعا.. تعود «نوال» من بيروت غدا، بعد أن حصلت على الطلاق من زوجها.

- وفى الشهر الماضى طلق زوجته..

- شىء جميل جدا.. ألم تفكر فى زيارة مطلقته ؟

نفخت بغيظ قائلا:

- «حورية» معها باستمرار.. وعندما رأتنى أسمعتنى كلاما قارصا.. ما ذنبى؟!

[تعلم أنك كاذب.. كان يتدهور يوما بعد يوم وأنا معه. لم أفكر

يوما فى الهاوية التى تفغر فاها لتبتلعه وتبتلعنا.. وقلت يوما أن عمل زوجها معروف. فكيف غاب ذلك عن «حلمى». سألته. قال:

- هذا شئ قديم.. وقد انفصلت عنه، نحن أبناء اليوم.

لم تقنعنى الإجابة. ليلة غاب الويسكى بوعينا. ضحكتْ كما لم أضحك طول عمرى. كدت ألعب لهم الوسطى لولا لحظة صحو طارئة. ألقيت شعرا حزينا. تحدثت عن فلسفة الحزن، وعن أمى التى علمتنى أن أبكى وأنا بعد طفل. كانت فى قميص نوم شفاف تتفجر أنوثة وحيوية. صاح «حلمى» هاتفا بحياة الشعب..ضبطت سكرانا يكذب لأول مرة فى حياتى. قالت :

- أنا حزينة .. أشعر أن «صابر» يكرهنى. لا يقبل على سهراتنا.

- «صابر» إنسان جاد أكثر من اللازم.

- .. عملت ضدكم سنوات.. لكنى لم أكن أعرفكم..

كانت الليلة تشجع على البوح. تحدثت كثيرا عما فعلتْ. استبشعت أمعائى ذلك كله. قلت أننا نحتضن جلادينا بكل غباء فماذا حدث؟. ولماذا فقدنا قدرتنا على المقاومة تماما. وعدت من الحَمَّام: بعد أن تقيّأت كل ما فى جوفى وغسلت رأسى. قطعت عودتى مشروع قبله. نحيت وجهى متجاهلا. قالت حزينة :

- ومرة علمت أن واحدا من الذين عملت ضدهم قد مات فى السجن، فبدأ عذابى..

حطّ علينا الصمت، يده تحيط بشعرها، تعابثه، استمرت:

- وظللت أسبوعا لا أنام.. وأصبت بانهيار عصبى كامل.

طلب منها أن تصمت.. استمرت :

- ولولا «الفاليوم» ما استطعت أن أنام..

من تلك الليلة عرفت «الفاليوم» لأول مرة.. فيا للفظاعة].

***

اشعلتُ سيجارة. اقتربت محتميا به من سيارة مسرعة. قال :

- زرت مطلقته هذا الأسبوع.. رتّبت لها شؤونها المالية.. صديقنا يتصرف بنذالة حقيقية.

دافعت عنه دفاعا ضعيفا.. قال :

- إنه طبيب معروف، ومكسبه كما تعلم.. لكنه يريد أن يجوّع أولاده ومطلقته ناسيا ما تحمّلته من أجله ومن أجلنا.

- لا داعي لأن تشتبك مسائل خاصة بمسائل أكبر منها وأهم بمراحل.

ضحك بشدة، وجرني فدخلنا «كفر الطماعين». قال :

- هذا ما قلته لها. وقد وافقتني، وقالت أنها لم تنتظره، ولم تكن تضحى من أجله فقط، لكنها فعلت ذلك من أجل أشياء أهم.

شعرت براحة مفاجئة. قلت أن هذا يوفر علينا الكثير. ومنذ متى نسينا هذه الشوارع الضيقة المزدحمة بالجوع والفقر والمرض: فى هذا الحى يقطن الشعب الذى تعذبنا به كثيرا، فكيف تنكر أنفك رائحة حياته القذرة. هنا يموت رجال من نقص الزاد وهجوم الداء ويقتل الرجل أخاه من أجل قرش واحد كما تروى الصحف أحيانا. لكن ذلك أصبح مجرد كلام كموضوعات الإنشاء التى كنت تأخذ فيها الدرجة النهائية. فذقت إمرأة بماء قذر جاء تحت أقدامنا. تأملت خلقتها المشوهة والقذارة فى أقدامها. قلت : لا مسرّة لأحد هنا. والنوم مع هذه المرأة لا يمكن أن يكون نشوة، ولكنه عذاب. قال:

- .. ولكنها، (أعنى مطلقة «حلمى») قالت أن الموافقة على الجرائم الصغرى، يعنى الموافقة على الجرائم الكبرى...

تدبرت الجملة مرات. وقلت إن شيئا لم يعد يهمنا.

***

[وفى كل مرة تنتقل البنت الساكنة أمامى عبر الشرفة إلى حجرة نوم جارها. أظل أنتظر عودتها بقلق. وفى الصباح أتأمل صباها النضر. وأعجب كيف اتركها تنحدر. ومرة حدثتنى النفس الأمّارة بالسوء، أن أقاسم صاحب

الشرفة مكاسبه. شرفتها وسط شرفتينا. والذى ينتقل إلى شرفة اليمين، ينتقل إلى شرفة اليسار. وقلت أننى استحق عن جدارة لقب الوغد].

تهنا فى الشوارع الضيقة. المنفصلة المتصلة، كبيت جحا. وهو يسأل عن عنوان. قال:

- وأنا أناقشه مزحت معه مزاحا ثقيلا.. اقترحت عليه صياغة مبتكرة لبطاقة الدعوة، ولكنه زعل.

- أعرف أنّ مزاحك قاس.. ماذا حدث؟

- قرفان.. ومع ذلك فهى مجرد نكتة. لم نعرف الزواج التقليدى: أحبك يا زميلة. وأنا أيضا. ما رأيك فى أن نتزوج ؟. لا مانع. حتى يدهمنا أولاد الكلب ويلقوا بنا فى السجن. وفى نفس اليوم نذهب للمأذون. وبعد شهر تكون أنت فى سجن أبو زعبل، وهى فى سجن القناطر. ونبحث عن شاويش جوعه أهم من وظيفته فتتصل المودة برسائل غرامية. ألم يتزوج «حلمى» أول مرة بهذه الطريقة.. فلماذا يطبع بطاقات دعوة مذهبة.. وهو يتزوج من إمرأة سكند هاند ؟!.

ضحكت قائلا :

- أنت أقسى مما ظننت.

- أنا لم أقل له شيئا. اقترحت عليه أن يكتب على غلاف البطاقة «زواج زليخة وعاشور». فأثار مشكلة كيف يكتب مهنة «نوال» فى البطاقة. هل يزعم أنها دكتورة كما يفعل ؟. أما أن النقابة قد تعلن أنها ليست كذلك، فاقترحت عليه أن يكتب تحت اسمها: من أحدث بيوت الطبقة الجديدة. فلوى بوزه..

تقدمنا . غنى : زليخة بتحب «عاشور» .. و«عاشور» بيحب «زليخة»

- أين نحن ذاهبان ؟!.

- أعرف مطبعة هنا.. أريد أن أطبع بطاقة باسمي..

دهشا :

- ما السبب ؟

- لا بد أن يحدد كل منا بالضبط من هو ؟

قلت أنه قاس. ولكن قسوته تعتمد على حقيقة ما أنحدر إليه حالنا لكن من الذى يستطيع مقاومة لحظات الضعف إلى الأبد.

***

[تشاجر «حلمى» مع المأمور بسببه. تبادلا سُبابا مقذعا. ضربه العساكر بالأحزمة الجلدية السميكة. عاد دامى الوجه. شُقَّت شفته السفلى. لم تزل آثار الجرح واضحة. بدأ الإضراب. فى اليوم التاسع منه، قال المأمور: سننقل زميلكم إلى المصحة فتناولوا طعامكم. صمتنا ولم نرد. كان فمي ملحى ساعتها. بللت لسانى بالماء. أشحت بوجهى عنه. فى اليوم العشرين جاءت عربة الإسعاف. تحاملنا على أنفسنا. شاهدتهم وهم ينقلونه على نقالة مستطيلة. كنت ضعيفا لا أكاد أقدر على المشى. سرت بجواره و«حلمى» معى. قال «حلمى»:

- شدّ حيلك.. لا تستسلم للأوهام. حالتك عادية. وبالرعاية تسترد صحتك. غامت عيناه. انقلب لونهما بياضا كله. هزّ رأسه بابتسامة شاحبة. قال:

- إسمع.. عندى عشرون قيراطا فى البلد.. إذا مت.. ف..

وضعت يدى على فمه. منعته من الكلام. شوحت بيدى مودعا. كان الغروب يهبط وانيا على فناء السجن، والشمس قانية. عصافير كثيرة تتقافز هناك. أخفيت وجهى فى حائط .. وبكيت].

***

لافتة ناحلة. فقد سوادها لمعته. كتابتها البيضاء باهتة. قرأت بصعوبة «مطبعة العدالة الكبرى لصاحبها محمود المهدى». الرجل أثر من

عهد بائد. على صندوق الحروف انحنى. عيناه الضعيفتان محاطتان بنظّارة سميكة. عندما قام اكتشفت انحناءة غير يسيرة فى قامته. والمكان رطب ومُظلم وموحش. ماكينة القص فى الركن الأيسر. عاد إلى ركنه متسائلا عما نريد. قال «صابر»:

- أريد أن أطبع «كرتا» باسمى.

- حرف أم أكلشيه ؟.

- حرف.. ١٨ رقعة أبيض..

لم يتحرك من مكانه. عاد للمقاطه مواصلا التقاط الحروف. قال :

- العلبة ١٥ قرشا. وكل مائة زيادة بعشرة قروش. عندك قلم. أكتب الكرت..

انحنى صابر على منضدة صغيرة بجانب ماكينة القص. كتب

صابر الكردانى

ثائر سابق - حاليا شيطان أخرس

١٨ شارع مراد - الجيزة

ابتسمت مذهولا. قلت إن الجنون يدهمنا. ناوله الورقة. لم يمد يده، قال :

- إقرأ وسأحفظ..

سمع بهدوء. استرجع الكلمات. قال :

- نحن نأكل عيش يا أستاذ. هناك «خمارة» بجوارنا إذا أردت الفرفشة.

ذلك الجنون كيف يتساقط علينا ؟. وقديما قالوا إن رؤوسنا أخطر ما فينا. فيا للكارثة التى تأكلنا.

سعل «صابر» . قال :

- ولكنى لا أمزح يا «أسطى محمود»..

ترك الرجل ما فى يده. التفت إلينا. قال وهو يلف يده حول رأسه فى حركة دائرية :

- هل حضرته... ؟

قلت ضاحكا:

- لا .. ومع ذلك ما شأنك أنت.. أطبع له ما يريد.. وخذ نقودك..

دعانا للجلوس على دكة خشبية بجواره. قال :

- كيف يا أستاذ ؟. لا بد أن أفهم. ما معنى «ثائر سابق». هل حضرتك وفدى؟

- لا !.

- أنت أصغر منى بكثير، ولا أذكر أنى رأيتك بين عمال العنابر أبدا..

شاقنى الحوار. قلت :

- ألا يوجد ثوريون غير هؤلاء يا عم «محمود» ؟.

ضحك الرجل وقال :

- هذا عن أيامنا.. أما أيامكم.. القصد.. حضراتكم إيه ؟.

همست فى أذنه.. ابتسم قائلا:

- آه.. أنتم بتوع الخبز والحرية.. أهلا (ثم بعد لحظة) ولكنى آسف.. لن أطبع الكرت.

- لماذا ؟

- مطبعتى سيئة السمعة.. تدهمها الشرطة فى كل وقت.. والكرت مريب..

تساءلت عما أساء سمعة المطبعة.. قال :

- طبعنا بها زمان منشورات «اليد السوداء».. و «جماعة الانتقام».. وكان «أولاد عنايت» يجلسون عندى قبل أن يقتلوا السردار.. ألف رحمة ونور على الجميع..

- ولكن هذا تاريخ قديم.. فلماذا يلاحقونك ؟.

- ذاك شأنهم.. والأدهى من ذلك أننى عندما كبرت وأصبح نظرى على قدّى جئت بمن يعيننى على العمل فزاد الطين بلة..

تساءلت عيناى. انحنى فأخرج نصف سيجارة. أشعلها. قال :

- طبع بدون علمى كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه ووصفات لتقوية الباه» وأخذ يوزعه. فكبس بوليس الآداب المطبعة..

جلجلت ضحكات «صابر». نظر إليه الرجل دهشا. قال :

- لا تزعل يا عم «محمود»، تضحكنى أحيانا النهايات الهازلة للأشياء الجادة.. ولكن لعلها لا تكون نفس الحروف التى طبعت بها منشورات اليد السوداء.

قال الرجل مبتسما كأنه أدرك النكتة :

- لا .. الأخرى راحت.. عرفت واحدا منكم أيام الحرب.. طبعت له ما جاء به. وطلب صندوق حروف ليشتريه فأهديته صندوقى القديم..

تزايد صيحات «صابر». قال :

- أيها الرجل العجوز.. كيف لا تعرف «صابر الكردانى».. هل أذكر لك علامة. حرف العين كان ناقصا سبع قطع. وعَدت بتدبيرها ولكنى لم أعد مرة ثانية..

رفع الرجل رأسه. بانت على ملامحه معاناة التذكر. صاح :

- أهو أنت ؟...... يا مرحب..

احتضن كل منهما الآخر فى شوق. ووقفت أنظر إليهما حائرا.

***

إلى الزحام عدنا. أقبل المساء على استحياء. الزحام عتمة متحركة.

صمته طويل أطول من المعتاد. أشرت إلى محطة الأتوبيس. قال : بل نمشي. ستنفخ زوجتي عابسة وتقول : لك بيت فكفّ عن التصعلك. غبت بالليالي دون أن تنفخ. ذكرتها بذلك قالت: كان وراءكم ما تفعلونه. أما الآن فالتصعلك مريب. شغلني أنها بدأت تغار. بدا الأمر مبهجا في البداية. أصبح بعد ذلك مزعجا. أخبار الانهيارات تتوالى. البيوت التي صمدت لعواصف الزمن فاحت منها رائحة العفونة. قالت مرةً : فقدتم الكثير حقا. ولكنكم ناكرون للجميل. قلت: «حورية»، لا تبالغي.. حوادث فردية. والطلاق يحدث كل يوم. هَمْهَمَت: أنتم تطلقون كل شيء. بعد الانتظار الطويل ؟ ففيم كان العناء. لماذا يطلق «حلمي» زوجته من أجل هذا الشيء المسمى «نوال»؟.. نفخت وقلت : التغير قانون الحياة فلا تزيدي تعاستي. وضعت الكريم على وجنتيها ودارت بمقدمة كفها تنشره في حركة دائرية. قالت: ولكن النذالة ليست قانونها. تابعت اهتمامها بتجميل وجهها رائيا. التفكير أصبح عملية مرهقة. ماذا حدث لنا حقيقة. لن تنتهي علامات الاستفهام حتى تصيبك بتصلب الشرايين. وغدا سنقف في صالة المطار ننتظر عودة «نوال» بعد حصولها على الطلاق. وسنجتمع بعد غد في حفل الخطوبة. سيكون طريفا أن أدعو أمي للتعرف بها. فكيف تتصرف العجوز الريفية مع امرأة مثل هذه؟ أوف. صدمني رجل مار. قال «صابر»:

- قررت أن أعود للعمل.
- أي عمل ؟!

بضحكة ساخرة قال :

- لم يكن لنا عمل سواه.

تنهدت. قلت :

- لا تجهل المخاطر طبعا.
- وهل جهلتها يوما ؟

بعد لحظة صمت :

- ما رأيك.. أنبحث الأمر معا ؟

متهربا من عينيه قلت :

- أفكر ثم نتناقش ..

٢ اما احدكما فيسقى ربه خمرا.. وأما الآخر فيُصلب

انزلقت قدمي على الرخام اللامع. قلت : ها نحن نفشل في أول اختبار لنا. سنطرد من هذا الفردوس بتهمة الجهل بآدابه العظيمة.. ومن السهل أن تسأل. ولكن كشف الجهل يبدو معرة. ولنؤرخ لهذه الليلة، ففيها دخل سليل كفور المنوفية «الهيلتون» لأول مرة. والذي اختار اسم قاعة «ألف ليلة وليلة» ذوّاقة خبير. أما كفتا أمي فقد دبغتهما خضرة لا تزول. عشرة أعوام تعجن فيها روث الماشية. فمن يقول هذه الحقيقة الآن؟ ولتستدع قدرتك السابقة على التحدي والاستهانة. إذ ذاك تستطيع أن تبصق على هذا المكان. تحتقره. هل تستطيع أن تفعل هذا حقا؟ كان ذلك ممكنا في الزمان الخالي. في الداخل كانت قوة تحد كبيرة، فمن يعيد ما فقد ؟ قدرنا أن ندخله لا غازين ولكن مبهورين. ملتحقون جدد. لن تستطيع بعد ذلك أن تزعم أن هذا المكان لا يدخله إلا اللصوص ومصاصو الدماء، فهذا كلام يبدو كالأكذوبة. وهل تسعفك الذاكرة الآن باسم ذلك الرفيق المتحمس الذي اقترح مرة أن نحوله إلى مستشفى للشعب ؟. ستكون نكتة رائعة لو انتهى التفتيش بأنه «حلمي» نفسه.

[يوم عودتها سهرنا في «ستريو المطار». انحنت عليّ ترد تهنئتي بحصولها على الطلاق.. ثم سألت :

- كيف حال زوجتك ؟.

أشعل «حلمي» سيجارتها. قالت :

- كيف تخاطر امرأة بجمالها في عملية سخيفة كالحمل ؟.

انفلتت ضحكة «صابر» الريفية لفتت إلينا الأنظار. قال :

- لهذا تتزوج النساء. ولعل لديك وظيفة أخرى لنفسك.

«حلمى» بجفاء، لم يفلح فى إخفائه :

- للضحك هنا أصول يا سيد «صابر»..

ابتسم كيانه الضخم بسمة ساخرة:

- طبعا .. تزيد الأصول دائما فى المستوقدات ومجمعات القمامة.

صمت كلاهما. قالت «نوال» مغيرة الجو :

- هناك فرصة سانحة لعمل مريح لك. ما رأيك ؟

تساءلتُ بلهفة :

- أين ؟.

- شركة بترول أمريكية تعمل في «الكويت».

سألتُ عن التفاصيل باهتمام. أجر مجز حقا وعمل قليل. أيغير السفر ما يملأ القلب من حيرة ؟. أتستطيع هناك أن تجد النوم المريح ؟ قالت:

- أمامك وقت لتفكر.. ولو لم يمانع «صابر» بوسعى أن أدبر له فرصة أخرى!

تناول رشفة من كوب الماء. نظر إلى الراقصين فى «البيست». قال :

- فكرة طريفة.. وأمس لعن «عمك محمود» الزمان الذى جعل مطبعته تبدأ باليد السوداء وتنتهى برجوع الشيخ..

أشحت بوجهى. لم ترد. تظاهرت أنها لم تفهم. أستأذن «حلمى» وقاما يرقصان. تأملت جسدها الفارع ملتصقا بجسده. قلت إن مقاومة ذلك كله ليست مستحيلة. ولكن أين القوة ؟ قال «صابر» ساخرا :

- أهنئك بالوظيفة الجديدة.. ستذوق أموال الاحتكارات الأمريكية قبل أن تموت].

فى زحام القاعة تبدو الحياة أكثر مرحا.. وتأمّل هذه الكوكبة من الحِسان. غابت عن العين كثير من المسرات. وهذا العطر الفَوّاح كيف غاب

عن معطسيك، ولا تلمح العين إلاّ عددا قليلا من زملاء الزمان الماضى. فهل تجاهل «حلمى» دعوتهم أم أقعدتهم رهبة المكان. ولو كان هنا.. أكان يدعوه؟ آه كنا ضحكنا حتى طفرت الدموع.

***

[ويوم اختفى كان يوما كابوسيا فمتى تزول مرارته. بلا مقدمات على الإطلاق. بيد أننى راجعت الشواهد بعد ذلك فأيقنت أننى كنت غبيا إلى درجة الحماقة.. أين اختفى حذر الزمان الماضى. كنا نشم الخطر على بُعد أميال.. ولكننا نعيش عصر «الڤاليوم» فلعنة الله على كل شىء. ضغطت على الجرس متأملا اللافتة التى تحمل اسمه. باهتة لطول ما مرّ عليها من زمان. وُضعت لأول مرة فى عهد الطلب بالجامعة. ويوما كانت الشقة مقرا لمطبعة مُرعبة برقت فى حناياها عيوننا ونحن نقرأ ما تطبع فيتفجر حماسنا. طال الضغط وما من بفتح. أخيرا أطل وجه الجارة. قالت :

- أستاذ عمر.. الحمد لله.. هاك المفتاح..

قلت :

- ألم يقل متى يعود ؟.

بوجه كاسف قالت :

- الله أعلم.. جاءوا فجر أول أمس وأخذوه.. أصرَّ قبل أن يمضى على إيقاظى وترك لك المفتاح معى.

جلست قليلا فى صالة شقتها. دخَّنتُ بشراهة. سألتنى:

- ماذا حدث يا أستاذ ؟ ألم تقولوا أن هذا العهد قد انقضى ؟!.

ابتسمت محزونا ولم أرد. سألت حوائط الشقة الناحلة أن تحدثنى فاستعصى عليها الكلام فيا للقسوة. فتّشت الأوراق بدقة. حرقت بعضها. قبل أن أمضى تذكرت درجا سريا فى الدولاب. عدت إليه. يا لى من غبى. كدت أنساه. قرأت الورق بانتباه. مزّقت كل شىء. قالت الجارة :

- لا مؤاخذة يا «سى عمر».. كلمنى الأستاذ عن الإيجار..

- سيصلك في موعده..

ها قد مضى أكثر من عام على غيابه.. ففى أى أرض يستقر الآن. وماذا تغير من صور الماضى؟. فى أى سجون هذا العالم يستقر «الشاويش متولى». وعنبر ٣ من يسكنه الآن؟ لصوص أم قوادون ؟ وها نحن فى ليلة هيلتونية فاخرة. ما أطرف أن تصرخ الآن بما حدث. تلقى «حلمى» الخبر بثبات غير عادى. قال :

- نصحته فلم ينتصح. الظروف تغيرت..

تأملت الكلام الذى قاله بذهول. أهى نفس شفاه الزمان الماضى ؟.

قلت :

- لم يكن يفعل ما يضر. والمسألة أبسط مما يصورونها. وحتى لو لم تكن كذلك.. فهل تظن أنه كان..

نفخ بضيق.. قال :

- إنه مغامر ومتطرف.. ويساريته طفولية..

هذا عصر البخر والعفونة.. إغلقوا أفواهكم قبل أن تقولوا الدَّنية. ويوما قبل أن يغيب قال : «ولن يحكموا علينا أن نظل كالأغوات والبلد فى حالة حرب». أما يوم مأتم أمه فإن المقرىء قرأ «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين. ودخل معه السجن فَتَيانْ. قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا. وقال الآخر: إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه. نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين». ساعتها قلت إن الحلم قديم وكذلك القهر. فمتى يرتاح القلب ؟. ها هى أقدامنا تنزلق إلى مستنقع لا ندرى قراره. كذلك الجب الذى ألقى فيه يوسف. فمن لنا بمن ينجدنا. وهل تملك حقا قوة ترد بها أغراء التى تقول لك : هَيتْ لك. حفل زفافهما شاهد على ما انتهينا إليه.

اقتربا منى. فاح عطرهما على البعد. لمعت الأضواء على فستان الزفاف المرصع بأسلاك من الذهب :

- لماذا غابت حورية ؟.

- اعتذرت بالمرض.. ولعل زهورها أعجبتك ؟.

ضحكت قائلة :

- أرسلت لى زهورا صفراء.. أنت تفهم لغة الألوان طبعا.

وأجل : الموت. هذا رأيها فيها. وأمس صاحت : لن أحضر.. فهى مشنقتكم أنتم، قبّلوها كما تشاءون.

قلت مُهَوِّنًا :

- لا تخضعىَ للأوهام.. «حورية» تحترمك...

- أشكرك على مجاملتك.. الحقيقة أنها لا تحبنى.. وكثيرون منكم كذلك.. دعونا الجميع .. وهاك النتيجة.

- مشاغل الحياة (ثم ضاحكا) ونحن مستجدون فى هذا العالم الهيلتونى..

«حلمى» مبتسما :

- البعض يقول إننى تبرجزت، وهذه مجرد شعارات فارغة..

أصبح كل الكلام فارغا.. فلتقهقه كل شياطين الجحيم. ولو صدق ما يقول، إذن فحياتنا ضاعت فى لعبة هازلة. وملعون أب من يصدق الأحلام بعد ذلك. تأمل الراقصة التى أمامك. ما أمتع جسدها. وقبل أعوام لم تكن العين ترى إلا «حورية». كان عناقها متعة القلب والروح. ثم أضحت العين تزوغ أحيانا وراء ردف سارح أو نهد مُطلّ. بيد أنها ظلّت مرفأ الجسد المرهق. وها نحن نفكر فى الخيانة. وفى لحظات الحب كنت اندمج إلى حدّ لا أميز لنفسى أعضاء. ومن طوارىء الزمن الجديد أن تشعر بكل شئ حولك. تحولت لحظات نشوتنا إلى عذاب. كالذبابة المقلقة أصبحت. حول زواجهما اختلفنا. صاحت. سبّتْ. دافعتُ ما استطعت. قالت : عندما يبدأ الجبل فى الانهيار لا يتوقف. لاحظت أسيان أنها بدأت تهتم بتجميل نفسها. عرفت منضدة التسريحة أدوات التجميل. وأول مرة رأتها «نوال» قالت :

- زوجتك جميلة ولكنها لا تعرف كيف تكون أنثى. دعها لى.

رفضتُ يومها. سخرتْ منها «حورية» إلى حد التجريح. لكن القلق بدأ ينتابها تدريجيا. تزايد. قلت إن هذا طبيعى. ذُبل شبابها فى سنوات السجن الطويلة، ولعلها تظن أننى قد أطلقها. فهل خطر هذا على القلب. ما أقساها من تصورات.. صاحت:

- لم يعد هناك مستحيل.

- «حورية».. لا تحيلى حياتنا جحيما..

تنمرت عيونها الجميلة.. سرح الكدر فيهما.. قالت :

- ذهب كل شئ فلماذا أبقى أنا.. هه.. أصبح شعاركم الوحيد : أنكحوا ما طاب لكم من النساء.

صحت غاضبا :

- هذا تجريح لا أقبله، وشخصى لا يهمنى.. لكنك تتعدين الحدود إلى أشياء أخرى..

ضحكت ساخرة.. قالت :

- الله يرحم الجميع.. ستعود من الكويت بسيارة وتصبح هيلتونيا كصديقك الطبيب، فهل تبقى علىّ ؟!!

أصبحنا نقتات بالكدر. شكوكها تزداد.. ولتقر بأنه رغم تأكيداتك فإن النفس لا تبرأ من الغرض ولا من المرض..].

انصرفت «نوال» لضيوفها. نظر «حلمى» إلى كوكبة صغيرة من زملاء السجن يجلسون فى ركن المكان قال :

- قاطع الزملاء حفل زفافى.

- هذه أوهام.. مجرد مشاغل..

تناول كأسين من خادم كان يعبر المكان . قال:

- لا تعزنى.. يأخذون موقفا منى وأنت تفهم (ثم بعد لحظة) ماذا يريدون ؟ انتهى كل شئ. سأعيش حياتى كما أريد.

- لا تشغل بالك.. أنت تفهم السبب.

باستهانة قال :

- هذا تاريخ قديم وانتهى.. المسألة متعلقة بزوجها السابق. وهى ضحية وليست جانية. لقد اضطرها للعمل معه ضدنا. ثم أننا قد ابتسمنا فى وجوه الجميع وانتهى الأمر.. هل هى وحدها التى وقعت من قعر القفة؟!!

أبمثل هذا المنطق كنا نعالج المسائل ؟ أغلقوا أفواهكم قبل أن تقولوا الدنية..

انحنى يسلم على واحدة من المدعوات. قدمها لى. تأملت اكتظاظ أنوثتها منبهرا. كانت جميلة كزهرة رغم شحوب وجهها. تابعت جلالها مشرقا. تحدثنا قليلا. أستأذنت لتهنىء «نوال». غمز بعينيه فى إثرها. قال:

- لاحظت أنها تأملتك باهتمام. أنت مدين لى بالشكر. أثرتُ اهتمامها بتاريخك العظيم !.

آه.. تأمل المهزلة.. لتضحك حتى الموت.. ألمثل هذا كنا نصنع التاريخ ؟..

- أشكرك .. ولكن من هى ؟.

ضربنى على كتفى ضاحكا. قال :

- لا تخش شيئا.. وهى فى ظروف تنعدم معها المقاومة..

- يعنى ؟.

- أسر زوجها فى عملية حربية منذ عام. والوحدة مرار كما تعلم !.

ماعت نفسى. تقلص حجابى الحاجز. تعللت بالحمام. بعدت عنه. قال ملاحقا:

- لا تشغل بالك.. بوسع «نوال» أن تسهل الطريق..

عند الباب التحقت بكوكبة الرفاق. لم يقطع وصولى حديثهم. فى البداية بدا كأحاديث الزمان الماضى.. ثم انتشرت العفونة. تحدث واحد عن «سام ٣» وغارات العمق. وروى مطلع بعض الأسرار الفكهة. وقال ثالث إنه يكتب مسرحية عن بحر البقر وفيلما عن مصنع أبى زعبل.. قهقهت أعماقى بالخمر الزاعقة فيها. قلت : عال .. صفقة رابحة لا تقل عن ألفين من الجنيهات. علبه «ڤاليوم» كاملة لا تفيد. وفى الأسبوع الماضى قال «حلمى»: كطبيب وكصديق أحذرك من إدمان «الڤاليوم»، ستصاب بإنهيار عصبى مفاجىء فحذار. مرّ شبح المرأة الفارعة الطول بجوارنا. أغضيت خجلا. هل يشير «حلمى» يوما لزوجتى ويقول إن الوحدة مرار؛

سحبنى واحد إلى ركن . قال :

- ألديك أخبار عن «صابر» ؟

- مضى أكثر من عام على غيابه.. فى البداية صدّونى عندما سألت إلى حد التهديد. ثم انقطعت الأخبار.

- أخطرنى رسول منه أنه فى ظروف سيئة.

سألت ملهوفا عن التفاصيل. قال :

- عاملوه بشراسة فأضرب عن الطعام وعاوده الداء القديم. بدت التفاصيل مرعبة.. حكى طويلا ثم قال :

- معلوماتى أن المسألة خطيرة فعلا. ثقب فى الرئة اليمنى بمساحة أربعة سنتيمترات مربّعة.

توقف الحديث.. أفتتح البوفيه.. أكلوا هنيئا وشربوا مريئاً و ضحكوا أكثر مما ينبغى. قلت إنى مريض.. مريض.. عدت فى الهزيع الأخير من الليل مرهقا.. فتحت «حورية» عينيها. غطت طفلتنا. قالت :

- نحن فى الفجر.. لماذا تقلقنا ؟

- كنت فى حفل زفاف..

ساخرة قالت :

- العقبى لك فى المسرات !

لم أرد.

عندما أخبرت «حلمى» قال :

- خبر سيئ.

- لا بد من التصرف.

- آه.. طبعا.. ولكن ليس فى يدنا شئ..

طالعته نظرتى المذهولة. قال :

- اسمع .. «نوال» تعرف بعض الناس.. أصدقاء زوجها الأول.

صحت بجزع :

- هؤلاء ؟!

- نعم.

- ولكنهم...

نفخ ساخطا :

- لا تزعجنى.. ما فات مات. سنسافر غدا إلى بيروت. بعد عودتنا من شهر العسل نرتب لذلك..

ضحكت. قهقهت. نظر إلى دهشا. قال :

- عمر. أعصابك مرهقة جدا.. حذرتك من إدمان الڤاليوم وأكرر التحذير!.

***

قالت حورية :

- لماذا لا تنام ؟

ذلك الحلم المستعصى متى يتحقق ؟

- آه.. ناولينى المنوم.. وأغلى كوب اللبن.

قامت برمة.. اختفت فى اتجاه المطبخ. فتحتُ الشرفة. كانت الفتاة

تعود من جولتها الليلية. تأملت قفزها من الشرفة كبهلوان صغير. أذّن الفجر من بعيد. قال المنشد بصوت مغسول بالندى : «يا نائما بين الأنام.. قُم وأذكر الحى الذى لا ينام. مولاك يدعوك إلى ذكره، وأنت مشغول بطيب المنام». ما أتعس أن تكون حيا ولا تنام. سرى المنوِّم فى الأعصاب. ولكن أين النوم؟ تربع القارىء فى الثلث الأخير من رأسى. قرأ : «يا صاحبى السجن. أما أحدكما فيسقى ربّه خمرا. وأما الآخر فيُصلب، فتأكل الطير من رأسه. قُضى الأمر الذى فيه تستفتيان».

٣ النـــوم

ما أطول الطريق. ما أختق زحامه. برودة مطلع الليل. وتسأل إلى أين؟ وما من مجيب. هل تعود ليالى النوم حقا ؟. ثلاث ليالٍ كاملة وأنت يقظ تماما. الزعيق المفاجئ لأتفه سبب. الرجفة الطارئة. اهتزاز الشفاه. وتقول «حورية»: عيناك مفتوحتان على الآخر. نظراتك مخيفة فهل أنت بخير ؟. نعم أعصابك مشدودة كحبل مركب يشدونه بأقصى ما فيهم من قوة. المركب ثقيلة. والحبل مشدود. مشدود. وتذكر يوم عرض عليك العمل فجبنت وتعللت بما تعللت. رفع أكثر من صديق كتفيه يائسا. بصقت ألف مرة على عتبة بيوتهم. تحمس آخرون. وصدرت البرقيات ساخنة ومحتجة. إستدعاك الرجل. ألقى البرقيات فى وجهك. صاحت ملامحه المنتفخة :

- سبق أن حذرتك من التدخل فيما لا يعنيك.
- لكن هذا يعنينى.

زاعقا : لستَ بقية أهله..

- لا أهل له وأنا صديقه.
- أضرّت بكما الصداقة قديما... فاهتم بشؤونك..

- هذه شؤونى.. أخصُّ شؤونى..

ابتسم ابتسامة صفراء. قال :

- الظاهر أننى سأرسلك لمؤانسته.

نظرتُ إليه بشراسة. ها هم زبانيته يتبعونك. كالظل يمشون وراءك. بمظاهرة مريبة يمارسون عملهم. كأنهم يقولون : نحن خلفك فلا تفعل شيئا. وقد نجحوا، أصبحتَ أسيرا فى أيديهم. لا تفعل شيئا. لا تتصل بأحد.

وأمس فى الفجر. خبط الباب. قمتُ مذعورا. وجدتُ وجها غريبا. عانيتُ حتى تذكرت. قال بلهفة:

- أستاذ «عمر» ألا تتذكرنى ؟.. أنا «الشاويش متولى»..
- أهلا.. تفضل.

وهو يلتقط أنفاسه. قال :

- لا تؤاخذنى.. حاولت أن أجىء نهارا لكن الاحتياط واجب..
- خير يا «عم متولى».
- الأستاذ «صابر» فى خطر.. وهم يصرون على إهمال علاجه..

استطرد يروى التفاصيل المرعبة.. قام، طلبت منه أن ينتظر. عدت بنقود دسستها فى كفة. رفض بإباء. قال :

- الله يسامحك يا أستاذ.. صحيح نحن نأخذ أحيانا، لكن الآن .. عيب !

بكت «حورية» عندما سمعت التفاصيل. ليلة باكية حزينة بلا نوم. عايشتنى عند العصر فكرة شيطانية. سأقودهم فى رحلة طويلة على الأقدام. أطول رحلة فى التاريخ. رجل بلا نوم يقود تابعيه فى رحلة طويلة.. طويلة وحزينة. من الجيزة بدأنا. وها نحن فى مطلع شارع الأزهر. كيف تأتى لك أن تمشى كل هذا بلا نوم ؟ وقفت أشرب كوبا من عصير القصب أسرع الرجل يتحدث فى التليفون. قلت أنه لا بد وقد تعب ويريد بديلا. تركت كوب

العصير فجأة. وخرجت مُسرعا. لمحته يجرى خلفى ملهوفا. قصّرت خطواتى حتى يلحقنى. الزحام يزداد. يتكاثف. أين كان كل هؤلاء الناس فى الأيام الخوالى. كيف عَمِيَت العين عنهم؟. الدنيا برد.. برد. لو معطف أو حتى جاكته. قال صوت : مولد الحسين كل سنة وأنتم طيبون. غبت وسط الزحام. تبعني بمشقة. ثلاثة أيام بلا نوم. حبّة «الفاليوم» فقدت مفعولها والقلق يحطم الأعصاب. لحظة ارتخاء واحدة. لحظة نوم. ترتخى جفونى ترتاح عيونى المرهقة التى تنز ألما لا يطاق.. أمشي. يمشى. أمشى.. يمشى. رأسك عار فهل تخطف عمامة أم طربوشا؟ اللبدة هى أنسب الأشياء. جلابيب وبِدَل وبلاطى. فساتين وجونلات وملايات لفّ. ناس. ناس. ناس. يزعقون فلمَ لا تزعق. يضحكون فلم لا تواجههم بالحقيقة المُرّة. رائحة العرق الشتوى خافته. لكنها دافئة. أنا أمشى. الرجل يمشى. أنا أمشى. فى هذا الشارع قال: لا بد أن تعود إلى العمل. أى عمل ؟. لم يكن لنا عمل سواه. لا تجهل المخاطر طبعا. لم أكن أجهلها يوما. أفكر ثم نتناقش. عند المناقشة جَبُنْت. لدينا قدرة على الكلام تحيل الباطل حقا، والحق باطلا. أمشي. يمشى. إلى أين؟. لا يهمنى ماذا يحدث بعد ذلك. سيعود لرئيسه متعبا مهدودا، ينفخ باكيا : حَطَّم أقدامى يا بيه.. دشدشها.. يا لها من نهاية مضحكة. إضحك عليها. لماذا لا تضحك. تخجل ؟ لا أحد يسمعك.. وسط كل هذا الضجيج: فلتضحك مرة. تبتسم. البسمة بلهاء. لا أحد يلاحظ شيئا. إضحك بصوت أعلى. ها. ها. ها. ها. برافو. قهقه. قهقه. لماذا ينظر إلىّ هذا الرجل: إسأله. مش معقول. ماذا حدث هل هو الانهيار الذى تنبأ به «حلمى»؟. انهيار ماذا ؟: «حلمى» كلب بولدوج ضخم وتافه. إنسان يبيع كل شىء بفخذى امرأة. سفخص. إسأله.

– يا سيد. يا مواطن.. لماذا تبتسم ؟. أنا أكلمك. نعم أنت. أنا أكلمك؟. لا .. إنتظر. قف. حلّفتك بالحسين.. سأقول لك سرا. هذا الرجل الذى يمشى ورائى مخبر.. تعال هنا يا ابن اللئيمة. قل لهم أنك مخبر ؟. قفوا يا عالم.. يا هوه.. يا مواطنين.. يا أهل الغورية والتربيعة والجمالية

والحسين.. قفوا.. اللى يحب الجدعان يصفق. كمان تصفيقة. هذا الرجل مخبر، وأنا أسأله أمامكم لماذا تمشى ورائى؟ أجب يا روح أمك.

واحد : هل أنت مخبر بجد ؟! آخر : تكلم. الرجل خائفا : إتركنى. إبعد عنى. هذا رجل مجنون.

آخر : إسكت يا ابن الكلب.. بطاقتك.

– ليس معى بطاقة..

– هو مخبر ألم أقل لكم ؟

واحد : لماذا تمشى وراءه ؟. آخر: مخدرات ؟. ثالث : دعارة ؟.

– لأ جاسوس.

– اسمعوا يا عالم.. يا هوه.. أنا جاسوس. يا ندل يا خادم الأنذال. خذوا هذه الجاكته. والكرافتة. والقميص والفانلة. هذه الندبة السوداء. وهذه. وهذه. أربع رصاصات أصابتنى فى بورسعيد سنة ١٩٥٦. إسألوا «ويليامز» ضابط المخابرات الإنجليزى. كم كيلو من لحمى نهشته كلابه.. إمسكه يا معلم قبل أن يهرب.

– «تعال هنا يا ابن الزانية. ماشى وراه ليه؟.

– «يا عالم مظلوم ليس لى به شأن دا راجل مجنون».

– سامع يا معلم .. أنا مجنون.. ثلاثة أيام بلا نوم أولاد الكلب..

– يا معلم لا تصدقه.. هذا رجل كافر، من اللى بيشتموا ربنا.. رافضى يعنى!

– وأنت مالك.. يعنى ربنا حارقك قوى.. ولا يعنى تلاكيك..

– بذمتك يا معلم.. واحد صاحبك، أخوك، حبيبك، أكلت معه عيش وملح . نمتوا سوى على البُرش، فى الندى والطل. فى المطر والحر. وعيّان. سل درجة تالتة اللهم إحفظنا ويشفى كل عيّان. فى صدره. هنا يا معلم. ثقب أربعة سنتى. قد الريال الفضة القديم. ومع ذلك يحبسوه. كفرت اللى

قلت حرام، عيب، ما يصحش. قلت لهم بالذوق بالإنسانية.. رجيتهم. سرحوا وراني ميت كلب مسعور، ده واحد منهم..

– عداك العيب يا أستاذ.. بطّلوا افترا بقى على العالم !

– يا معلم أنا غلبان.. أكل عيش.

– أبحث لك عن شغلة نظيفة.. أوسخها شغلة أشرف من شغلتك. سرّح نسوان. بيع مخدرات. لكن أذيّة الجدعان لأ..

– يا معلم.. دول كفرة.. دا رافضى وابن رافضى..

– برضه بيقول لى ربنا.. أنت هاتستغفلنى.. هاتسرح بى. طب ودينى وما أعبد ما أنا سايبك إلاّ بضرب المركوب. يا جدعان. يا رجاله. إقلع يا جدع انت وهوه اللامؤاخذة. اللى يحب ربنا يضرب. اللى يحب النبى يضرب. اللى يحب الحسين يضرب. كرامة لك يا سيدى يا حسين يا ميت مظلوم فى بلاد الغربة. كرامة للحسين. اضربوا. اضربوا المفتري ابن المفتري. بالمركوب يا سيد. إيدك لا. ما توسخهاش... بالمركوب.

ضربوا. ضربت. تزايد الزحام. فى قلبه رأيته. كانت قامته المحنية قد استقامت. يرى جيدا بلا نظارة. يحمل حذاءه القديم. يضرب بقوة كشاب عفي. قلت:

– يا عم «محمود».. يا عم «محمود يا مهدي».. أنا «عمر».. «عمر الدهشان»..

نظر إلىّ.. برقت عيناه بنظرة قوية:

– مش مهم.. إضرب.. اللى يحب «الحسين» يضرب. كرامة لك يا سيدى يا «حسين»، يا ميّت مظلوم فى بلاد الغربة.. اللى يحب الشعب يضرب.. اللى يحب مصر يضرب..

تدافعت موجات الزحام. كُتل كثيفة. كثيفة. كقاع نهر دافىء. فصلت بيننا. أين أنا؟ أين هو ؟ أين أى إنسان؟ بلا حذاء ونصفى الأعلى عار. أين برودة مقتبل الليل؟ وسط الزحام دافىء.. أجساد طرية وأخرى خشنة. زغاريد نسائية. أرداف وأثداء.. أذرع خشنة مفتولة.. كرامة لك يا

سيدى يا حسين يا ميت مظلوم فى بلاد الغربة. دفء.. دفء.. أريد أن أنام.. أيد كثيرة تربت على رأسى.. وجه زوجتى.. ابنتى تبتسم. تتسع بسمتها. رائحة عرق شتوى دافىء تملأ معطفى.. أخيرا سأنام...

وسط الزحام سأنام.

(١٩٧٠)

ضحكات من زمن القتل غيلة ...

« ..إلى ذكرى شهدى عطية الشافعى : المناضل الشيوعى الذى قتل غيلة فى معتقل أوردى أبو زعبل فى ١٥ يونيو ١٩٦٠.»

١ النبش فى جراح قديمة.. ولكن طرية

احتضنت قدها بين ذراعيّ.. ضغطتها بقسوة خائفة.. شممت فى ديمومة الاحتضان عطرها. استنشقته فى شهيق طويل كأول أنفاس الغريق. تطايرت فى نفس اللحظة فكرة دامعة كانت تطاردنى بإلحاح منذ أيام. فى الشرفة انعكست ألوان الشفق على وجهها. اختنقت الشمس هناك عند حد الأفق. ابتلعها النهر. ودعناها معا صامتين. أحاط ذراعى خصرها. دسست كفى فى شعرها الطويل. تذفت المشبك المعدني بعيدا، انسدل شلاله فأحاط ملامحها. صاحت محتجة. قبلتها قبلة طويلة.

قالت : تعلمت الشقاوة.

أدرت «الغرامفون». تسللت شهر زاد كورساكوف. جلست على «الشيزلونغ». أسندت رأسى إلى فخذها. فى خفوت الضوء امتصت نظراتها المشوقة ملامحى. انحنت. لثمت عينى. بهرنى عمق عينيها وصفاؤهما. غابت فى دسامة صدرها أكدار قديمة.

[فى تلك الظهيرة حكى عن حبيبته. كنا حفاة نضرب الفؤوس فى أرض رملية. جاء صوت خلفنا يقول: سنزرع منفانا خضرة. حكى عن عينيها فقال إنهما حنونتان كصدر الأم. اختنق صوته فى النهاية، كأنه يوشك على البكاء. كنت صغيراً لم أكابد مرة ضعف الرجال الكبار. خفق قلبي حزنا. ها أنت تلهو الآن فى جنة الحب. فأين ذهب؟. لو بقى لك من الإيمان بالخلود ذرة لقلت إنه يلهو الآن وسط جنات تجرى من تحتها الأنهار. ولكان ذلك عزاء القلب المحزون].

أشعلت سيجارة. قذفت بحذائها بعيدا.

[كذلك اليوم فى أتوبيس رأس البر. وكنا غريبين تماما. سألتها عما إذا كان التدخين يضايقها. ابتسمت. أخرجَت سيجارة من حقيبتها. خلعت منظارها الأسود].

تناولت السيجارة سألتنى عما فعلته فى غيبتها:

لا شيء. قرأت، ومزقت قصة كتبتها.

- أنت تمزق كثيرا.

- قرفان.

عدت بالبيرة والأكواب.

- لن أشرب.

باخ حماسى.

- ألا تستطيع أن تجلس معى صاحيا ؟.

- لا أتعمد هذا.

زامت. خرجتُ إلى شرفة العوامة. هبط الليل ثقيلا. محاقا كان القمر. وسوست ضحكة فى قارب يعبر النهر. استندت بمرفقيها إلى حافة الشرفة. تأملت وجهها فى الضوء المتسرب من الداخل.

- فى الليالى المحاقية يكثر الحب فى النهر.

لم ترد. قلت إن الظلام كالحزن يبعث على طلب العزاء. فى الأسبوع الذى ماتت فيه شقيقتها جاءت بسواد الحداد. بكت على صدرى. حكت عن شقيقتها طويلا. عندما مسحت دموعها بشفتى، ارتجفت شفتها السفلى. كان العزاء ليلتها ضربا من الجنون الكامل. بيد أن شيئا كان يدفعنا للفناء المشترك. عرفت ليلتها أن رأسى المثقل بحزين الذكريات هو صليبى الذى أحمله.

- هل تحبنى حقيقة ؟

- لا أدرى.

نفخت سيجارتها فى الهواء. دندنت لحناً كم دندنت به فوق لسان رأس البر. ضربت موجة عاصفة مقدمة اللسان. تفتت إلى رذاذ متطاير. ها هو صوتها حزين القرار. مشروخ البحة. أما شعرها فأسود غميق. تطاير مع نسيم الخريف فلمته بيدها. خضراء كعينيها كانت بلوزتها. انشقت عن مجرى نهدين متماسكين. أشم على البعد عبيرهما كما شممته أول مرة ليلة العزاء تلك.

[بدأت شفتاى جولتهما من وجنتيها. انحدرتا إلى رقبتها وصدرها. عندما وصلتا إلى النهد دارتا حول كل مساحة فيه. استقرتا فوق قمته. لحظتها فقدتا رقتهما العذبة. كان المريد قد تبتل فى محراب الإله ساعة. ساكنا كالصمت كان. هزه الوجد فجأة. مال نشوان كطفل أبهجه ظهور أسنانه. صرخت صرخة خفيفة. بين الألم والنشوة. كانت ليلة عزاء].

توقفتُ عن الدندنة:

- لماذا لا تتزوج ؟.

- أظن أننى كبرت.

ضحكت. استدارت إلىّ:

- بوسعى أن أشهد بكفاءتك.

تبدو لغزا مستعصيا على الفهم ككل شئ حولنا. هذا النهر المظلم كم

ابتلع من آمال يائسة.. ووسوسة الأصوات على سطحه تبعث على الحير
وأمس كان «سليم» يجلس على هذا المقعد الأسيوطى يحكى عن الخطر.

- ألم تفكر أبدا فى الزواج منى ؟.

نفيت. سألتْ بكلمات مدغمة عن السبب.

- لا يمكن أن أتزوج لغزا.
- ولكنك تعرفنى منذ سنوات.

[ذلك الصباح المشحون بالقلق كم مضى عليه. وكنا يومها غريبي.. التقيا فى أوتوبيس. وها هى أقرب ما تكون. لا تخجل أن تفعل أى شي.. أمامها. تفكر وتضحك، تخلع ملابسك، تمشى عاريا إن أردت].

- أعرف أن اسمك «ريرى»، وهذه معلومات وافية جدا !!

عادت إلى الدندنة.

- ... وربما كان اسما مستعارا. وهو على أى الأحوال اسم تدليل.

عادت من الحجرة الداخلية فى روب بنفسجي شفاف :

- هل نام أحد عندك ؟

دقيقة الملاحظة، وذكاؤها خطر :

- «سليم» ابن عمى. كان في إجازة.. وعاد اليوم إ.. «الإسماعيلية».
- والأحوال هناك..؟.
- كالعادة.. غارات واشتباكات وقتلى..

غابت عن المكان بفكرها لحظات..

- شىء مزعج..
- نعم.. ولكن لابد منه..

ثبّتت عينيها في عينى. قالت :

- أعرف فيما تفكر..

- يعجبنى ذكاؤك أحيانا..
- أنت تلوم نفسك لأنك تجلس معى.. في حين أنه يجب أن تكون هناك..
- ولكنه، أعنى ذكاؤك، يخونك في أحيان كثيرة.
- لا تنكر، أنا أحفظك، وهذا هو سبب كرهك لى..

.... [وكان يتحدث في الصحراء عن الحب ليلة، ووصف حبيبته فتغزّل فيها شعراً رقيقا، فاستعدته مبهوراً، وطالبته باطلاعى على رسائلها، فغضب، ولقننى درساً في احترام ذلك الجزء الخاص من حياتنا، وأثرت مشكلة : أيحق لمثلنا أن يحب. قال بل يجب أن نفعل. قلت : أفى حاجه نحن لمزيد من المشانق؟.. أقدامنا مثقلة بالقيود، وأفخاخ الطريق أكثر من أن تحصى. ضحك وقال: أنت ككل مراهق تحلم كثيراً. قلت: السجن يترصدنا وربما الموت.

سألنى : لماذا أنت سوداوي؟. وكان السوط الذى قتله يخرج من مدبغة مجهولة في تلك اللحظة.. فيا للمهزلة.].

احتست البيرة.. نست سابق رفضها..

- ضحيت بالكثير قبلاً.. ومن حقك أن تستريح..
- مجرد كلام!.

بمرح متكلّف قالت :

- يوما ستتحقق أحلامك.. وستأمن آنذاك تماما..
- سأوصى ورثتى بابلاغى النبأ في قرافة الغفير..

... [كبر العمر حقا، وإلا فأين رجفة الإحساس بالنشوة عند ذكر أحلام الزمان الذى مضى. قتلها التكرار.. كما قتله السوط، ولم يكن كمثله أحد في الطواف بالأحلام في كتيبات الليالى..

وفى اليوم التالى لمحتها في كازينو يطل على النهر.. حنيت رأسى

مُجيباً من بعيد. ابتسمت ابتسامة داعية. وحيدة كانت كنبتة بريّة جميلة، وتحدثنا عن الوحدة في العالم.

فقالت : أبشع شيء أن يكون حولك زحام لكنه بلا قلب. عذاب. قلت أن أبشع شيء هو أن تطاردك الوحدة في حقل ذرة كثيف في ليلة محاقية.. قالت: الاستسلام موقف ثورى أحيانا. قلت : أكره أن أدير ظهرى للحياة ولو فعلت. ابتسمت. قالت إنها درست الفلسفة ثلاثة أعوام فى الجامعة، ثم نسيتها فى شهرين قضتهما فى المطبخ تطهو المكرونة «بالبشامل». وتتفنن فى صنع «البيتزا». ضحكت بصوت عال. سمع النيل حديثنا الطويل فيا لنا من مستودع أحزان بلا قرار. وفى المساء ركبت المعدية عائدا إلى «عزبة البرج»، فتح «سليم» الباب. لعن جدى السابع عشر - وكان يكرهه دون كل أسرتنا - وقال:

- نام عمك الحاج منذ زمن، وإيقاظه فى هذه الساعة جريمة كفيلة بإعادتك إلى المعتقل لتتربى بما فيه الكفاية.

ضحكت نصف ضحكة. لم يكن فى القلب متسع لكوامل الضحكات].

- هل تندم لأنك عرفتني ؟

قذفت بالسيجارة إلى عمق النهر.

- أكره علامات الاستفهام.

- ولكنى لست نادمة.

- معرفتك على حقيقتك مشكلة، ولن أرهق نفسى بعد الآن بالمشاكل!

- أنت تخلق مشاكل وهمية.. وهذا رأى «سليم» أيضا.

[ماذا يفعل الآن وسط النيران والبارود والموت، وفى أى لحظة من الزمن يترصده قضاؤه].

- «سليم» يكره جدنا السابع عشر، وكنت قد عثرت بتاريخه فى

مخطوطة قديمة. تصدى غفر الله له للسلطان العثمانى سليم أيام الغزو، وأثار عليه «دمياط» كلها، غضب عليه السلطان، وشنقه على باب زويلة وصادر أمواله، ولولا هذا لكنا من كبار الأغنياء.

- أنت مشاكس كجدك السابع عشر، وأنا أحبك، وهذا يكفى.

[يبدو هذا كافيا على الأقل من وجهة نظرها، وهى مثلى تبحث عن عزاء، ولعل خيبة الآمال ترصدتها كما ترصدتنى. ذهب كل شيء بأبخس الاثمان: السجن والعذابِ والموت والمستقبل المهدر، وبالمرتب أثثنا هذه العوامة، واشترينا بدلا. ونحلم أحيانا بسيارة فهل هذا ثمن مجز لحياة الرجل الذى قتلته السياط ذات يوم؟. ولحظة الفناء المشترك لا يبدو شيئا مهما على الإطلاق. حتى مشهدهم وهم يحملونه إلى المشرحة، ممزق الجسد داميه، على وجهه لحظة قهر مات بها. وكان المأمور فضى الشارب، أزرق العينين، بيد أن أحمرار وجهه أصفر تماما].

- ولكن لا بد أن أعرف شيئا عنك !

- أنت تعرف كل شيء.

- كذب.

نهضت واقفة. قلت إن المدينة مظلمة وكئيبة فمتى يعود الضوء. وصوت «عم عبده» - بواب عوامتنا - يأتى مع هواء الليل. ذلك العجوز الغريب، حزين غناؤه. ضاحك وجهه. أدرت اللمبة إلى الداخل لأقلل الضوء المتسرب.

قلت :

- نبّه رجال الدفاع المدنى «عم عبده» أمس إلى الالتزام بقيود الإضاءة.

بدا أنها لم تسمع . بعد لحظة :

- تعرف. أحيانا أخجل من بعض ما أقوله فى فراشنا. بيد أننى أنسى خجلى فى المرة التالية.

تهدج صوتها مع الكلمات الأخيرة. قلت إن حزينات الليالى تتطلب العزاء. وسوست ضحكة عبر ظلام النهر..

. . . .

. . . .

فى صمت الظلام، أحاطت ذراعها العارية رأسي. قبلت أناملها قالت بصوت يقطر براحة عميقة:

- تذكرتك وأنا بالبحر.. وسألت نفسى عما تفعل.
- نعم.
- ولاحظ المحيطون بى أنى سأهمة فحاصرونى بالسؤال.
- مشكلة.
- تعللت بالحزن على أختى، واحتضنت أطفالها، فهاج ذلك أحزانى وبكيت.
- قلت أنها ماتت منتحرة.
- نعم من عوامة كتلك.. وتذكرت صديقك الذى حكيت عنه.
- «سليم» ؟
- لا الآخر.
- «لويس» ؟
- لا.. الذى قتل فى السجن..

أشعلت سيجارة فتناولتها منى.

- كثيرون ماتوا فى السجن، ومات الآخرون فى الزحام.

فى وهج السيجارة المشتعلة بدت صورتها فى المرآة. شعرها مبذ على الوسادة حولها.

[أعرف عمن تريد أن أتحدث. ولكن فلتطلب ذلك بنفسها].

- لا أذكر.. حكيت لك كثيرا.

- «شريف»..
- آه.. «شريف عطية».

كررت الاسم. قلت إنها تنقتق به فى لذة، فما السبب يا ترى؟. وكنت أحب اسمه دائما. كان شاربه غزيرا كشارب فلاح لم يغادر الحقل أبدا. لكنه كان رهيف القلب. ومن المؤسف أننى لا أعرف أين حبيبته فى هذا العالم الواسع الزحام. فمن يسمع مختزن الذكريات؟... ومن يهمه سواها حنين عاشق سجين ؟.

- أحك لى عنه.؟
- حكيت لك كل شىء ونحن فى «رأس البر».
- فى كل مرة تحكى.... تذكر جديدا.
- تهتمين به كثيرا.
- قتلوه ؟
- نعم.. ضرباً بالسياط.
- كان صغيرا ؟
- فى حدود الثلاثين.
- كلاب.
- نعم.. ولكن الزمن تغير..
- أحك لى عن هناك.

تسللت أنغام كورساكوف عبر الصالة. كان حفيف النسيم يداعب سطح النهر. كحة «عم عبده» تتصاعد من بعيد.

***

[قلقاً كان الصباح. شمس يوليو قائظة. جاءت جلستى بجوارها فى الأوتوبيس الضخم. فى منحنى حاد وهو يغادر بنا حدود المدينة، اهتزت. سندتها. اعتذرت. شكرت. لم يكن معى سوى حقيبة صغيرة بها بعض الملابس. مجموعة الكتب فى يدى. سألتنى مرة أن أسدل الستار

على النافذة. وأخرى أن أفتح زجاجها العلوى علها تجود بنسمة هواء. جسدها كان رشيقا ولينا. كدسامة النهر كان صدرها. سألتها عما إذا كان التدخين يزعجها. نفت بابتسامة. أخرجت علبة سجائرها، قالت: جنبتني الحرج، كنت أخشى أن أفعلها وحدي. استأذنت في تصفح الكتب. تركت لها. قالت بعد لحظة :

- أتدرس الفلسفة ؟.

- مجرد اهتمام.

- ولكنه لا يناسب يوليو ولا «رأس البر».

ابتسمت. لم أعلق].

٢ كل شيء ممنوع.. حتى حزين الغناء

[أغلق الشاويش «عبيد» باب الغرفة فى أول المساء. ارتميت على حشيتي مرهقا. كنت قد عزقت ثلاثة قراريط، وقلت أنها ستبذر غدا. استلقى بجوارى على فراشه. أشعل نصف سيجارة ناولنى إياها. أخذت نفسا طويلا وأعدتها إليه. قلت:

- تعبنا اليوم.. تحويل رمال صفراء إلى مزرعة يبدو مستحيلاً.

- ولكنه سيحدث.

بدت بسمته رقيقة. كانت جزءا من وجهه الطفولى المرح. وقلت: أنه يبدو وسيما، ترى بماذا تتغزل فيه حبيبته المجهولة. وهذا الزحام حول دورة المياه فى نهاية الغرفة يوحى بأن الزملاء يخططون للغد. أنوفنا تعطش للعطر فمتى تنتهى المهزلة من العالم؟. انتهت السيجارة. لم أكن قد أرتويت بعد. قلت :

- يذهلني تفاؤلك.

هز رأسه وتأمل سلك الكهرباء المتدلي من السقف. تحدث طويلا عن

الغد. هدهد كلامه الحانى رأسى المثقل. تذكرت جدى السابع عشر. قبل أن أنام تصاعد صوت من الغرفة المقابلة يغنى بصوت شجي. صعد من فوق حائط الدورة. صاح طالبا من المغنى أن يرفع صوته. مرّ سجان المساء فى الممر. صاح:

- نام أنت وهو.. عنبر ٣.. ممنوع الغناء.

قلت إننا نحلم كثيرا بالغد. تشتاق أنوفنا للعطر. وها هو كل شيء ممنوع، حتى حزين الغناء].

***

فى صف الشماسى الطويل تاهت نظرات عيونى. زحام البشر لاه وعابث كمياه البحر. ها هى العشة فأين الشمسية الخضراء ؟. تصاعد صوت من خلفى مناديا:

- «طارق». أستاذ «طارق».

كانت مبللة بماء البحر. فى مايوه مشجر بأوراق توت زاهية. جففت جسدها. نشرت شمس الأصيل دفئها علينا. قالت إنها تحب مياه الأصيل. يكون البحر دافئا وخاليا. قلت إن ذلك كله جميل. لكنى أكره الغروب. يتعسنى رحيل الشمس. ينقبض قلبى عندما ينقض الظلام على الحركة والحياة والوضوح.

- مشاعرك غريبة. الفلسفة مجرد رداء تلتف به. أظن أن الفلاسفة باردو العقول.

ضحكت قائلا :

- لا تبالغى. ليس كل قارىء لكتاب فى الفلسفة فيلسوفا.

- أظن أنك شاعر. ألم تكتب الشعر أبدا ؟!

ذلك النبش فى طرى الجراح، متى يكف ؟.

- أعمل بالصحافة. كان لى يوما صديق من أرق الشعراء.

- وأين ذهب ؟

- مات.
حانت منها التفاتة إلى وجهى. غام فى عينيها شىء. قالت:
- يا خسارة.. لعله كان عجوزا.
- نعم فى الثلاثين.
تحدثت عن الموت فضحكت لعمق سذاجتها. سألت : هل غدرت به حبيبة ؟ قلت : بل غدر بهما معا الموت. كانت رغبتى فى البوح تقتات باخضرار عينيها وذلك الحنين المرهف فى ملامحها. تحدثت يومها عن الصحراء طويلا. تلك السنوات المعذبة كيف مرت. وفى أى مستقر بالقلب والنفس ترقد الآن بقاياها، أليس من واجب الوفاء أن نزور يوما ضريحها. تتلو الصلوات وتدعو بالرحمة لسنوات العذاب.
- أنت منهم ؟.
- نعم.
- خمنت هذا من البداية.. عناوين ما كنت تحمله من كتب فضّاح..
(ثم بعد لحظة صمت) عرفت بعضكم أيام الجامعة.
- من ؟
- نسيت الأسماء. أذكر أن بعضهم غاب فى أواسط الشتاء. وغاب الباقى فى مقتبل الربيع.
ارتجف جسدها. كانت الشمس تغطس هناك عند حد الأفق.

***

فى ذلك المساء بكت. كنا لحظتها نمشى على اللسان شبه وحيدين. أمواج البحر تنطح الصخر فى جنون. تأملت سفينة هناك فى عمق البحر. حكيت عن انتظار السفن المجهولة. كان منفانا بلا شاطئ. مجرد مساحات مرعبة من الرمال والقيظ لذلك لم نفكر فى الهرب. وما أتعس ألا تجد مفرا سوى وادى التيه. ورغم هذا فقد حلمنا دائما بالسفائن المجهولة. تأتى محملة بالطعام وبالملابس وأطنان من السجائر. ترسو على

طئ المنفى. نمضى فى داخلها. نغنى : سالمة يا سلامة.. رحنا وجينا لسلامة. نلعب ونضحك. نطفىء أشواقنا للعطور. وتصفر. توت. توت. وتقلع عائدة إلى عالم الألوان.
- وكان صديقى الشاعر قد كتب مرة قصيدة كتلك.
تابعت عيناها حركة السفينة، وكانت الشمس تغرب خلفها تماما. قالت:
- .. ولم تأت طيبا ؟!.
- كلا.. وكان هذا قبل أن يقتل بأسبوع.
نطحت موجة صاخبة مقدمة اللسان. تلقاها صامدا. تصاعد رذاذها فأدرك وجهها. صعدت إلى حافة الكورنيش مستندة إلى كفى. جلست. أشعلت سيجارة.
- ... قلت إنها كانت ليلة جمعة؟!.
[نعم.. وكان الشاويش «عبيد» سجان المساء. فتح الغرفة وقال : الدنيا حر، جنهم، سأفتح لكم خلسة لكى تشموا الهواء. ولكن لا أريد ضجة. جلس على حافة الباب. حكى عن أولاده. قال إنه لم يرهم منذ خمسة شهور. دعا أن يرد الله غربتنا، كل واحد يروح لحاله، يشوف عياله. صاح «شريف»: ليس عندى أولاد يا شاويش «عبيد». قال: ترجع للعروسة إنشاء الله. صمت لحظة. كان وجهه الصعيدى جامداً. رققه تدهور العمر والصحة. دعا بعد لحظة : ربنا يسترها معكم. لكن لماذا لا تعيشون كبقية خلق الله فى حالكم، مالكم أنتم والحكومة ووجع الدماغ؟. قال شريف : والغلابة يا شاويشنا ؟!. حك الرجل قفاه ولم يرد. قال فجأة: عاوز اتعشى. جئناه بقليل من العسل وبقايا خبز. أكل وتجشأ. شارك شريف نصف سيجارته الأخير. غنى صوت من الغرفة المقابلة «أنا من دموعى أرتوت عزبة بزيها». قال:
- يا عم يا بتاع عنبر ٣ ممنوع الغناء. الضابط النوبتجى سيمر بعد شوية.

كنت أجلس خلف «شريف» مباشرة. قلت:

- لا تكن حنبليا يا عم «عبيد». ألا تحب الغناء ؟.

غابت عيناه عند الباب الحديدى المغلق فى آخر الممر. قال :

- فى بلدنا صَبِيت، إنما ولد. عندما يغنى تقف الناحية كلها على رجل واحدة.

تضاحك وحكى عن قريته. جاء زميلان من نواحى سوهاج. هبت نسمة هواء خفيفة. ذهبت لأشرب فوجدت الماء فى الدلو مثلجا على غير العادة. عندما عدت كان يتحدث عن قراريط ثلاثة يملكها فى البلد.

- أطلع على المعاش السنة القادمة إن أذن المولى. سأزرع الأرض.
- «شريف» باشمهندس فى الزراعة. يستطيع أن يفيدك.

فى تلك الليلة خطط له «شريف» المزرعة على علبة سجائر فارغة. هنا حظائر الدجاج. وبنية الحمام هنا.

سرح «عم عبيد» مع الحلم.

- وحوض السمك يا شاويشنا ؟!

ضحك بمرح خجول].

***

- هيه.. وماذا حدث بعد ذلك ؟

كان فراشنا لينا، ولكنى قلقت.

- رويته لك مرارا.
- «طارق» لا تكن سخيفا ؟
- أكره النبش فى طرى الجراح.
- ولكنى أحبك وأنت تروى عن صديقك الشاعر.
- قلت أنهم قتلوه.
- ضربا بالسياط.. أليس كذلك ؟
- نعم.
- كلاب.

- طبعا كلاب. ولكن تغير كل شىء.
- أكمل.
- حكيت لك فى ليلة «رأس البر» تلك كل شىء؟!
- وكنت حزينا.. وأحببت حزنك ليلتها.
- وبكيت.. فمسحت الدموع عن وجنتيك بكفى.
- فقبلت أناملك فى لحظة لم أدركها.
- وقبلت شفتيك فى عمق الليل. والبحر شاهدنا الوحيد.
- وعند الأفق سفينة كتلك التى حلم بها.

أحاطت عنقى بذراعها العارى.. كطفلة تأبى أن تنام قبل أن تسمع حدوته المساء.. بتوسل قالت :

- طارق.. أحبك.

***

[فى الصباح فتح الباب بضجة هائلة. فتحت عينى على أقدام غليظة تدق الأرض فى غطرسة، قلت : تفتيش. مددت يدى. أخفيت شفرة حلاقة ..كنت أضعها تحت رأسى. قال الضابط:

- كل واحد أمام فرشته. فتش يا عسكرى.

استيقظ الزملاء مكدودين. تثاءب واحد أو اثنان. وقف «شريف» بجوارى. همس :

- حملة عسكرية فى هذا الصباح المبكر.

قلت هامسا :

- هذا جزاء الذين يحلمون دون إذن.

وقف الضابط وقف عنترية. قلت لنفسى إنه دخل كلية البوليس بالواسطة. وها هو يحاول أن يطيل بوقفته المشدودة قامته، ليثبت أنه لم يلتحق بها زورا. يمارس علينا فحولته المكبوتة فى هذا المنفى. سيرى كثيرا ويسمع كثيرا سيعود لزوجته فى المساء. يروى لها قصة الحملة الشجاعة

التى قادها. تحولت مراقدنا إلى أشلاء ممزقة فى وسط الغرفة. حاول واحد أو اثنان إعادة تنظيم فراشهما. انتهى السجان من تفتيشى. ابتسمت. لم يعثر على شفرة الحلاقة. انتقل إلى «شريف». مر بيده على ملابسه. اصطدمتا بخرفشة ورق. أخرج ورقة كان يخفيها فى وسطه. تناولها الضابط.. اطبقت يد «شريف» على الاثنين محاولا انتزاع الورقة منهما. جذبه سجان ثان للخلف. طوقه بذراعيه. التففنا جميعا حولهما. قال الضابط وهو يفتح الورقة :

- منشور أم محضر اجتماع ؟

قرأ فيها قليلا، ثم قال :

- شعر ؟... عيناها ؟. وتحلم بالسفائن المجهولة؟!.

توترت شفتا «شريف». استمر ببسمة سُمّية هازلة:

- ولمن كتبت هذا ؟! لن تخرج من هنا، والشبان كالأرز بالخارج

زام أكثر من واحد محتجا، تصاعدت همهمات من هنا وهناك «لا داعى لكثرة الكلام». «حاسب على ألفاظك».

قال «شريف» ساخرا :

- أهنئك على انتصارك فى هذه المعركة، ولكن لا داعى للكلام خارج الموضوع.

هز الآخر رأسه قائلا :

- خمسة أيام حبس انفرادى على الأقل.

وهو خارج، قال :

- طالما دعوتم لشيوعية النساء، وستحيق دعوتكم بنسائكم.

اندفعت الاحتجاجات من كل جانب. صاح «شريف» :

- إخرس يا كلب.. يا حقير..

أطبق الصمت على المكان.. نظر الضابط إلينا نظرة متفرسة. أمر

غلاق الباب. لفنا صمت ثقيل و دقات الأحذية العسكرية تعكر صمت صباح.

***

قادوه إلى الفناء. صعدنا إلى نوافذ الغرفة المطلة عليه. كان مبتسما رغم ارتعاشة خفيفة كانت تعترى ساقيه. جاءت «العروسة» : صليب جلدى متجهم، مرعب الشكل ثبتوها فى الأرض. وضعوا رقبته فى تجويفها. مدوا ذراعيه على الجانبين. ثبّتوا الكفين. والقدمين وقف المأمور أمامه. اهتز شاربه الأصفر. إحمرت خدوده المنتفخة:

- تظن نفسك رجلا يا ابن القحبة؟!.

لم أر نظرته. لكن رأسه المحنى جاهد فى الارتفاع. رفض كلمات السباب فى إنفه. قال :

- أنا رجل غصبا عنك وعن أمثالك من الكلاب.

وبصق فى وجهه.

- الكرباج يا عسكرى.

جاء السوط. طويل. مجدول فى نهايته بسلك صلب. عقد طرفه عدةَ مرات صغيرة همس صوت بجوارى :

- عدد العقد مخالف للائحة.

ابتسمت حزينا. تهدل شعره الطويل على وجهه. كانت لحيته طويلة كثه - هبط السوط على ظهره. التف حول صدره. جزّ على أسنانه رافضا أن يئن. صاح المأمور:

- لن أتركك حتى تقول أنك امرأة .

صمت ولم يرد. تتالت الضربات وهو ساكن. شاقنى أن أرى ملامح وجهه. تهدل شاربه الريفى الكث. جزت أسنانه على شفته السفلى. تفصّد العرق غزيرا من كل ثنايا جسده. فكّ المأمور أزرار سترته العسكرية. لهث

بشدة. استند على عمود كهرباء فى الفناء. ألقى بالسوط للشاويش «عبيد». ضرب «عبيد» مرة ومرتين صاح :

- اضرب جامد يا سجان
- الارتفاع القانونى نصف متر يا أفندم..

هجم عليه كوحش. خطف منه السوط. ضربه به :

- امش يا بن الشرموطه أمش.

تكور الشاويش «عبيد» بعيدا، واستمر هو يضرب..

- لن أدعك قبل أن تقول أنك امرأة، أسْمِع كل زملائك.. لا بد أن يسمع كل هؤلاء.

أشار إلى أشباحنا الواقفة خلف النوافذ. كان زملاؤنا فى كل الغرف قد صعدوا إلى نوافذ عنابرهم. تصاعد صوت فى غرفة بعيدة:

- دعوه يا كلاب.

من الذى بدأ إذ ذاك ينشد نشيدنا. لا أذكر. ماذا كانت كلمات النشيد تقول؟. تاهت من الذاكرة، كما تاه العذاب نفسه. هل سمع فى خدر العذاب أصواتنا المنشدة؟! ذلك الغضب من أى أنحاء القلب تفجر. والسوط يهبط ويصعد. كان الرجل قد توحش حقيقة. برقت عيناه الزرقاوان. امتدت أذناه، بدا لى لحظتها كذئب برى من ذئاب قريتنا. لم ينتبه حتى إلى الزبَد الذى أحاط بشفتيه. وهو يكرر بإيقاع كأنما يضبط المسافة بين كل جلده.

- قل.. قل.. قل.. قل..

حفر السوط أخاديد دم أحمر عميقة فى كل أنحاء جسده. تمزقت ملابس النصف الأسفل منه. أصبح عاريا تماما كوليد فى سنوات مجاعة. تهتك جسده إلى مزق صغيرة. صوت الكرباج وهو يئز فى الهواء، مرعب كالخوف.. ونحن ننشد.. ننشد.

انكفأ رأسه..

مات! ..

***

اصطدمت الموجة باللسان. طالنى رذاذها. غاب بصرى السارح خلف السفينة التائهة عند حد الأفق. تعلقت دمعة متألقة برموشها الطويلة. مددت كفى. مسحت عينيها. قلت:

- لم أشهد دموع حبيبته عليه.

رفعت وجهها إلى أعلى. واجهنى مع خفوت آخر ضوء فى شمس الغروب وجهها المعذب. لحظتها بحث القلب عن العزاء. ربت خدها. كم تحرق التذكارات الحزينة من لحظات الفرح. فى قرار القلب عكارة هيهات ان تنتهى. احتضنتها. غابت شفتى فى دسامة شفتيها. كان البحر شاهدنا الوحيد.

٣
ترمل حمامة مكسورة الجناح

عند الظهر تحدث واحد بجوارى عن قضاء الله كيف يرد؟. وشغلت بالبحث فى الموضوع. تحدث آخر عن الأمانة التى عرضت على السماوات والجبال والأرض فأبيْن أن يحملنها وحملها الإنسان فكان ظلوما جهولا. جهاز «التيكرز» يدق فى الممر دقاته الرتيبة المزعجة. نظرت إلى التليفون، وقلت لعله يحمل صوتها. فى أى مكان من هذا العالم الخانق الزحام تختفى؟. رمى واحد بشريط طويل من الأخبار أمامى. قرأته بسرعة. عامت أمعاء. قتل. قتل. قتل. أشارت زميلتى إلى خبر فى يدها. قالت:

- أذاعت اليونيتدبرس برقية عن جريمة القتل التى حدثت أمس فى أبنوب. سبعة قتلهم مجهول كان يختفى بين أعواد الذرة.

فى بعض الأحيان تعذبنى الحاجة إلى «ريرى». لو تتحدث الآن. ربما خف عن القلب بعض أحزانه. كان «عم عبده» - بواب عوامتنا - يجلس بجوار السلم. يدخن سيجارة هزيلة كجسده النحيل. قلت إنه صامت كالنهر

ولكن ما أبشع غضبه. هش أطفالا صغارا خاف عليهم خطر الماء. كان المساء خانقا برطوبة لزجة. استلقيت على مقعدى فى الشرفة. هدهد الموج فناطيس العوامة. هدهدنى معها. مسح بعض إرهاق اليوم. جاء صوت «عم عبده» مغنيا بصوت حزين. أسلمته إذنى فى إعياء الفراغ. صب فيها أحزان صوته العجوز. تسللت ضحكات أطفال من الدور الأعلى فوقى. قلت إن الظلام الخانق يذبل الضحكات، لذلك تبدو قصيرة العمر. ويومها بكيت.

[كنت أصغرهم عمرا وأقربهم دمعا. حملوا جثته إلى المشرحة هناك خلف عنبر ٧. رأوه. من النوافذ. صاح واحد : قتلوه.. الكلاب. اكفهرّ وجه المأمور خوفا. تعالت هتافاتنا. جاء الضابط مذعورا. فتح الباب. رجانا بصوت مرتعش أن نهدأ. زميلكم بخيرولم يحدث له شيء. كذاب وحقير وكلب كأسيادك. حملتموه إلى المشرحة. رفعنا دلاء الماء والمباول وأوانى الطعام. حمل واحد يد المكنسة. تصاعد مد الغضب. كنا حزانى إلى درجة الجنون. لم يكن موته حتى تلك اللحظة قد عنى شيئا يمكن أن يفهم. تراجع الرجل وأغلق الباب. خلفه].

سمعت خطوات ثقيلة على ممشى العوامة. انشق الظلام عن شبحه الضئيل. كان التأمل الطويل فى رمال الصحراء قد ضبب المرئيات أمامى. وأنا غارق في مقعدي متوحد مع الظلام. اختفى لمعان سطح النهر مع لون ممشى العوامة لذلك لم أدر من أيهما جاء. بدا لى عجوزا فانيا. نحيف الجسم كمومياء أسطورية.

دعوته للجلوس. تمنع . قلت :

– كان غناؤك شجيا يا «عم عبده» فلماذا توقفت عن الغناء ؟

قال إن حزين الغناء يوجع القلب. رجل عجوز أنا. قلبى ضعيف. أخاف أن أوجعه. ضحكت من كلماته. ناولته سيجارة. قلت أننا جميعا موجوعون. قال :

– قلبك أخضر لم يزل (ثم بعد لحظة صمت) بعض الناس يسألون عنك؟

– من ؟.

– رجال صفراويون.

– وعم يتساءلون ؟.

– كل شيء: الآتون والذاهبون. الكلام والصمت. النساء والرجال وأيضا الضحكات.

– وكيف أجبت ؟.

– دعوت الله أن يسهّل لعبيده واعتذرت بتقدم العمر وضعف السمع.

جلس على حافة الشرفة. قلت إن جسده الضئيل يمكن أن يقع فى الماء إذا دفعته هبة نسيم. لكنه بدا راسخا فى جلسته.

– لماذا يسألون عنك ؟.

– حساب قديم.

تأملت ملامحه المتغضنة. كانت عيناه واسعتين حادتين رغم تهدل الجفون.

– أنت عجوز جدا يا «عم عبده».

ضحك ضحكة طويلة أكثر مما تحتمل أنفاسه. قال :

– ولدت أيام هوجة «عرابى باشا».

ما امتع أن نبدد سأم الليلة... بذكريات محنطة.

– قابلته ؟

– لا .. نفوه وراء البحر.. شفته مرة فى «الحسين». كان طويلا وضخما، ولا أبو زيد فى عز شبابه. ولكنى قابلت «سعد باشا»..

ما أسخف أن يكذب رجل عجوز

– كان فى أواخر أيامه.. جاء إلى«مسجد وصيف» مريضا مرّ وابور

البحر الذى ركبه بيلدنا. نحن فىّ الأصل من «القرشية»، نواحى طنطا. انتظرنا الوابور على شط الريّاح. لما ظهر خوّضت فى الريّاح بهدومى. كانت «زفير» جديدة ومقام السيد البدوى. الخلق كلهم رموا أنفسهم فى الريّاح. كنت أول واحد وصل. أطل علىّ المرحوم «ويصاواصف» قال : أبعد يا ابنى. تعلقت بحبال المركب. قال : يا ابنى تغرق. قلت : لا بد أقابل الباشا. قال : الباشا مريض ولا يقدر أن يقابل أيها واحد. أصررت. مدوّا حبالا. صعدت. كانت هدومى مبلولة. عصروها لى. أدخلونى عليه. كان راقدا على سريره بجلابية بيضاء مقلمة وطاقية. رميت السلام. رفع يده إلى وجهه وقال : وعليكم السلام.. اسمك أيه يا بنى؟. قلت : «عبده القرشى». قال : اقعد يا «عبده». قلت : هدومى مبلولة وأنت عيان. شد حيلك يا باشا. قال : شدوا حيلكم أنتم. أنا خلاص. رغرغت عيناى بالدموع. قلت : القلب والعبد والرب راضون عليك يا باشا».

. . . .

فتحت عينى على ضجة فى الغرفة. كان سليم يخلع حذاء العسكرى الضخم. الحر شديد. غاب فى الحمام. حاول فتح ضلفة الدولاب الوسطى. استعصت عليه. قلت :

– استبدلت «ريرى» دولابها. هدومك فى الضلفة الأخيرة... مع الاعتذار طبعا.

لبس بنطلون البيجاما. سأل عنها. رددت بتمتمة :

– المهم كيف أحوالك ؟.

– اشتركت فى عملية عبور ناجحة هذا الأسبوع.

بحماس مزيف قلت :

– عال.. أقبل دعوتى لسهرة نحتفل فيها بهذا العمل العظيم..

– تشكر، سأقوم بجولة فى المدينة عصرا.. معى رسائل وطلبات

بعض الزملاء. وقد أسافر البلد بالليل أوحشنى عمك الحاج وخالتك حاجة...

أخرج من الثلاجة بعض الطعام. جلس يأكل على منضدة صغيرة فى مواجهة الفراش.

– لم تكتب شيئا منذ وقت طويل.

– بعض القرف.

[وفى الصباح كان جهاز التيكرز يدق دقاته الآلية فى الممر. خطفت شريطا. كان عن جريمة قتل فى أورجواى. قال الخبر إن الفاعل مجهول. رغم أن الجريمة تمت فى وضح النهار وأمام المحكمة. فى تلك اللحظة قال صوت خلفى : هذا لم يعد جرنالا. أسبوع ولا ورق تواليت بالدورة. سحبت مترين من الجهاز. قلت : لدينا مصنع جاهز. ضحكنا بصوت عال].

مصمص عظام الدجاجة. قال :

– هذا بطر .. صحفى مرموق ومرتب ضخم وحبيبة معطاء .. ماذا تريد؟!

– الحال من بعضه.. كيف أحوالكم هناك ؟

– قلت إنه عال، وأصحابك السوفييت شدوا حيلهم على الآخر.

– أصحابى ؟!

– لا تزعل يا سيدى. أصحابنا جميعا. على عيننا وعلى رأسنا. يعنى غلطنا فى البخارى. رأسك أبوسها.

ضحك وأردف.

– أنت مريض بالحساسية. أؤكد أن الحالة عال جدا.

– هكذا قلت فى تلك الأيام..

أشعل سيجارته. تمدد على الشيزلونج. قال :

- لا.. تغير الوضع حقا.. لا ينكر الحقيقة إلا أعمى.. والشك مر مدمر..

- ألوف الأرواح ليست لعبة.

نفخ بضيق :

- نعم، هى ليست كذلك، طارت نصف دفعتى فى نكتة. شبان كالورد. لن نظل نبكى على ما حدث طول العمر. وسنخرب بيوتهم قريبا.

- ألا تخاف الموت ؟

صمت طويلا. قال إنه يخاف أحيانا. ولكن الأمر يختلف.

- تعرف.. المسألة بسيطة، عندما تمر على حقل ذرة كثيف فى ليلة مظلمة فإن حفيف النسيم سوف يخيفك. ربما يكون هناك من يترصدك. وإذا قتلت ستروح هدراً. إما إذا كانت معك بندقية فلن تشعر بالخوف أبدا.

هززت رأسى. وكان قد راح فى صمت طويل. قلت إن علىّ أن أسأل محررنا الجنائى عن عدد الجرائم المقيدة ضد مجهول. وخطر لى أن عددها بما لا يقاس . سأل :

- والأحوال عندك ؟.

- لا شىء.. أصحابك يتلصصون علىّ.

قال باهتمام مفاجىء :

- كيف ؟

- سئل «عم عبده» بواب عوامتنا. واختفى فى الشهر الماضى بعض الزملاء.

- ربما كانت مجرد إجراءات عادية. هل تفعل شيئا.

- أصطاد الذباب وأحصى الجرائم المقيدة ضدّ مجهول.

- الحيطة واجبة.. حولك رجال غامضون.

- أين هم ؟.

- لا تتخابث.. أقصد نساء غامضات !.

***

جلست أمامى فى الشرفة. بدأ ظلام النهر كغابة من الأذرة الكثيفة. بلا سنابل كانت. ومن بعيد تتصاعد كحة «عم عبده» فتؤنس وحدتى، قالت:

- لا تبدو فى أحسن أحوالك. ونظرتك لا تعجبنى.

هززت رأسى. قلت إن الرصاص ينطلق من الظلام. والفاعل مجهول. تصرخ الضحية. يصيح صوت من بعيد. «جايلك.. جايلك يا واد» ولكن القاتل يختفى إلى الأبد، وتفتح شراك الطريق أفواهها الفاغرة كى تقتنص صاحب الصوت البعيد. تحدثت عن مسرحية قالت إنها شاهدتها فى التليفزيون فسألتها عن التفاصيل باهتمام مزيف. أخذت تروى بيد أننى لم أسمع شيئا. تعلقت عيناى بشفتيها. وأدهشنى أنها تنفرج بلا صوت. ابتسمت ببلاهة. قالت فجأة:

- أنت لا تسمعنى.

- كنت أفكر فى أنك لم تسألينى عن «شريف».

ابتسمت وقالت :

- ربما سأسأل بعد لحظة.

قلت بنبرة خاصة:

- ألا ترين اهتمامك به غريبا ؟!.

- يعنى.. أحب كل ما يتعلق بك.

- أحيانا أفكر فى أنك قد تكونين عرفته يوما ما.

- لا .. لم يحدث.

- كان طالباً فى الجامعة فى نفس الفترة التى كنت طالبة بها.

- لم أره.
- وكانت له حبيبة مجهولة... فهل هى أنت ؟.
ضحكت. قالت :
- شكوكك تضحكنى.
- لماذا تحيطين نفسك بالغموض ؟.
- أخذت أدق مشاعرى فلا تكن طمّاعا.
نفخت بضيق:
- مع أناس مثلنا فإن الغموض يضرك.
- لا أفهم.
- بعضهم يسأل عنى وينقّب ورائى.
شعرت بعينيها ثابتتين فى مواجهتى. فيهما حزن صامت متوسل. اعتذرت بكلمات سريعة. جاءت كحة «عم عبده» من بعد قليل. مرت سفينة صغيرة أمامنا مباشرة. قال صوت داخلها:
- السلام عليكم.
رددنا السلام فى عجب. قال :
- إعطنى سيجارة. الله يكرمك.
قذفت له ببقايا العلبة. أخذ يجدف بقوة حتى مضى. قالت:
- «سليم» سافر ؟.
- نعم.. للبلد.. عنده راحة ٧٢ ساعة.
- أكرموه هذه المرة.
- قام بعبور. سأحتفل به فى «نوتر أمور» غدا، أتأتين ؟.
- غدا سنوية أختى.
- مر عام بهذه السرعة.
- تقريبا.

قامت. أدارت الراديو. تسللت موسيقى هادئة. بدأ الجو عكرا رغم محاولات الإضحاك. شربت كثيرا دخّنت طويلاً. عادت بروب أخضر. اطلقت شعرها الطويل. قهقهت بصوت عال. قلت :
- أنتِ بخير ؟.
- نعم.. ولكنى حزينة.
- خيراً..
- أختى.. تعرف.. تعذبت طويلا. كانت قد تزوجت حبيبها بعد قصة غرام طويلة. تنقلت معه فى كل البلاد. كان تاجراً ورحّالا وفارساً. وسيما أصفر الشعر. أزرق العينين. كان لها إبناً ولأولادها أبا. هل رأيتهم. هذه صورة لهم معى.
أخرجت الصورة من حقيبتها. كانت لطفلين جميلين. تأملت طفولتهما البرئية فى عناية.
- جميلان. البنت تشبهك كثيرا.
- أمهما توأمى. الله يرحمها.. ماتت معذبة.. بعد سنوات ثملت فيها بالسعادة.. لكن لا شىء يدوم.. كله يتكشف عن مرار..
- . . . . . .
- تصور أنها بعد كل هذا الحب..اكتشفت أن زوجها قاتل محترف. مهرب مخدرات وقوّاد وقاتل. جاء ليلة مذعوراً ملطخ الثياب بالدم. تصاعدت صرخات النساء الجنائزية فى منزل مجاور. دخل الحمام، خلع ملابسه. استحم. أشعل النيران فى الملابس. ارتدى أخرى نظيفة. تعطر بالياسمين. ضحك وقال: لها قتلته. أنا أستاذ فى التصويب. طلقة واحدة فى منتصف البطن وينتهى كل شىء. ويستر الذرة الباقى. وتمدد فى الفراش، ودعاها إليه.
- يا لها من مفاجأة.
ضحكت ضحكة طويلة عميقة :

- مذهلة.. أليس كذلك ؟
- يمكن أن تحدث فى فيلم من إخراج حسن الأمام؟.
- أو تنشر فى جريدة رخيصة فلا تؤثر فيك، بيد أنها حدثت.
تلوت شفتاها اشمئزازا وقرفا. قلت :
- وكيف واجهت الموقف ؟
واصلت الحديث، كأنها لم تسمع شيئاً
- كانت قليلة الكلام.. فقط امتلأ قلبها بالندوب. أصبحت مشاركته الفراش عبئا ثقيلا. ألم تجرب مرة أن تشارك إنسانا تحتقره الفراش. رائحة نتنة تنبعث من عرقه. كالدم المعقود. أنفاسه بخراء كأنه يأكل جيفة. يده التى تتحسس ظهرها سكينية الملمس. فراشها دموى لزج. وفى عمق لحظات الحب كانت تصرخ مرتعبة وتقوم عارية من الفراش تجرى فى أنحاء الشقة. تحطمت أعصابها.
- هيه !
- نقلوها إلى مصح للأعصاب. هناك قضت فترة. وعندما تصورنا أنها شفيت تماما أخرجناها. عاشت سنوات غريبة الأطوار، تسافر وحدها إلى المصايف والمشاتى. وأخيرا ألقت بنفسها إلى عمق النهر من شرفة عوامة كتلك.
ضحكت ضحكات طويلة.. طويلة.. قالت :
- وكانت جميلة كزهرة. شعرها أسود، وعيناها خضراوان.. رقيقة.. وفى المأتم.. بكت أمى وناحت قائلة «ياطير مقصوص الريش، ومكسور الجناح»..
ثقل رأسى فجأة. قلت إننى سأضيف هذه الجريمة إلى الإحصائية التى سيقدمها لى محررنا الجنائى عن الجرائم المقيدة ضد مجهول. سألتها.
- قيدوا الحادثتين ضد مجهول واحد!
- الرجل الذى قتله زوجها. طبعا.

سألتْ.. فجأة
- ماذا كان اسمه ذلك «المأمور» الذى حدثتني عنه؟
- آه.. حدثتك عن العديدين منهم.
- الذى قتل «شريف عطية»؟!.
- آه.. عبد اللطيف.. «عبد اللطيف وجدى»..
غنت فجأة طُبَياك يا جرح ماتوا وأنت لسه حى». قالت :
- هذه أغنية «عم عبُده» المفضلة .. لم تسألنى عن اسم اختى.
- وماذا يهم ؟
- يعنى اسمها «رجاء».. أليس اسما جميلا !

٤ الكفـــارات

فى «نوتر آمور»، حكى «سليم» طويلا عن «عزبة البرج»، والحاج والحاجة والشوارع والناس. استمعت بنصف أذن. رافعاً كأسي :
- صحة العملية الناجحة التى قمت بها .
- صحتك.
ضحكت. تساءلتُ عن ذلك المجهول متى يأتى فيحل كل المعميات. يستريح القلب الذى أضناه البحث عنه. فى الصباح قال محررنا الجنائى: كل الجرائم الكبرى مقيدة ضد مجهول، وفى توافه السرقات يضبط الجانى فقط.. وتأمل هذا الرجل العائد من بطن الخطر. يبدو نضرا كأن قضاء لا يجرى فى إثره.
- لماذا لم تأت «ريرى»؟!.
- اليوم سنوية أختها.
بمزاح :

- البقية فى حياتك.

لم أرد... بعد لحظة قلت :

- سألتُ كثيرا عن برنامج الاحتفال ودققت فى التفاصيل حتى ظننت أنها لابد آتية..

[وكانت حزينة المرح. طلبت أن نشرب كأسا فى صحة اختها... لأنها كانت حمامة مقصوصة الريش، مكسورة الجناح].

- صحتها.

- وصحتنا... واجهتها بشكوكك لعنة الله عليك فآلمتها أيها الوغد. ومع هذا فقد تمنت لك كل خير. وقالت لى أن أنصحك بألا تعبر حقول الذرة بغير سلاح، وإذا مت فأحذر أن تقتل غيلة.

- كلام طريف.. تركت الفلسفة آثاراً.

- والحال فى البلد ؟

- عال.. حدثت غارة قرب «دمياط» وقتل سبعة أو ثمانية.

- وعمنا الحاج ؟.

ضحك. قال

- الفلسفة وباء ينتشر إلى العزب والكفور. طلعت فى دماغ عمك الحاج. اشترى بندقية نصف عمر أخذ يلمعها. قلت له : ولكنها بدون ترخيص. نادى الحاجة. أمرها أن تذبح دجاجة : استمر يلمع فى البندقية ولا كأنى هنا.

جاء العشاء. صعد بعض الراقصين إلى البيست.

- قلت له يابا الحاج لا تعرض نفسك للمسئولية. صاح : أخرس أنت. لن أذبح كالفرخة. ستكون أول رصاصة من نصيب السائل عن الترخيص.

تناول فخذ دجاجة وقال ضاحكا :

- قلت فى سرى إنه سيخرب بيتنا كما فعل جدنا السابع عشر .

شربت بعض النبيذ. قلت إنه أحمر كالدم. وكانت أمس غريبة. ضحكت كثيرا وشربت كثيرا. تحدثت عن الحزن وسألت عن الكفارات ما هى. قلت إطعام مسكين وعتق رقبة. ونقنقت باسمى.

قالت : أتذكر أول مرة ؟. كانت على هذا الفراش. ليلتها طوقت شفتاى بنهدها. استقرتا فوق قمته. فقدتا رقتهما العذبة. كان المريد قد تبتل فى محراب الإله ساعة. ساكنا كالصمت كان. هزة الوجد فجأة. مال نشوان كطفل أبهجه ظهور أسنانه. وصرخت صرخة خفيفة بين الألم والنشوة. قالت : ليلتها كنت طفلى-الصغير الشقى..لكن العذاب ترصد سعادتى.. إذا كانت أختى قد انتحرت فى نفس الليلة وربما فى نفس اللحظة.

سرح بصرى فى شعر أسود طويل يتدلى من مقعد قريب. نازعتنى نفسى أن أربت عليه. رفعت عينى. انغرستا فى عينين تتفرسان فى. للحظة بدا كل شىء غريبا ومضحكاً. عيناه الزرقاوان. شاربه الفضى. زحف الصلع قليلا إلى رأسه. لكنه هو.. هو نفسه. ضبطتنى عيناه فى حالة تلبس. أحنيت رأسى بقوة العادة. ذلك الزمن. خمس سنوات طويلة. السياط والسباب والعمل الشاق والمنفى والموت ... هى هذا الرجل. قمت برغبة حقيقية فى المواجهة. قدمته لسليم:

- العقيد «عبد اللطيف وجدى». النقيب «سليم» ابن عمى.

ضحك قائلا :

- «العميد».. هذه زوجتى «رجاء». الأستاذ «طارق سعيد» الصحفى المعروف. تقرأين له طبعا.

كانت هى نفسها. شعرها الأسود الطويل. عيناها الخضراوان. لم يختلج وجهها بشىء. كأنها تدربت على الموقف طوال أعوام. قال محدثا إياها:

- الأستاذ «طارق» شاب وطنى، لكنه مشاكس. شرفنا بعض الوقت فى معتقل الواحات.

ها هو العذاب يُختصر فى كلمتين. أحنت رأسها بجلال. ظل

«سليم» ينظر إليها مذهولاً مبهوتا. استمر هو

- حسبتك جاداً كما توحي كتاباتك.. تناولا معنا كأسا.

جلست بدافع غير واع. قال :

- هذه فرصة سعيدة. ألحت «رجاء» أن نتعشى هنا الليلة. ولولا هذا ما رأيناك.

- فرصة طيبة يا مدام.

- مرسى

تفجرت فى الصمت كلمات قالتها أمس «اختى. كان وسيما أصفر الشعر أزرق العينين». «البنت تشبهك كثيرا ؟!. أمها توأمى». «جاء ليلتها مذعورا. ملطخ الثياب بالدم» «ماذا كان اسمه ذلك المأمور ؟. عبد اللطيف.. عبد اللطيف وجدى». لم تسألنى عن اسم اختى. اسمها «رجاء» أليس إسما جميلا».

عندما عدنا إلى مائدتنا. قال «سليم» :

- غريبة .. هل كانت تنتقم منه ؟.

- ربما.. ولكنها سألتنى أمس عن الكفارات

وهما منصرفان، حنى رأسه نحونا. بعد لحظات جاء النادل. انحنى قدم لى صينية أنيقة. قـال :

- تركتْ لك السيدة هذا.

«مفاتيح العوامة. ودولاب الملابس»

٥ الضحكـــات

كان الهواء عاصفا. البحر يضرب اللسان بقسوة. أمواجه عالية، تأتى من ظلام بعيد فى عمق وادى التيه. فى نهاية اللسان رأيته جالسا بقامته القصيرة، يغنى.

«يا ليل... يا ليل... وأنا ما أعرفش أكذب.

والضفدعة شايله المركب

وأبو قصاده ريسها

والقط الأعمش حارسها

يا ليل ... يا ليل.. وأنا ما أعرفش أكذب».

صرخت : يا «عم عبده»، سيقذفك الهواء فى البحر

استمر يضحك.. ويضحك.. ويضحك

ضربت الموجة اللسانَ بقسوة فتفتت إلى رذاذ صغير. قلت : انزل يا «عم عبده».. انزل .. ستقع.

فقهقه ضاحكا :

- أنت شاب خرع.. رميت نفسى فى الريّاح وقابلت «سعد باشا».

- لكن هذا ليس ريّاحا.. إنه البحر.

ضحك .. ضحك

- وماله، إنشا الله يكون المحيط.. قلت له : شد حيلك يا باشا. قال : شدوا حيلكوا أنتوا أنا خلاص..

- أنت عجوز مخرف

- رغرغت عيناى بالدموع. قال : خليك شديد يا عبده.. واتشكر للقرشية كلهم. قل لهم واحد.. واحد : سعد ممنون لكم كثير

. . . .

اهتز اللسان. تصاعد صوت إيقاع خطوات. فتحت عينى. وجدت شبحه القصير أمامى يسألنى :

- هل ناديتنى يا أستاذ ؟

وجدتنى نائما على شيزلونج فى شرفة العوامة

- أجلس يا «عم عبده»

صعد على حافة شرفة العوامة، جلس. قلت :

- أحك يا عم عبده.. أحك..
ورغم الظلام فقد لمعت فى وجهه المغضوضن عينان قويتان.

(١٩٧٠)

باقــــة ورد علــى الضـــــريح

« .. لمـــاذا تلومهـا وحدهـا .. وكـل شـئ أصبح تاريخـاً ..»

دق جرس التليفون طويلا. بدَّد السكون فى ضجة مفاجئة. ارتعدتْ. كنت سرحانا تماما. استعدت بصري الذى كان يشتبك مع قضبان القطار فى حوار صامت وأزيز المروحة مرهق كأنما تدور فى داخل رأسى. قالت «سناء»:
- لابد أن أراك.. عندى خبر سيء.
صوتها مقطب ومختنق. وإنهاك الليلة السابقة لم يفارق الجسد..
- كنا معا أمس.. ولم تكن هناك بوادر سوء.
«هل هى حيلة أخرى لكى تجرك إلى الفراش؟.. أما تكتفى».
- مسألة هامة.
اهتز المَمْشى الموصل للباخرة.. استقبلنى الجرسون ببسمة عارفة. والمياه ساكنة تحت شمس شتوية. رأيت ظهرها فى فستان ضيق نضر الحمرة. وعلى المقعد كان البالطو الجلدى الأنيق. امتص النهر نظراتها فى استغراق تام.

دخَنت بشراهة وقلق. جاءت القهوة وعصير البرتقال كالعادة. بدت
الهالات القاتمة تحت عينيها واضحة. وفشلت بشرتها السمراء فى إخفائها.

- ذهبتُ للطبيب. وقال اننى حامل فى شهرين..

- ههْ !

ندَّت الصرخة منى بشكل مفاجئ.. استدرت أرقب الجو حولى. عدد قليل متناثر فى القاعة أغلبه من العشاق مثلنا. لم يتخلص صوتى من حدته كلها:

- كيف لم تدركى ذلك قبل الآن ؟.

قرضت إبهامها دون وعى :

- ظننت الأمر تأخير عادى.

دارت رأسى دورة حادة. جاء كأس البراندي سريعا. لابد من مواجهة المفاجآت بطريقة تضمن ألاّ تقتلنا. وأى ليلة تلك التى صنعت هذه المشكلة المعقدة؟. وكيف ستسير الأمور؟. كانت البداية تماس غير مقصود فى ممر المكتبة. نظرت إليك لحظتها نظرة فيها عبث لاثم. واعتذرْت. أحمرت أذنيك. وستضطر إلى الزعم بأنها وضعت وليداً ابن سبعة شهور. وهكذا تتوج أولى مغامراتك بفضيحة من النوع الذى يثير لعاب صحافة الإثارة والجنس..

قالت بنرفزة :

- أليس لديك حل ؟.

بدت بغيضة جدا. لو تثقب الباخرة الآن لغرقت وكان ذلك أفضل الحلول. لم تكن كذلك ليلة أمس.. بالعكس كانت شهية ومنطلقة. أقسمت عليها أن ترقص فلم تمانع. وكنتَ ضابط إيقاع مبتدئ.. ولكنك انتشيت انتشاءً طويلا... ولنستغث بكأس آخر.. مع استدارة العودة، لمحت فتى وفتاة تشابكت أصابعهما وتدانت رأساهما. واحمرار ساخن فى وجنتى الفتاة يفضح ما يقولان .

هل تنذرهما بالفصل الختامى للمهزلة التى يشتركان فيها؟!. فلنهتم بالكارثة التى حلّت بنا. وجهها أصفر الاسمرار. فأين ذهبت حمرته المغرية بالالتهام؟. هل طالت الأنف قليلا وبرزت عظام الوجنتين؟. أم أن هذا كله وهم. فلنقل أى شئ :

- خبر سيئ حقيقة.. لكن لا تخشي شيئا.. سنجد حلا.

بقليل من الارتياب الخائف :

- صحيح؟.

ربتُّ كتفها مطمئناً. صببت لها كأسا فتمنعت قليلا. ثم ازدردته. الخمر حل سحرى لكل شئ.. سيبدو الأمر أمامها بسيطاً الآن. وربما وجدنا حلاً حقيقة. وليس عسيرا أن يجود الصمت حولنا، ببضع كلمات مواسية. وضحكة اعتذار فينتهى كل شئ. بيْد أن تلك أحلام المحصور بين فكّى الرحى. وهناك احتمال يتضخم بأن تكون واحدة من الحيل النسائية التى يتحدثون عنها كل يوم. ولكن : أتستطيع حقا أن تمثل بتلك البراعة؟. لم لا؟. أنت نفسك ما كنت تتصور أنك تستطيع أن تؤلف كل هذا الكلام الذى قلته لها فى عشرات اللقاءات. والآن : فلنشرب فى صحة عجزنا عن فهم شئ. سيضع أخاها يده فى يدك. يقول لك: زوجتك موكلتى البكر الرشيد «سناء» على سنة الله ورسوله..، وعلى مذهب الامام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه. فيسود الكذب كل شئ، حتى الوثائق الشرعية. فلا هى بكر ولا يحزنون. وعندما عرفتها كانت فى حالة تحسدها عليها المحترفات. وستتزوج بعد ذلك زوجا لامرأة لم تثق يوما بأنك مجرد الرجل الثانى فى حياتها، رغم أنها أقسمت على ذلك بدموع ساخنة أكثر من مرة. فما أحلى رأسك بالقرون. وسؤال يقفز بين رشفة البراندى وإشعال السيجارة : كيف تضمن أن هذا الحمل من صنعك حقا؟!

- كل عقدة ولها حلال..

ببسمة يائسة قالت :

- إلا هذه .
- بل وهذه على رأسها. صحتك.

«صحة الضحك والفرح الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه من يأس وشكوك... وكانت البداية بين رفوف الكتب والمراجع. رفعت قامتها لتحضر لى كتابا طلبته. وفى الممشى الضيق مسست أعلى جسدها. واجهتني بنظرة تأديب عابثة. وتحدثنا عن الكتب كثيرا. كانت عيناها تبرقان بشئ، احترت فى تفسيره. وشاقنى اسمرارها الدافئ.. وأثارني جسدها المتأود. وكان الكحل فى عينيها حالك السواد. لذلك بدا بياضهما شاهقاً ومحددا لحدقتيها البنيتان. كعيون القطة كانت عيونها. تفرست بهما بطاقتى وأمامها سند الاستعارة. ومساء صيفى ضنين برواد المكتبة يحيطنا. قالت :

- أنت مهندس؟.. غريبة.
- ليس ضروريا أن يكون المهندس شديد الاناقة !

اعتذرت عيناها...

- لا أقصد.. ثم أن أناقتك مُرضية.. ظننتكَ طالبا.. إذ لا علاقة بين الهندسة وما تستعيرة من كتب؟.

هذه كلمات داعية لمزيد من الحديث... تغلبت على حرصى. عطلت - بقرار منى - جهاز الحذر داخلى عن العمل:

- متابعتُكِ لمزاجى فى القراءة يدل على ذكاء يامدموازيل «سناء».

بدلال :

- تعرف اسمى؟!
- إمضاؤك مقروء.

ابتسمت عيناها، مالت حدقاتهما للصفاء. خفت قتامتهما.. واكملت:

- ما تطلبه من كتب ذى طابع خاص.. وطالبوه قلّة.... ودائما يكون وراؤهم شئ.

«يبدو أن اهتمامها تجاوز شخصك إلى أشياء أخرى.. وإذن فليعد جهاز الحذر إلى العمل».

- ماذا تعنين؟!.

قالت ببساطة :

- هذه كتب لا يقرأها إلا المتطرفون.

بنفس البساطة :

- لكن ... اعترف أننى متطرف.
- اشتراكى يعنى ؟.
- حتى الاشتراكى أصبح عندكم متطرفا.. أنا شيوعى.

ثبّتت عينيها فى عينى لحظة. لمحت فيهما دهشة ممزوجة ببعض الانزعاج. وبدا كأنها تريد أن تحتفظ فى ذاكرتها بصورة كائن غريب لم تر مثله من قبل. قالت:

- تعجبنى صراحتك.. هذا ما خمنته.. ولكنى ظننت أن هذه الأمور يحسن اخفاؤها.

تناولتُ الكتاب. وقعت على سند الاستعارة. قلت :

- ليس دائما... وخاصة لمن كان مثلى غريق ولا خوف عليه من البلل.

أجبت على عينيها المستفهمتين قائلا :

- أعنى أننى كنت فى السجن حتى فترة قريبة.. وغالبا سأعود إليه.

«نعم سأعود إليه. ولكن هذه المرة مُتوّجاً بأكليل من العار، وليس كذلك كانت المرات السابقة. فأين ذهب الحماس الذى اشتعل له القلب. وأين الرفاق؟. بل أين العمر الذى دفعناه. وقبل أسابيع قال «جودت» أنه رفض وظيفة عُرضت عليه أخيرا :

- مائتا جنيه فقط.. تصور أولاد الكلب. عيادة فى الاسكندرية

- مائتا جنيه فقط.. تصور أولاد الكلب. عيادة فى الاسكندرية وأخرى فى القاهرة أغلقهما مقابل مائتى جنيه.. يا أخى هووه..

ما أمجدها من نهاية لنا كلينا. وليس غريبا أن تلتقيا فى السجن من جديد. هو فى قضية رشوة.. وأنت فى قضية هتك عرض. ولكنها ليست قاصرا.. لعلها تقودك إلى المحكمة فى قضية إثبات أبوة؟. وافرحتاه. فلنشرب فى صحة عجزنا عن فهم أى شئ.. هذا سقوط مشرف وتراجيدى حقيقة. وهو أمتع من السقوط السكشبيرى بمراحل.. ووراءها فيما تعلم أخوة يأكلون الحديد. ومراكزهم حساسة. وفى استطاعة أيّ منهم أن يعود بك إلى المكان الذى قضيت فيه ربع عمرك لتقضى به ما بقى منه. وهذه الباخرة كانت ملتقى الحب أيام البراءة وفيها تناجينا. فغبت فى عينيها، وأحسست بنشوة حريفة، وأنا ألامس أناملها. ومرة حركت ساقى فالتصقت تحت المائدة بساقيها فتخدرت كل حواسي. نظرت غاضبة.. أبعدت ساقيها بسرعة. غشت ملامحها سحابة صمت متجهمة. وبعدها بأقل من شهر كانت تبيح لى أدق أسرار جسدها. ولم ينته عجبك إلا بطوفان من الخمر. ولم تكن عذريتك قد انتهكت بعد. لذلك كنت مشوقا لقصة حب من العصر الرومانتيكى. ومتى قضى على حزام العفة كظاهرة تاريخية؟. منذ كثر لصوص المنازل، وانتشت مصانع المفاتيح. ومرة سألتك :

- هل صحيح ما يقال عنكم؟

- وماذا يقال؟

ضحكت. كنا نمر فى شارع خلفى مظلم وخال.

- فيما يختص بالأخلاق.. لا تؤاخذنى..

ضغطت على يدها..

- ليس فى السجن نساء ولا خمر ولا مخدرات. فلو كنا نهوى الأشياء فلماذا لا نحرص على توقيه؟.

أحطتُ كتفها بذراعى، ومع ضغطة خفيفة أكملت :

- مضى على تعارفنا شهرين ولم أقبلك بعد.. وهى عفة لا يأخذ نفسه بها واحد من المتقولين علينا..

أغمضت عينيها.. قال حيازها :

- وهل منعتك؟!.

آه... كنا نلعب بالنار.. فمن الواعظ السخيف الذى قال أن معظم النار من مستصغر الشرر.. ليتنا نصدق الحكم التافهه».

....

....

- فيم تفكر.. أصدقني القول.

فلنعد من رحلتنا المرهقة. غربت الشمس وتناثر عدد جديد من العشاق، واحتلت زجاجة البراندي مكانها بيننا.

- كنت أقول لنفسى أن حبك هو أحبّ شئ إلىّ..

- بدأت تَسكر كالعادة.. أنت لا تتحمل الخمر..

- هذا صحيح.. ولكن بعينيك سَكِرتُ وليس بالبراندى..

- تتكلم جّدا ؟!

- لو حملنا تاكسى إلى عُشّنا لتأكدت أننى لا أكذب.

قال لسانها الذى بدأ - هو الآخر - يثقل :

- شيطان ..

بدا الأمر كله بعد ذلك مهزلة تبعث على الضحك المروع. منظرك وأنت تدفع الحساب للجرسون. تدب على ممشى الباخرة فيهتز بك وبها. تبحث بعينيك الملهوفتين عن التاكسى.. وهى تسير وراءك أسيرة رغبتها الطاغية. فلتعترف بلا مكابرة بأنك تقدمت فى طريق الغواية شوطا يحسدك عليه رواده الأوائل. وقبيل مغرب الشمس كنا نلوم النفس... فما أغرب ما حملت الساعات القليلة التالية من تغيرات. وأول مرة أجبروك على أن تسير

عاريا خجلت حتى قتلك الخجل. وفى السجن رفض «جودت» مرة أن يلبس بيجامته الجديدة لأنك لا تملك مثلها..

فكيف أصبحنا هكذا؟.. و من المسئول.. فتحت حقيبتها لتخرج منديلا فوجدت بها كل معدات المضاجعة..

انتهينا من رحلة التوتر المشدود. وهمد الجسد الصاخب ولم يعد سوى الفتور. لو تنصرف الآن لأحسنت صنعا. وها هى المشكلة تطل برأسها من جديد. وثمة سؤال يعابثك: كيف طاوعت قدميها وتبعتك رغم ما كان؟. لعله اليأس القاتل. وهذا الصوت الخافت الذى يتسلل إلى أذنيك نشيجها لاشك. فما أسرع ما ننسى ندمنا.. يبدو النشيج كعواء كلب جريح فى ليلة صحراوية مظلمة. والضوء الوحيد هو عود الثقاب الذى اشعلت به سيجارتي:

- لماذا تبكين؟!

لارد. حين غمر الضوء الحجرة، غطت جسدها وكان عاريا. تشبثت بكتفى واستمرت تبكى. ليس فى القلب شئ يقال. وها هى تمضى كسيفة البال، تغسل وجهها، وتقف أمام مرآتك القديمة. تمشط شعرها بسرعة. وتعيد ضبط مكياجها. والغريب أنها لم تنس معدات المضاجعة.. لابد من قول أى كلام:

- لا تحملى همّاً... سنصلح الأمر قبل أن يستفحل...

أشرقت بسمة أمل على ملامحها. جلست بجوارى على السرير.. وبدفقة حنان مفاجئة. ربتت. على شعرى المهوّش. تناولت السيجارة من فمى.

- كنت واثقة أنك لن تتخلى عنى...

آه، ها هى الأنشوطة تلتف بك، ولحظة بعد أخرى ستنسحب الأرض من تحت أقدامك فتتعلق فى الهواء، ولا مفر من التأجيل حتى تدبر لأنفسنا حلا...

- سأرتب أمورى... يومين على الأكثر وينتهى الأمر... نلتقى ثلاثاء..

- هنا ؟!.

استفزتنى ابتسامتها المستهترة.. بدفعة لم استطع التحكم فيها قلت:

- هنا.. لا.. فى الباخرة..

ثبتت عينيها فى عينى مستطلعة فى عجب. قلت :

- قد يأتى أبى من البلد غدا.. أو بعد غد

هزت رأسها غير مصدقة. مضت.

***

ما أمتع أن أجلس أمام أبى لأستشيرة : عمامة وقورة. ولحية أبيضت من قراءة الأوراد والتعاويذ. لم يصدق أبدا اتهامهم لك بأنه لا تؤمن بالله. وظل كلما زارك فى السجن يسألك بسذاجة إذا كنت تصلى أم لا؟. فكيف تواجهه بالقصة المخجلة؟. ومن يشير عليك فى مأزقك الملعون. وفى المقهى تحدث الأصدقاء عن أزمة الشرق الأوسط طويلا. وأكدوا بحماس أن وقت المواجهة قد حان. وتكرر الحديث عن الامبريالية الأمريكية ولكنك لم تسمع التفاصيل. وشتموا صديقا أو صديقين من أصدقاء زمان. وتذكروا أكثر من حادثة من حوادث السجن. وقهقهوا فى قلق وتساءلوا عما إذا كان زمن السجون قد إنتهى بالنسبة لنا تماما أم ماذا؟. وأعلن واحد أن الجو خانق ومشبع بالرطوبة، وأنه يتحسر على هواء الصحراء الجاف الذى استنشقناه فى السجن. ضحك الأصدقاء. وقالوا أنه يود أن يهرب من شئ ما إلى السجن، وألحوا عليه أن يتكلم : هل تريد أن تهرب من زوجة. أم صديق؟. لعله دائن سخيف؟. صديقة أم عشيقة؟. أم لعل أيام الفتوة ذهبت إلى غير عودة، ولم يعد هناك مفر من التعلل بالسجن للهروب من الواجبات الزوجية؟. تأخذ الأصوات. ما رأيك يا «سعد»..؟

فلنفق من رحلتنا المرهقة ولنشارك فى هذر كل يوم. هل تجد الشجاعة لكى تحدثهم بما يواجهك من مشاكل. أصدقاء أعزاء حقا. واجهنا الخطر سويا مرات. هذه الوجوه التى غيرها الزمن. فشابت بعض السوالف. وانتشرت التجاعيد تحت العيون. وما يخلو جسد منها من مرض أو أمراض. وكله قاموس معروف : روماتيزم. أمعاء متهرئة. حصى لا حصر لها فى الكلى والمثانة. وبعض الرصاصات. حتى «جودت» أقرب الناس وأعزهم. ترك السوط آثاره على ظهره. ألا تبدو إثارة موضوعك وسط أحاديثهم نكتة؟. كلامهم هذر حقيقة، ولكنه غير هابط كهذرك. وما تمضى جلسة إلا وتذكروا موقفا من مواقفك القديمة. يبدأ الحديث بذكرى فكهة، وينتهى بموقف تراجيدى عنيف. وها هم يخوضون فى الحديث المعاد :

- «سعد» طول عمره جاد. ولكنه الليلة مريض بدوستتاريا فى الغالب.

«مريض حقا.. ولكن ما هو المرض بالضبط..؟».

- أقترح أن نشترى له زجاجة بيرة على حسابنا.

جاءت الزجاجة.. قال فم..

- هذه دعاية سيئة لنا فى هذا المقهى.

أكل واحد من المزة.. وهو يأكل :

- أغلب الناس يتصورون أننا لا نفيق من الخمر. فى حين أن معداتنا جميعا متهرئة .

- أصبح الماء يتعبنى، أوصانى الطبيب أخيرا بأن أدفنه، وقد لعنت أباه فى سرى.. ولكن لا فائدة.

«آه.. وستواجه فى شهر العسل بزوجة حامل قبل الزواج، تتقيأ كل لحظة وتحيل حياتك إلى مرارة دائمة».

- أصبحنا كالمفلسين الذين يبحثون فى دفاترهم القديمة.. أليس الأفضل أن نبنى أهراماً - كالفراعنة ليتفرج عليها السياح

لفّ المائدة صمت.. تحدث أكثر من لسان.. هذا كلام له معان متعددة يا سيد «سعد» والغالب أن معدة حضرتك لم تعد تتحمل البيرة. لذلك سرعان ماتلطم وتعكنن علينا كلما شربت كوباً. المطلوب من حضرتك أن تجيب على السؤال التالى : هل ما قلته سياسة أم شعر؟. اقترح آخر أن نبحث عن وسيلة لتجديد أنفسنا. طولب بأن يحدد اقتراحه. قال : نذهب للجبهة. تحمس أكثر من لسان للاقتراح فى ضجة هائلة. هذا اقتراح بناء يا زميل. مضى زمن ولم نلتق بالكثيرين وهذه فرصة لكى نلقاهم فى السجن مرة ثانية. لا داعى لإقلاق رجال الأمن. نذهب جميعا فى أتوبيس ونعود به إلى المعتقل فورا كما حدث فى عدوان ١٩٥٦. ليست البيرة هى الفاسدة ولكن المزّة كذلك. عندى اقتراح آخر : نتطوع فى الجيش الشعبى. ياله من مشروع عظيم. ولكنه قد يعطلنا عن الإنتاج كما تقول الصحف. إنتاج ماذا؟. الخطابات المصلحية والثرثرة المعلبة. وأيضا مشروعنا الإنتاجى العظيم. الذى هو؟. إنتاج الأطفال. شرعيا؟!. شرعى أو غير شرعى هذه مسألة شكلية. أنتم لا تقرأون الصحف. إخص على كلامك الفاسد. أنا أقرأ صفحة الوفيات. وأنا أقرأ صفحة الفن. وأنا اقرأ برنامج التليفزيون. نصحنى خبير سيكولوجى بقراءة أخبار الجرائم لإراحة أعصابى. وماذا كانت النتيجة؟. شؤم كوجهه. وكيف كان ذلك. البند الثابت فى صفحة الجريمة هو صور الفتيات اللواتى تختفين، وكلهن صغيرات وجميلات. أصبحت أخشى على ابنتى من الخروج إلى الطريق وحدها. «القوادة» أصبحت أكثر المشروعات الرأسمالية ربحا فى مجتمعنا النامى المتحرر حديثاً. هل يمكن إعتبار «الدعارة» عملاً له فائض قيمة؟. مسألة تحتاج لدراسة. لكن من المستفيد من هذا الفائض؟. أسوأ شئ حقا هو أبواب المشكلات العاطفية، فكلها وحى خيال مريض. خيالك هو المريض. نحن لا نفهم فى الحب فلا داعى للكلام فيه. أحببت ثلاث مرات. وكل مرة أخرج من السجن فأجد حبيبتى إمرأة وقور، سمينة، ولديها طفلين على الأقل، وحامل فى الثالث. وعادة ما تقابلنى مرة وحيدة لتطالبنى برسائلها وصورها. إذا بعد عنّا شبح

السجن فقد أفكر فى الحب. يا راجل يا عجوز مناخيرك قدّ الكوز. عمرى ٤٠ عاما فقط.. ولكنك مصاب بدستة أمراض وشعرك يتحدى أعتى صبغة فى العالم. الغريب فى أبواب المشاكل العاطفية هو العلاقات الشاذة بين الأم وابنها والأب وابنته والأخ والأخت. يا ساتر.. هل ينشرون مثل هذا الكلام حقا؟. وأسوأ منه. نحن دعاة حرية للمرأة حقا ولكنى ألعن اليوم الذى رزقت فيه ببنت. العلاقات الأوديبية ظاهرة عالمية جديدة. بهت عليك الخبير السيكولوجى. الحضارة الرأسمالية تنهار وتتحلل خلقيا وهذه ظاهرة متوقعة. وما موقفنا من هذا العالم الأوديبى؟. لم يعد لنا موقف من شئ فالأفضل أن نكف عن الاهتمام بأى شئ. أقترح أن نطالب بعقوبة حادة لهذه الجرائم: الرجم أو الضرب بالسياط مثلا. اقتراح رجعيِ ولا يعالج شيئا.السياط عقوبة عادلة ومؤدِّبة. ولكنها لم تؤدب «سعد». مرة كلفته اللجنة المركزية أن يهتف بسقوط الديكتاتورية العسكرية فى وجه قائد المعتقل ففعلها. وجلدت مائة جلدة. شرّحوا جسدى الله يلعنهم. ومع ذلك لم تتأدّب. كانت أيام. الدكتور «جودت» كاد يقتل وهو يتعارك مع الشاويش «عبده سليمان». ذكرياتك مرعبة، «عبده سليمان» كان مصابا بالسادزم. الحقيقة أننا نحن المصابين بالسادزم. لماذا نتذكر أمجادنا؟.. ألكى نتعذب بها الآن. البطولة موقف مطلق القيمة، لا تغير الأيام من قيمته. هذا مجرد كلام نعزى به أنفسنا فرحم الله أيام زمان. قلوبنا كانت فتيه ونفوسنا نقية. ياعينى على الوعظ الخائب. ولكنه كلام حقيقى. كنا نمر بمرحلة البكارة. ومن الذى افتض بكارتك؟. أنا لا أهزل. ولكن «البيرة» التى تشربها هى التى تهزل. أؤكد لكم أن العالم فقد بكارته. انتشرت موانع الحمل... وكثر الأطفال غير الشرعيين. هذا فضلا عن تعدد الأزواج.. هذه انتكاسة إلى المجتمع المشاعى. هناك ألف جمعية لرعاية الأطفال غير الشرعيين حسب آخر إحصاء. ظاهرة مخجلة. المخجل حقا هو ما نقوله. هبط مستوى الجلسة كما هبط ضغط دمى. مرة قلت لرئيس المجلس العسكرى الذى يحاكمني أ... يحكم بقانون هابط ومزور فحكم على بخمسة سنوات أشغال شاقة رغم ع...

وجود أدلة. كفوا عن ذكر محاسن موتاكم. أكره التاريخ الفرعونى جدا. القرعاء غالبا تتباهى بشعر بنت أختها. سأفتح محل بقالة ولن استخدم فيه الدفاتر. العمل التقدمى الوحيد الذى تسمح لنا به حكومتنا المعادية للامبريالية هو أن نزيد إنتاج الأطفال فى بلادنا. شرعيين أم غير شرعيين؟. ليس هذا مهما فكله زيادة للانتاج.

***

جرّبت أن أقول الكلمة، وكنت جلفا شأن القاتل غير المدرب.. جاءت فى موعدها وبقمة فتنتها. لن تخدعك هذه البراءة الظاهرة فى عينيها. والغالب أنها فسرت كلامى فى المرة السابقة آلاف التفسيرات التى يوحى بها خيال مأزوم يبحث عن خلاص. لابد أن تنسحب بهدوء ودون إراقة دم. ولكن كيف؟. وهل افترق العاشقان اللذان كانا هنا قبل أيام أم مازالا يمارسان حبهما. شربتْ عصير البرتقال وشربتُ قهوتى. ولم يعد هناك مفر من الكلام.. وها هى تدفعك للحديث. على حد هذه السكين سيذبح حبنا :

- لا أستطيع أن أتأخر.. عاد «فؤاد» من السفر أمس.

« ها هى تذكر اسم الأخ الخطير.. فهل هو تهديد خفى؟ ».

- حمداً لله على سلامته.

ببسمة غامضة :

- تشاجر معى وأنا خارجة... لم تعجبه الجونلة.. ضيقة وقصيرة.. وأجبرنى على استبدالها.

- عنده حق.

أخذت لنفسها سيجارة، وأخرجت ولاعتها من الحقيبة. بشكل تلقائى تسلل بصرى داخلها:

- يكون الحق عنده لو كان زوجى.

دخلنا فى المنعطفات الخطرة.. الصمت كالكذب منجاة. ولما طال. بدأ على وجهها سهوم مفتعل.

- يعترض على جونلة.. فماذا لو عرف بالباقى.

«بدأ الضغط على الجرح، فليخرج - إذن - صديده».

- لن يعرف.

- هل فكرت فى الأمر.

بدفعة .. وقبل أن أتردد:

- نعم سنبحث عن طبيب.. ومن السهل أن نتخلص من الجنين

«لا مفر. قبلت الكلمة وانتهى الأمر. ولنضف الآن إلى مهاراتنا المتعددة مهارة القتل بأكثر الطرق بدائية. وها هو الشحوب يبتلع ملامحها ثم يتحول إلى اختناق تنفر معه العروق.. ولا بديل لصمتها سوى أن أتكلم»:

- أعلم أنها عملية خطرة.. ولكنى أثق فى شجاعتك..

«أنت معجب بنفسك حقا. ولعلها تثق بنفس الدرجة أنك جبان».

- كنت أود أن ينتهى الأمر بطريقة أفضل، ولكن ينبغى أن نغير الظروف... وسوف نتزوج طبعا ولكن فى ظروف أهدأ.

وقفت فجأة.. قالت بكبرياء:

- آن لى أن أعود. أستطيع أن أدبر أمورى بنفسى.

***

ضاعت عبثا محاولات استعادتها.. أغلقت التليفون فى وجهك كلما اتصلت فأصبح الرنين المتواصل هو الرد على أى محاولة لاستعادتها. ومع هذا أصبح شغلك الشاغل أن تجدها، والغريب أنك لم تكن تدرى

بالضبط لماذا؟.. وهان للحظة كل شىء مقابل أن تراها حتى لو كان هذا الشىء أن تتزوجها. ولكن صوتك كان كفيلا بقطع الاتصال ليرد عليك الرنين المتصل. ومرة واجهت أذنك صوتا خشنا يرد عليك فى جفاء، فوضعت السماعة فى رعب. وفى عملها قالوا إنها فى إجازة ولا يعرفون متى تعود.. وتآمر الصمت والوحدة عليك. أما رغبتك فيها فقد عابثتك مرة أو مرتين وأثناء بحثك عن قميص تلبسه، وجدت أحد حمالات صدرها وسط الملابس. وها هو القميص على جسدك يذكرك بها. وكان إصرارها على أن ترد هداياك بأخرى مساوية لها فى القيمة مثار مناقشات لا تنتهى بينكما. وقالت :

- أنا لا أبيع نفسى لك.. وأيضا لا أشتريك..

بدت المسألة معادلة رياضية صعبة الفهم جدا. وحاولت أن تثنيها عن فهمها، ولكنها أصرت بعناد صخرى. وما كان أحلاها معانده. كم كانت طفولتها تثيرك. وفى المرات الأولى بدت ساذجة، كأنها لم تعرف الرجال قبلك. ولمرات قليلة مارست لذة أن يسلم إنسان نفسه لك لكى تكشف له أسراراً تتوهم أنه يجهلها. بيد أنك استوعبت الحقيقة بعد ذلك ببطء. فأسلمت نفسك لها تقودك بخبرتها التى لا تنفد. وفى كل مرة كنت تفتح عينيك دهشا لما كانت تفعله أو تقوله. وبقدر ما كانت ممتعة، كانت معذِّبة. ظل الشك فيها يراودك عشرات المرات كل لحظة: أين تعلمت كل هذا؟ وكيف يمكن لرجل واحد، فى لقاء واحد، أن يترك كل هذه البصمات على جسدها وروحها.

***

- ألف لعنة عليك يا سيد «جودت» أين اختفيت ؟

انحط سمينا ومتكورا :

- عبادة اسكندرية دجاجة تبيض ذهبا.. والظاهر أننى سأعيش هناك طويلا..

- ظننتهم اعتقلوك ؟!

نفخ دخان البايب فى الهواء وقال :

- فعلوا ذلك بما فيه الكفاية.. بلغنا سن اليأس..

«أجل وأصبحنا آبا لأولاد سفاح».

- وآية ذلك سمنتك التى لا مزيد بعدها.. أين رشاقة زمان..

- أنت تنظر دائما للوراء.. ولذلك أرجو أن تصاب بمغص كلوى كذلك الذى أصيبت به «مدموازيل سونيا».

- ومن «مدام سونيا» هذه ؟

- زبونة إنما.. جنان رسمى : مال وجمال وشباب ومغص كلوى.. ثم هى مدموازيل وليست مدام.

- نشرب كورفوازييه لنستطيع أن نفهم الموضوع؟!.

- عمرك أطول من عمرى. رغم أن طلبك يحمل طابعا استغلاليا واضحا.

جاء الكورفوازييه.. هذه الجنيهات التى صُبّت فى الكئوس، دلت على أننا قد انتهينا حقيقة. والمشكلة أنه هو نفس الرجل الذى قاد أقدامنا إلى طريق النشوات العليا. التقينا آلاف المرات وبرقت العيون بالحماس وكان صلبا دواما. فمن الذى صهرنا فحولنا إلى كائنات بروتوبلازمية سائلة.. وفى أى رواية قرأت أن الخمر مفتاح الفرج..

- صحة «سونيا هانم»..

- صحة المال والشباب والجمال والمغص الكلوى.

«صحة اليأس وعذريتنا التى انتهكها الزمن. ما أسرع ما يسكر الآخر. هذا الصمت المحيط بنا يدعو لكشف النفس. وخارجنا بارد وليس كذلك الداخل، فهو يغلى. ولا بد من فرجه يتنفث منها البخار. سرى الخ من الأطراف إلى مراكز الوعى. ولو لم يحدث هذا الموقف الطارئ لاستدعيتها وعاودنا زمان الحب معا... آه ما كان أمتع ليالينا.

- لم أعد أجد وقتا للمتعة، ثلاثة أيام فى الإسكندرية.. وثلاثة أيام فى القاهرة... حتى السينما لا أراها.

- حظك حسن.. السينما رديئة. رأيت أخيرا فيلما تافها جدا.

«امرأة من إياهن تحوم حولنا. أخيرا أصبحنا محط أنظار الساقطات، مجدا للبكاء وللدموع».

- نعم، حياتنا فى الواقع تفاهة مركزة. ولكن هل تصدق أن تحمل فتاة من شاب ويفترقان، وتنجب منه إبنة. وتدور الأيام فيلتقى الرجل بإبنته وهى شابة جميلة، فيحبها وتحبه، ويهمّ بها وتهم به لولا أن يأتيهما برهان ربك متمثلا فى آذان الفجر المفاجئ؟

- خيال مريض. والواقع أن الدنيا قد تغيرت. سأقول لك سرا. تقدم لعيادتى فى العام الأخير أكثر من عشرين «آنسة» تطلبن إجراء عمليات إجهاض.

«كيف يُدفع الحديث. ومن الذى يتحكم فيه؟. وهل تنتقل الأفكار حقا كما زعم بعض العلماء».

- وماذا فعلت ؟

- فى البداية رفضت..

- أتعنى ؟ ....

أردف دون توقف :

- ألقيت عليهن درسا قاسيا عن شرف المهنة. صحتك. الكورفوازييه جميل ولكن عينى «سونيا» أجمل. لو رأيتهما. هما اللتان أجبرتانى على إجهاضها.. أقصد على إخراج الحصوة من الكلى.. والثمن بسيط.. علاقة حب مستعرة ومستمرة ووعد بأن استخدم مهارتى فأعيدها عذراء ليلة الزفاف.

«فلتدر الدنيا ألف دورة : هذه الخوارق المذهلة كيف تحدث ؟ تقترب الرمال المتحركة من كل الأقدام. والدوامة تبتلع الجميع واحدا بعد الآخر. فوا حسرتاه على أيامنا التى لن تعود. سيشمت الأعداء. ولكن أليس من العدل

أن تنال نصيبنا من الدنيا. تعذبنا كثيرا وآن أن نستريح. هذه الأفكار الخبيثة متى تسللت إلى القلب؟. والمذهل حقا أن راحة شملتك من قمة رأسك إلى إخمص قدميك. وها هو يبدو الآن قريبا منك جدا كما لم يكن فى يوم من الأيام. حتى أيام الحماس المشتعل والنشوات العليا. وحتى يوم وقف بجوارك فى قفص الاتهام يتحدث بشجاعة تهز القلب وتقوى أكثر الرجال ضعفا، فيتحمل كل المسئولية عن الأوراق التى ضبطت فى شقتكما المشتركة».

صب لنفسه كأسا أخرى. وقال :

– وأصبح على أن استأجر لها شقة خاصة.. والمشكلة أنها فى كل فترة تجيئنى بصديقة مصابة بحصوة فى الكلى.. انتشرت أمراض الحصوة فى البلد.. صحتك..

ضحكت وأنا أقول :

– يبدو أن الطبقة الجديدة تتنازل لنا عن بعض امتيازاتها، مقابل مهادنتنا لها.

إلتهم خيارة مملحة :

– سرعان ما تحرك السياسة.. ملعون أبو الذى اخترعها.. ثم أن النساء لسن امتيازات.

– أقرُّ بندمى لأننى لم أدخل كلية الطب.

– لا يجرك الخيال بعيدا.. والحقيقة أننى فى سن لا تسمح لى بأن أرضى أكثر من إمرأة، فوق النصاب الشرعى.. ولهذا لم يعد هناك مفر من استبدال المقابل العينى بمقابل نقدى..

«من الذى يفسر هذه البديهيات المحيرة. وتظن نفسك قد سقطت فماذا تقول فى هذا السقوط العظيم. إدركنا يا مولانا «الشيخ كورفوازيية» يا قطب الرجال، وفاتح موصد الأبواب، انتشرت عفونتنا فى كل مكان، فوا حسرتاه على أيام البكارة.

– ولكنك لن تأخذ مقابلا نقديا من صديق عزيز مثل «سعد».

ضحك بعربدة لفتت إلينا الأنظار. قال :

– هل لديك مغص كلوى أنت الآخر ؟... ولكنك لست فاتنا..

جاريته فى الضحك :

– بالطبع لست أنا، ولكنها «سناء».. صديقتى

أكمل كأسه الأخير.. وضعه على المائدة قال :

– هذه حكاية تدعونى لاستضافتك لنشرب زجاجة أخرى فى صحة الآنسة «سناء».

***

استقبلنى فى صالون العيادة. قال :

– اطمئن. تم كل شىء على ما يرام.. ستحتاج لراحة لن تزيد عن يومين .تنهدت. انزاح الكابوس. ستعود إلى أهلها فى الموعد الذى حددته لانتهاء رحلة الإسكندرية.

أشعل سيجارة وقال :

– حرمت نفسك من الأبوة.. (ثم بضحكة شاحبة) ومن يدرى لعله لو ظل حيا لأصبح ثوريا عظيما كأبيه. والحقيقة أن الأولاد كائنات مزعجة.. وأمس ضبطت ابنى يتحدث عن مظاهرات الطلاب بحماس مريب.

«هل تعود أيام المتع حقا ؟. وكيف أمكن بهذه البساطة حل المعضلة التى حيرتك. والعجيب إنها التى استأنفت الاتصال بك بعد القطيعة. وحين عرضت عليها الحل لم تمانع. وعند اللقاء، ابتسمت ابتسامة ذكرتك بلياليها الماضيات. فكيف يقودنا اليأس دون إرادة منا؟ وإلى أين؟ وهذا الحديث المتصل عن ابنه، ليس مهما الآن. ألا يدعونى لرؤيتها ؟.

– أنت مدين لى بخمسين جنيها.. كن حذرا فى المرات القادمة. قل لى منذ متى وأنت تعرفها ؟

– أقل من العام..

صمت لحظة.. ثم قال :

– ليست هذه أول مرة أرى فيها صديقتك. سبق أن أجريت لها عملية إجهاض، وأعدت لها عذريتها. والحقيقة أنها لم تكن تحمل الإسم الذى تحمله الآن. فهل اسمها «سناء» حقا ؟

– ماذا تقول ؟!!

«صراخ، صراخ، صراخ».

– إهدأ قليلا.. رجتنى «سناء» ألا أخطرك. وهى لا تعلم بالعلاقة بيننا، لكنى أفضل أن تعرف، لكى لا تتشدد فى لوم نفسك. فلا تجعلنى أندم لأننى راعيت صداقتنا.

. . . . . .

«إسكندرية الشتاء متعة، ولكن السير الطويل فوق الانفعالات أنهكنا... فمتى وكيف ينتهى. كنا نحمل القرون طوال الوقت، لكن الآوان قد آن لنتف الضعف كله.. لذلك تركت العيادة هاربا. وفشل «جودت» فى إعادتك. أنت فى حاجة حقا لسكين تبتر بها خلايا السرطان التى انتشرت فى جسدك.. وليكن ما حدث درساً لها. فهل كانت تأتيك رغبة فيك أم لأن فراشها كان يخلو أحيانا من ضجيج؟.. والدواء الحقيقى للألم أن تبتر مصدره.. كم مضى علينا فى هذا السير المرهق ؟.. لو طاوعت نفسك لبصقت على وجوه النساء اللواتى مررن بك.. بيد أن فكرة اندست فى تلافيف العقل فجأة: لماذا غضبت هكذا؟ .. لماذا تلومها وحدها؟. وكل شىء أصبح تاريخا .. وهى جميلة رقى النفس رغبة فيها .. فلماذا نكبتها؟.. هل حددنا مواقفنا من كل شىء ولم يبق سواها.. متى تنتهى بلاهتنا ؟».

واجهتُ محلا للزهور. دعتنى البائعة ببسمة تجارية.. خرجت حاملا باقة من الورد. عدت إدراجى إلى العيادة..

(١٩٦٩)

نصف كوب من دموع التماسيح

« .. أطاهرة الذيل أنت يا حبيبتى ..؟ ... أرينى إذن ذلك الذيل الطاهر ؟ ..»

١ بنت اسمها «حكمت مسعود الصعيدى»

عندما فتحت عينى فى الصباح، قررت أن أقول لصديقى «حسين» رأيى الحقيقى فى سلوكه، بيد أننى عدلت عن قرارى تحت الدش. رأيت من الأفضل أن يكبح الإنسان جماح أفكاره المتطرفة. وأنا أشرب كوب اللبن، انتهيت إلى تشخيص مبدئى لحالة «حكمت مسعود الصعيدى». قررت أن أكتبه وأضمه إلى ملفها بمجرد وصولى إلى المستشفى. وانتهيت فى تلك اللحظة إلى الاقتناع بأن رجلا مثل «غونار يارينغ»، هو شخص سعيد بلاشك، لأنه يتجول فى العالم، وإذن فإنه لا يعرف الملل. وأنا أحلق ذقنى فكرت فى أن جارتى تتبع المذهب الحنفى، بدليل أنها استحمت لتزيل جنابتها فى الصباح وليس فى الفجر. وقلت: ربما كانت مالكية أيضا. أظن أنهم أيضا يبيحون هذا. قطع وصول «حسين» المناقشة بينى وبين نفسى. اضطررت للابتسام فى وجهه. تركت يدى التى امتدت للبحث عن كتاب

«الفقه على المذاهب الأربعة» معلقة فى الهواء. قلت: فى الظهر سأبحث فى الكتاب عن رأى الحنابلة فى إزالة الجنابة. تاهت كلمات الترحيب على لسانى، ذلك أن الشيخ «رفعت» كان يتربع فى الثلث الأخير من رأسى ويقرأ «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة». هتفت «الله.. أحسنتم يا مولانا. قال «حسين» أن زوجته سبقتنا إلى السيارة، وأن علينا أن نلحق بها فورا. تصاعد نفير السيارة واشيا بضيق صدر متعجرف. وقلت أن صدرها صغير كالنبتة.

استقبلتنى بابتسامة تليفزيونية مدربة. فقلت أن ابتسامتها تتناسب مع شعرها المستعار. كانت «بلوند» فى ذلك الصباح الشتوى، وهذا يعنى أننا فى يوم «الإثنين». وشت البلوزة النايلون بها، فقالت أن الكومبين الذى تلبسه أسود. أصبحت أعرف الأيام بلون شعرها، فهى شقراء فى يومى السبت والإثنين. وسمراء فى يومى الأحد والثلاثاء. أما بقية أيام الأسبوع، فشعرها كستنائى غالبا. كنت أفكر فى أن احتفال رأس السنة هذا العام، ينبغى أن يكون مهولا كما يجب لسنة تودع عقدا كاملا من القرن. لذلك يجب أن تكون كرنفالا هائلا، ولماذا لا تكون حفلة تنكريه؟. فكِّر فى القناع الذى تلبسه. أمامك بضعة أيام. لم نتحدث إلا بعد أن قذفنا بها أمام مبنى التليفزيون. تنفست لحظتها براحة. فتحت صدرى. شممت نسمات النهار الندية.

انتقلت إلى المقعد الأمامى بجواره. اهتزت عروسة قوقازية معلقة على زجاج السيارة أمامنا. ملابسها زاهية الاخضرار. ملامحها دقيقة وعيناها جميلتان. داعبت وجنتيها. ضحكت. قلت: لو كانت إمرأة حقا لتدلهت بها حبا. خيل إلى أنها تبتسم لى. فكرت فى أن الحكيمة التى تعمل معنا فى القسم تبدو مستجيبة، ولكن لأنها تحمل الاسم نفسه الذى تحمله زوجة صديقى، فأننى أتردد كثيرا فى مغازلتها. وأمس احتضنت «ضحى» - وهذا هو إسم زوجة «حسين» أيضا - تعرض على أوراقا، تجاوبت

ساعدانا، سرى إلى عبيرها داعيا وجاذبا. وللحظة كدت أحتضن خصرها إلى. ولكن اسمها - «ضحى» - طفا فجأة على سطح الوعى. باخت رغبتى. أبطأت السيارة وهى تدخل زحام ميدان التحرير. تحدث «حسين» عن برنامج زوجته. قال أنها ستسجل حلقة جديدة منه اليوم. أردف :

- من الصعب أن تكون زوجا لإمرأة فى شهرة «ضحى» وأنت غير مشهور.

ضحكت دون أن أفتح شفتى. غمزت للعروس القوقازية. نظرت إلىّ بعينين ضاحكتين.

قلت :

- ولكنك تاجر ناجح ومعروف فى السوق.

قال بلهجة محايدة :

- يشيرون إليها دائما كلما شوهدنا معا. وفى الأسبوع الماضى عرض عليها مخرج سينمائى أن تعمل معه.

أوقفتنا إشارة مرور. قذف البائع بصحف الصباح. ألقى نظرة سريعة على المانشيت الرئيسى للجريدة. قال:

- ستصبح السويس أكوام حجارة، بعد قليل.

«سبحت بقوة، كان البحر هادئا. عدت ميلا إلى «الكابانون»، طلبت زجاجة كوكا كولا شربتها وألقيت بها فارغة على الأرض».

أردف :

- خسارة.

لهجته نحاسية. شارع القصر العينى هادئ. أما الفيلا فإن «جبل عتاقة» كان يحتضنها. قلت أننا لا نتكلم نفس اللغة، فمن يترجم..

- أظن أنهم عوضوك بما فيه الكفاية.

قال ساخرا :

– ملاليم وشرفك، وفى التجارة ليس المهم رأس المال، ولكن : السوق والإسم التجارى وحجم التعامل.

ها هى الهموم تطل برأسها من جديد. وأحيانا يبدو كأن الدنيا قد خلقت منه مسخا يدعو للاشمئزاز. وأين ذهبت فكرة الصباح قبل الدش. لولا صداقة الطفولة والصبا لعانينا كثيرا من سخافة ما يقول. ويوما وضع سيارته تحت تصرفنا وتعرض لخطر حقيقى.

قلت :

– ولكن الوطن فى خطر، وكل شئ يهون...

ضحك مقهقها. قال :

– لن أكرر خلافى الدائم معك.. عيبك أنك تصدق كلام الجرائد وأنا اتحدى أى إبن كلب من الذين يكتبون فى الصحافة، أن يضحى حتى بمجرد موعد مع مومس بلدية من أجل الوطن الذى يكتبون عنه ليلاً ونهاراً.

تصاعد إحتجاجى. ضاع فى موجة ضحك صاخب أنهى به كلامه.

قلت معاتبا :

– كثيرون ضحوا، وكثيرون سيضحون، والحقيقة أنك لم تهتم أبدا بأشياء من هذه.

نفخ ضائقا. قال :

– ماذا أخذت من الحرب؟ دمر فرع السويس وفرع بور سعيد وخسرت الزبائن والاسم التجارى نظير ملاليم.

لم أعن بالرد عليه. قلت أن شيئاً ما يجذبنى إليه. فما هو؟. فكرت فى أن أبحث ذلك مع خطيبتى «كوثر» فى المساء. ولكنى لم أقرر ذلك نهائيا، إذ لابد أن سؤالا أو أكثر سيقفزان إلى ذهنها. ترى هل فكرت يوما أن تلتقى ببنت مثلها؟ وفى أى منطقة بالضبط من كيانها المتفجر بالحياة تكمن فتنتها وجاذبيتها؟. فى الابتسام؟. أم فى رنوة العين، لعلها فى التنفس الرقيق. قال :

– هل زعلت؟. حقك على. أعلم أنك ضحيت بالكثير، ولكن لعلك توافقنى على أن خسارة مجهود العمر شئ مزعج.

وافقته. أردت أن اتخلص من إلحاحه. أعود لاستبطان فكرة ما كانت تشغلنى. صمت طويلا. سألنى فجأة عن «كوثر». قلت :

– ليست على ما يرام.. تشاجرنا أمس شجارا مفزعا.

إستمع إلي التفاصيل بانتباه. توقفت العروسة القوقازية عن الإهتزاز. وأنا أروى تذكرت أنها قالت أشياء سخيفة. حذفتها من القصة. ضحك.

– النساء مشاكل معقدة، «كوثر» لا تفترق كثيرا عن زوجتى، فهما إبنتا خالة، وأرى أنكما فى حاجة إلى تغيير الجو.

– يعنى؟

– أظن أنكما تشكوان الملل.. إسمع.. لماذا لا تسافر؟.

– إلى أين؟.

– إلى أى مكان.. أو حتى لا تسافر، ولكن لابد أن توهم «كوثر» بذلك..

– لا أفهم..

انتهز فرصة الإشارة ليشعل سيجارة. قال :

– أنتما فى حاجة إلى موقف تراجيدى..تصور لو قلت لها مثلا أنك مريض بالسرطان وأن الطبيب أكد أنك لن تعيش أكثر من ثلاثة شهور.. ستدب الحرارة فى عواطفكما الباردة وتستعيدان أيام الحب السعيدة.. أو تزعم أنك ستسافر إلى أى مكان وتدعوها لوداعك فى المحطة..

ضحكت..

– ولكن هذه فكرة سينمائية مبتذلة.

– لو سمعتك «ضحى» لأشبعتك سباً. هذه فكرة حلقة الليلة فى

- لو سمعتك «ضحى» لأشبعتك سباً. هذه فكرة حلقة الليلة فى برنامجها «دروس فى السعادة الزوجية».

ابتسمت. قلت أن الله سلمٌ. وعليه فى المستقبل أن ينبهنى إلى ذلك حفظا للسلام العام. كاد وهو مستغرق فى الحديث أن يمر بالمستشفى دون أن يتوقف. ودعته. دخلت.

***

روائح الفقر تهب. نساء متهدلات أكلهن الزمن. ذهب الجوع بنضارة العذرية. أطفال مهزولون هدّ المرض نشاطهم. جلس بعضهم يلهث. رائحة الفورمالين اللعينة. موظف الاستقبال يصرف تذاكره الحمراء. تمورجية تمسح البلاط فى نشاط. حيانى واحد وآخر. من بعيد بدت حجرة الأطباء خالية. مريضة من عنبر ٣ تصحب طفلتها إلى دورة المياه. تمنت لى خيرا. ابتسمت. لو كانت أمنياتها تتحقق أليس من الأفضل أن تحتفظ بها لنفسها؟. كانت حجرة مكتبى نظيفة، بدليل أن المقعد كان فوق المكتب. ارتبكت التمورجية. قالت :

- لا مؤاخذة يا أستاذ.

ببسمة أزالت إرتباكها :

- لا عليك، أطلبى لى القهوة لو سمحت.

بدأت تنظف المكان على عجل. تعثرت فى سجادة الأرض، كادت تقع. فتحت باب الشرفة. وقفت أتامل ما حولى فى انتظار أن تنتهى من عملها. أطللت من مكاني على زحام المنتظرات فى «الاستقبال». أطفال وأمهات ولا أكثر. بعضهم بملابس المدرسة. مرايل من التيل الرخيص متبلدة بالعرق والتراب وأثار الحلويات الرخيصة فى جيوبها. وبقع من الحبر. الأمهات : ملاءات سوداء مليئة بالرتوق. وجوه ساهمة مثقلة بما تحمل من هموم، فأين نظرة الصفاء فى حدقات الأعين؟. يسحب الكدر نفسه على

أصبحنا من متفرجى الشرفات. كنا يوما سباحى بحر العرق المتسع. وكم حملت الجيوب: طلقات. قنبلة «ميلز» تحملها الكف فى الجيب، والأصابع تمسك مسمار الأمان. عدت إلى المكتب. الأوراق ملقاة بإهمال هنا وهناك. تعال نسبح فى بحر الكلمات بلا معنى، نحترق بنشوة مزيفة بين أحضان «كوثر». نثرثر بين الحين والآخر بكلام لا معنى له، ما أجدر أن تصبح يوما أنشط التجار. بالخط الكوفى تكتب على باب المحل: «رأفت البشلاوى» مناضل سابق. (الأدلة رصاصة فى الذراع اليمنى، ندبة فوق الحاجب. وطعنة سونكى فى الفخذ الأيسر). مستعد لتوريد جميع الشعارات لزوم الاحتفالات والمواكب والمقالات وشعر المناسبات الركيك. مؤلف كتاب «الطلقات فى مقاومة الآفات بأحسن الكلمات».

تناولت ملفا كان يرقد منزويا فى ركن المكتب. على غلافه «سرى جدا. المعلومات الواردة به تستخدم لأغراض مهنية ولا يحق لأى جهة الاطلاع عليها أو إستخدامها». ابتسمت ساخرا. كان عنوانه «بحث اجتماعى لحالة المريضة حكمت مسعود الصعيدى». قرأت تشخيص الطبيب لحالتها. «روماتيزم بالقلب. ضيق بصمام الميترال. درجة الاصابة - ٤». رتبت الأوراق القليلة فى الملف. تبدو كالزهرة، فكيف يكمن الموت فى قلب الزهور كالخديعة النكراء؟. يومها كان صبح كهذا الصبح. جلسة كهذه الجلسة. وترتيب أوراق كالذى أفعله. أول ما رأيته منها أصابعها الرقيقة. أمام الكتلة الخشبية التى تحمل إسمى فى مقدمة المكتب. خيل إلى أن بصرى يخدعنى. إذ كيف يتأتى أن تنبت هذه الأصابع فى لوح الزجاج الذى يغطى سطحه؟. رفعت رأسى فى فراغ الغرفة البارد. رأيتها. أطول من المكتب قليلا. شعرها أشقر يشع شمسا. عيناها خضراوان بلون الحلم. بشرتها رائقة، نقية. ملامحها دقيقة.. دقيقة.. قالت بدفعة:

- أنا «حكمت مسعود الصعيدى».

كدت أضحك. تقدم نفسها بوقار لا يتناسب مع سنها الصغيرة. ثمانى سنوات بالكاد. ملابسها فقيرة. بلوزة مشجرة. وجونلة صوفية قديمة.

شعرها مضفر بشرائط بلون البلوزة.

قلت :

- تشرفنا ياست «حكمت». لكن كيف دخلت هنا؟

قالت بصوت خفيض وهى تحيط فمها براحة كفها :

- أقول لك بشرط ألا تقول لأحد.

تملكتنى حالة نكوص طفلية. قلت وأنا أخفض صوتى مثلها:

- لن أقول لأحد.. هيه، كيف دخلت؟

قالت بابتسامة شيطان وليد :

- ضحكت على «خالة منيرة».. ودخلت..

نظرت إلى مقعد بجوارها كأنما تستأذننى لتجلس. قلت :

- أحكى لى.

نظرت إلى مقعد بجوارها كأنما تستأذننى لتجلس. قلت :

-إقعدى...

- متشكرة.. أصلى تعبانة شوية..

أتاح جلوسها فرصة لتأملها عن قرب. تبدو جميلة كزهرة غسلها ند الفجر.

قلت أستحثها :

- هه .. كيف ضحكت على التمورجية؟

ضحكت ضحكة طفلة آسرة :

- قلت لها الدكتورة «وداد» تريدك. جرت مسرعة. ففتحت البا ودخلت.

إبتسمتْ كأنها تشهدنى على ذكائها. قلت :

- أنت شاطرة.

- متشكرة ..

تبدو شديدة الأدب. قلت :

- جئت وحدك ؟!

- لم يرض أبى بالمجئ معى. شغل. جئت مع جارتنا. رفض «سعيد أفندى» أن يعطينا التذكرة. قال: إننا تأخرنا، ركبنا الأتوبيس وحياة ربنا. ومع ذلك تأخرنا.

تبدو عارفة لكل شئ. إسم التمورجية، و «الدكتورة وداد»، وأبلة «ضحى» الحكيمة أيضا. وسعيد افندى كاتب الاستقبال..

- أنت عارفة المستشفى جيدا.

- أصلى عيانة من زمان. جئت هنا كثيرا وأنا صغيرة. ثم انقطعت.. عايزة أكشف الله يخليك..

لهثت.. توقفت عن الكلام برهة.. طلبت لها شايا. ترددت قليلا ثم شربته. كان الجو باردا. الحجرة رطبة كأنها ثلاجة فاسدة الموتور. ثارت «منيرة» أرغت. أزبدت. جرت هى فى الحجرة. احتمت بالمقعد الذى كنت أجلس عليه. قالت «منيرة» :

- هذه قلة أدب، لا مؤاخذة يا أستاذ. لقد ضحكت علىَّ هذه الشيطانة.

قاطعتها :

- دعيها «ياست منيرة»، إذا ما جاءت بعد ذلك إدخليها فورا.

نظرت «منيرة» بعجب، قالت :

- لقد أرسلتنى للدكتورة «وداد»، وأرسلت الست «ضحى» الحكيمة إلى عنبر ٣ ثم دخلت الحجرة.

بحسم:

- انتهينا.. أين الدكتورة «وداد»؟.

- تمر على عنبر ٣.

- بمجرد عودتها أخطرينى..

مضت التمورجية. عادت هى إلى جلستها لاهثة. فى عينيها الجميلتين نظرة أسف، ربما لأنها لم ترو لى ما فعلته بالحكيمة. قالت بعد لحظة:

- ألن تكشف علىّ أنت.. هل زعلت منى؟.

ربت على كتفيها :

- لا.. لم أزعل.. ولكنى لست طبيبا.. أنا اخصائى اجتماعى..

بحيرة :

- مشرف إجتماعى يعنى، كأبلة «محاسن».. هل تعرفها؟ فى الضمان الاجتماعى بالساحل.

وبصوت حزين :

- رحت إليها كثيرا، طردنى الفرّاش، قلت لها يا أبلة نحن والله العظيم غلابة، وأبوى عجوز، وخالى شغل، وأختى «ليزا» عيانة بعقلها. كتبت الكلام، وقالت عودى بعد شهر، ولكن لم تصرف لنا شيئا.. مع أنهم صرفوا لأم محمود جارتنا اثنين جنيه مره واحدة..

***

إستقبلتنى الطبيبة بنظرة متسائلة. كانت تفحص عددا من رسوم القلب بعناية وتكتب قراءتها. شرحت لها الأمر. دعتها إلى منصة الفحص، ترددت قليلا قبل أن تستجيب لأمر الطبيبة بتعرية صدرها. ابتسمت. أدرت لها ظهرى. وقفت على ميزان صغير بركن الغرفة أزن نفسى. إستغرقت الطبيبة وقتا طويلا فى الفحص. بعد الإنتهاء منه. قالت بالانكليزية :

- حالة نموذجية لو ظهر رسم القلب كما أتوقع. «ضحى». «ضحى».

جاءت الحكيمة تتمايل، دست نظراتها بين عينى. قالت الطبيبة :

- إضبطى جهاز رسم القلب. سأجرى لها أشعة نظرية..

دعتها إلى جهاز الأشعة. بصرى المنهك يحاذر أن يصطدم بأرداف «ضحى». كانت تتحرك بحيث تصطاد أردافها بصرى، وهى منهمكة فى إجراء رسم القلب. تابعت ريشة الجهاز الصغير وهو يرسم الذبذبات، قلت أن ذلك كله يعنى أشياء، قد يكون بعضها مرعبا، كما يعنى الرسم البيانى لإزدياد وزنى. فهل هذا دليل على الراحة أم التبلد؟. رؤية صورة قديمة لنفسى تعنى أشياء كثيرة. ضحكت «كوثر» طويلا عندما رأتها. قالت : كنت رفيعا كبوصة، وحليقا، فما أجمل شاربك الدوغلاسى، وقلقا كما ينبغى لإنسان ضائع لا يجد من تلمه. أما الآن فها أنت تبدو مرتاحا. وإذا ما تزوجنا، إزداد وزنك، سيكون هذا شهادة لى بأننى زوجة ناجحة. فما معنى هذا كله؟. تعمل الطبيبة فى انهماك. «وضحى» تسلط أردافها الفاتنة، فأين قوات الدفاع التى تستطيع أن تصد هجوما يوجهه عقل اليكترونى، كذلك العقل الذى وجه غارات حلوان ووادى حوف؟.

فى الاجتماع الأسبوعى للقسم، قالت «الدكتورة وداد» :

- حوّل إلى الأستاذ «رأفت» حالة جديدة تدعى.. تدعى «حكمت مسعود الصعيدى»، وقد أجريت لها الفحوص الضرورية. وتكشف النتائج عن أنها حالة صالحة جدا لتضم إلى عينة البحث الذى تجريه.

تراشقت هى وعدد من الأطباء، وأستاذ القسم بالعديد من المصطلحات الطبية. كنت قد حفظت المصطلحات. أتقنت ترديدها دون أن أفهم معناها بالتحديد. لكن ذلك لا يبدو مهما. كما لا تبدو «حكمت» نفسها مهمة بالنسبة لهؤلاء جميعا. يتحدثون عنها كما يتحدثون عن فئران التجارب وكلابها. ولكن من يعانى حقا ما تعانيه؟. من يلهث كما تلهث، يصاب بالدوار. تتقطع أنفاسه. تضيق. يصفر وجهه. تهرب الدماء منه. تمتلئ بالأورام كل مساحة من جسده. الاجتماعات تبدو جميلة: رجال منمقون يؤدون أدوارا فى مسرحية بلا معنى، يكررون ألفاظا يحفظونها عن ظهر قلب. فلماذا لا يضعون أقنعة فوق وجوههم؟. متى تخلعين هذا المعطف الملائكى الأبيض يا دكتورة «وداد»؟. مشوق أنا لدفء اللحم الذى يغطيه

معطفك الثلجي هذا. بدت الفكرة يومها سوداوية ومتشائمة، كفكرة محل التجارة التى تعايث نومك وأرقك، فمتى يذهب هذا الليل الساجى ويأتينا الضحى؟. لا تنقص أحدهم الجدية. حتى «وداد» نفسها، يبدو كل شئ عندها وقودا لأبحاثها. لا ألوان ولا أصباغ. فى أحيان متعددة تنسى نهائيا أنها أنثى، رغم جمالها الذى يبدو صارخا. ولتقر بأن هذا جميل وعظيم. لكن شيئا ينقصه حتما، فما هو؟. آه. ها قد تذكرنا القط فجاء ينط.

رفعت رأسى عن الملف. أغلقته. كانت قد وصلت إلى منتصف الحجرة، قالت :

– صباح الخير يا أستاذ «رأفت». سأشرب قهوتى عندك. احتل الأستاذ وأطباء الإمتياز العيادة والمكتب. ولدى عمل هام.

سحبت مقعدا. جلست خلف منضدة متوسطة الطول. تبعتها «ضحى» بعدد من الملفات. جلست على مقعد أمامها. تحولت المنضدة إلى سوق. أشعات. أوراق رسم القلب. ملفات. مقص. زجاجة صمغ. دباسة. انهمكتا فى العمل. اصطادت عينا «ضحى» عينى أكثر من مرة. برقت منهما نظرات عرفان وتشجيع. أصبحنا خبيرين فيما يبدو بلغة العيون. النظرة داعية فما الذى يصدنا؟. أهو الاشمئزاز من كل شئ؟. تخفى «وداد» جسدها بمعطفها الأبيض ونظارتها الطبية. شعرها مكوم فوق رأسها. قلت أن البحث عن الأنثى فى هذا الكيان الوقور المتبتل فى معبد العلم يحتاج إلى مجهود. ها هى العين تصطاد ما لم يستره المعطف من ساقيها. يشير الجزء الأخير من الساق بأن الفخدين ممتلئتان ودسمتان، القاعدة فى رأسى تقول إذا كانت المنطقة من الركبة إلى القدم كالهرم المقلوب فهذا يعنى أن الأفخاذ دسمة ولينة. الجلد أبيض ولامع. فكيف تلتف هذه الفتنة المتفجرة بهذا الاهتمام الوقور بالأشياء؟. ها أنت متلبس بفكرة إقطاعية رجعية تنتمى إلى العصر الوسيط.. فهل هى كذلك حقا؟. أم أنك مشوق للبحث عن الإنسان داخل هذا الكيان الذى لا يرى البشر سوى موضوع لبحث دون أن يخفق قلبه للعذاب الذى يقاسونه. لو قدر لك يوما أن تعريها من كل هذه الأقنعة،

فماذا أنت فاعل؟. أقسم بمن شاءت مقاديره أن يحيل ثوريتى إلى المعاش قبل الأوان لأضربنها بالسوط قبل المضاجعة. هى وحدها التى تعرف حقيقة المرض وخطورته. إرتفع اهتمامها بحكمت إلى الذروة، بيد أنه كان فى الحدود التى ترسمها لكل شئ.

– إنها حالة نموذجية كما قلت لك، تتفجر بدلالات خطيرة وهامة. وإذا صح ما أفترضه فإنها تصلح موضوعا لمقالى السادس للمجلة الطبية الأميركية.

آه، أين السوط يا أولاد الكلب؟!. وحياة قمع السكر المقلوب الذى ينم عن جمال الفخدين، لأضربنك بالسوط وأعلمنك العذاب الحقيقى، وليكن ذلك آخر أعمالى الثورية.

رفعت رأسها. لوّحت بملف فى يدها. قالت :

– يا أستاذ رأفت. فتحنا ملفا طبيا لحكمت الصعيدى. وقد تضخم كما ترى، فهل تضخم الملف الإجتماعى أيضا؟.

آه «الملف». سرعان ما تحولت إلى أوراق. فكيف تتحول نظرة العين الساجية إلى ورقة؟. والبسمة والغمازتان الرقيقتان فوق الوجنتين؟. أدركونى بأدوية «الضغط» و«المرارة». قلت :

– أنت نشطة جدا يا دكتورة وهذا طبيعى، أما بالنسبة لى فقد أجريت مقابلة مع الفتاة نفسها وحصلت على بعض المعلومات القليلة، ولكن المفيدة فى الوقت نفسه.

أو مات برأسها. قالت :

– هذا جميل.. وبالطبع ستزور أسرتها فى المنزل..

– نعم.. وضعتها فى خط سيرى هذا الشهر، بعد حوالى عشرة أيام.

ناولتنى الحكيمة بإشارة منها بعض صور الأشعة. قالت :

– هذه صور الأشعة الثابتة. وتقارير عن آخر سرعة ترسيب للدم أجريته لها، وهو مرتفع جدا.

تتكلم بحماس. تنسى أننى لست طبيبا. أخذت أتامل صورة الأشعة وقد رفعتها أمام عينى. ها هو قلب «حكمت». مجرد صورة، لا تتكلم معى لأن عينيّ لا تحسنان لغة الكلام على اللدائن البلاستيكية الشفافة. أين الضحكات والبسمات التى تملأه؟. أين الخوف والجوع وصراخ «ليزا»، أختها الذاهبة العقل؟. وأين أقدام «عم مسعود الصعيدى» المتشققة من الحفاء طول العمر؟. وأنا أحرك وجهى لاتظاهر برؤية الصورة، نفذت نظرتى عبر مسطحها الشفاف، فى منطقة مغبرة، رمادية، لتلتقى بعينى «ضحى». آه هذا هو الكلام واضحا فيها وبلا تردد. هذه النظرة - كما يقول قاموس النظرات الذى أعرفه - تعنى دعوة للرقاد فوقها. قلت أغيثونى يا شرطة الآداب، ها هو تحريض علنى على الفسق، وبيننا قلب مريض تغيض بسماته، ومحراب العلم أمامنا يرتدى معطفا ثلجيا، فليتعظ أولاد الكلب، ولتضعى فى عينيك الفتاكتين حصوة ملح، فإننى حزين وملول، مقتول وقاتلى علامات استفهام لا تنتهى.

قالت الدكتورة بلهجة نحاسية :

- القلب متضخم جدا... هل تعطينى فكرة عن ظروفها الاجتماعية؟.

ناولتها الصورة. قلت :

- التفاصيل التى عندى قليلة جدا. تعيش مع أخت كبرى مريضة عقليا فيما يبدو. الأم متوفاة. الأب شبه عاطل، ويعمل أعمالا متفرقة ويسكنون «عزبة الورد»..

كانت تكتب. قالت :

- «عزبة الورد»؟. إسم جميل.

أجل «عزبة الورد». وإلاّ لما بدت هكذا مزهرة ونقية، طهوراً كحبات الندى المؤتلق فى ضوء الفجر..

دق جرس التليفون. كانت «كوثر». قالت بلهجة تقلد فيها ممثلة سينمائية :

- أنت غاضب منى؟!.

توشحنا بالصبر.. اللهم طولك ياروح.

- لا أبدا.. تعرفين أننى لا أقدر على إغضابك.

لاحظتا أننى خفضت صوتى، تظاهرتا بالانهماك فيما بين أيديهما.

ألقت «ضحى» نظرة أربكتنى. أعطيتهما ظهرى بحركة غير ملحوظة. قالت هى :

- ولكنك كنت المخطئ..

طرأت الفكرة على رأسى فجأة. قلت بلهجة عاطفية :

- ليس هذا هو المهم الآن، لا أريد أن أسافر وبيننا غضب.

قالت :

- تسافر؟ إلى أين؟

- واحد قريبى مات فى الجبهة. سأحضر تشييع الجنازة. وسأبقى هناك أسبوعين تقريبا.

صاحت على الطرف الآخر :

- غير معقول، هل أحرم من رؤيتك أسبوعين كاملين؟

أبهجنى كلامها. هل آن أن تقر أن برنامج «دروس فى السعادة الزوجية» هو أنجح البرامج على الإطلاق؟. هل تسرى الحرارة فى أيامنا الرطبة؟. لندع الله ألا ترى الحلقة التى أعدتها بنت خالتها، وإلا إفتضحنا وانقلب علينا قصدنا. قلت :

- تعلمين أننى لا أطيق البعد عنك. ولكنها الظروف.

قالت فى إستسلام اليائس :

- ومتى تسافر؟

- الليلة.. قطار الثامنة والنصف.

قالت فجأة :

- هذا يعنى أنك لن تحضر احتفال رأس السنة.

- للأسف!
- هل تأتى لتودعنى قبل السفر ؟.
طاقتى على التمثيل تنفد، فاللهم إمددنا بعونك. قلت :
- لن أستطيع. ولكن سأكون فى المحطة فى الساعة السابعة والنصف. هل تأتين؟
قالت :
- نعم.. سآتى ..

وضعت السماعة. فى نهاية المحادثة، كان صوتها متهدجا كالموشك على البكاء. فهل هو جزء من التمثيلية أم أنه صادق؟. فركت كفى مبتهجا. ها قد نجحت الخطة. تحياتى لك أيتها التليفزيونية الشقراء، السمراء، رغم الكراهية المتبادلة. ولولا أنك زوجة صديقى، واسمك مطابق لاسم تلك الممرضة الدائمة التحريض على الفسق العلنى، لكان لنا معك شئ آخر.

فى المكتب المقابل.. كانت الطبيبة تنظر بتمعن إلى رسم القلب.
قالت :
- أشك فى أن هناك شيئا ما فى «الأورطى» أيضا..
باخت فرحتى.

٢ الممثلــون

فى الثامنة والنصف تحرك القطار ولم تأت «كوثر». أوشكت على الانتحار كمدا لتخلفها عن وداعى. قفزت من القطار قبل أن يغادر الرصيف تماما. قلت أن الطقوس التى رسمتها لحفلتنا الوثنية لن تمارس. فيا للأسف.. ضاع جهد اليوم هدرا. كانت ستأتى فتجدنى قلقا أدخن بشراهة. أقف معها قليلا. تسألنى لماذا أسافر فأقول : واحد قريبى، مات، قتلته إحدى الغارات

على السويس. تنزعج. كيف؟... لا تسافر. الصحف تزعق بأن أطنان القنابل تلقى على المدينة. هل أنت مجنون؟. أصر على السفر. لابد... الواجب يحتم هذا. والخطر؟. ليس مهما فى سبيل الواجب. أنت أعز شئ عندى. أرجوك.

إذ ذاك ابتسم بسمة غامضة. أقول :
- لا تخافى علىّ يا حبيبتى..

أقبلها علنا وعلىّ هذا الرصيف. تلصق جسدها الشهى بجسدى. تذوب فىّ. تمرغ وجهها كالقطة فى صدرى، تشرق عيناها بالدموع، أقبلها. أقفز إلى القطار وهو يمضى. تقف هى على رصيف المحطة، تصرخ : أكتب لى. أقول ببسمة من لا يهمه الخطر: كل يوم، إطمئنى .. سأعود. يمضى القطار. يغادر الرصيف، يبتعد شبحها الرقيق، يغيب فى ظلمة البعد والليل.. تلوّح بمنديلها الصغير. ألوح بيدى. عند قليوب، أغادر القطار، أعود بالاتوبيس إلى بيتى، بعد يومين أتصل بها، لا بعد ثلاثة. أو أربعة. أقول: عدت يا حبيبتى. لم أطق البعد عنك.. فلترينى شطارتك أيتها التليفزيونية المتعجرفة. هل يستطيع خيالك القاصر أن يرسم هذا «الإسكريبت» المتقن؟. صحيح أنك صاحبة الفكرة، ولكنى مطورها ومنفذها، وغدا سأبيعها فى محلى التجارى ذاك الذى سأفتتحه.

ها هو كل شئ قد فشل. سقطت حفلتنا سقوطا ذريعا.. فهل تشمت بى «ضحى» التليفزيونية؟. يا له من يوم «بلوندى» مظلم. فكرت أن أنتظر القطار التالى. ساعة أخرى لا تضر، وربما تأتى.. آنذاك تغير قليلا فى الحكاية. ما رأيك لو زعمت أن قريبك هذا قد ترك أرملة شابة تحتاج رعاية. ولتدس فى الحديث ما يفهم منه أنها أرملة جميلة، وأنه كان بينكما ود قديم، حب أم ود؟. تتركها عائمة هكذا وتترك خيالها الشكاك يؤلف ما شاء. هذه فكرة أطرف.. سيزيد قلقها عليك ولهفتها. ثم أنه عقاب

تستحقه على إخلافها الموعد. أدرت قرص التليفون برقم منزلها. قالت أمـ
أنها خرجت قبل ساعتين ولم تعد.

فى شباك التذاكر، نظر إلىّ «التذكري» دهشاً. سألنى لماذا
أسافر:

- فاتنى القطار.

نظرته عجوز، كلامه مجهد كوجهه، طاقم أسنانه قد بلى...

- ولكنك أول من وصل إلى هنا، زاحمت، تشاجرت حتى تقطـ
لنفسك تذكرة، ألقيت علىّ محاضرة حول مصالحك التى ستتعطل إذا
تسافر..

إبتسمت. ناولته التذكرة لكى يجعلها صالحة للقطار التالى:

- قطار التاسعة غير ممكن، إنه قطار حربى، مخصص للجيش فقـ
هناك قطار آخر بعد ء بنصف ساعة.

- لا مانع..

تابعت حركة يده المرتعشة وهو ينتزع جزءا من الآلة، ليغير
القطار. قربها من عينه جدا.

- أنت فى حاجة إلى نظارة طبية.

ضحك، كان ما يزال يعالج الآلة. قال:

- لا فائدة.. أرى بدونها خيرا مما أرى بها. أكلنا الزمن وانتهينا..

ضحكت..

- لا تبدو عجوزا جدا..

- مجاملة طيبة ولكن لا تغير الواقع.

- صحتك جيدة فيما أرى!

- لم أحاول أن أفحص نفسى. أخشى أن يقول الطبيب كف

العمل. وهى كلمة لا تكلفه شيئا سوى ثانيتين من وقته. ولكنها تكلف من كان مثلى فى رقبته كوم من اللحم، أشياء لا حصر لها.

إنهمك فى إعادة الجزء الذى انتزعه. قلت أقسم أن قلبه مريض، وأن هناك جلطة فى الشريان التاجى، وسيولة دمه صفر. قال:

- لم يفتك القطار.. فلماذا لم تسافر؟

فكرت لحظة، قلت:

- كنت أنتظر من يودعنى، لكن لم يأت أحد..

أحنى رأسه ليرى جيدا المكان الذى سيعيد فيه الجزء المنتزع من جسم الآلة. تحسسه بأصابعه. قال:

- عملت فى هذه المصلحة أربعين عاما.. بدأت عطشجيا ثم كمساريا، سافرت آلاف المرات، لم يكن فى وداعى أحد على الاطلاق، واستقرت بى الحال هنا بعد أن غدرت بى الصحة.

أخيرا استقر الجزء المنتزع بمكانه من الآلة. كان يخفى صلعته من البرد «ببيريه» ناحل اللون، متسخ. وضع التذكرة على طاولته الرخامية. لهث بشدة. أخرج علبة دخان صفيحية وورقة رقيقة وأخذ يلف لنفسه سيجارة. أردف:

- لم يكن يودعنى سوى صوت أمى الله يرحمها. كانت سيدة طيبة، كان صوتها يتصاعد بالدعاء لى فى أى وقت أخرج فيه. فى الصباح، فى الظهيرة، وحتى فى الفجر. كانت كفيفة. ولكن قدرتها على اكتشاف أقدامى كانت قدرة غريبة.. غريبة..

إنتهى من لف سيجارته، أشعلها. تناول التذكرة وضعها فى الآلة.

قلت:

- وكيف كانت تدعو..

إزدرد نفسا من سيجارته الهشة. كاد يأتى عليها. قال:

- آه كانت تقول : روح الله يكفيك شر سكتك يا بنى..

ابتسمت. ساذج هو الرجل كأمه. عجوز ومخرف مثلها. وكنت أنتظر أن يقول حكمة بليغة، تمخض الجبل فولد إبتذالا وتكرارا..

قلـــت :

- هذا دعاء معروف.. كل الأمهات.. تقلنه، ولا أدرى أى شر يقصدن. تنهد...

- إسكت يا أستاذ.. أنت شاب ولا تدرى شر السكك، الله لا يريك ولا يحكم لا على عدو ولا على حبيب. أمثالنا فى رقبتهم كوم لحم، عيال كالفراخ والحمام الصغير، لو سقط الواحد منا تعرى لحمه، جاع، استجدى، شرب الذل حتى أطراف الأصابع..

فى لهجة العجوز أحسست برعب غريب. خفت :

- التذكرة من فضلك ..

وهو يناولنى التذكرة..

- آه.. الساعة الآن التاسعة وصل ٩.٨ وهو الحربى.. أ

المواعيد دون نظر إلى ساعة.

ما كدت أخطو خطوتين، حتى سمعت صوته، مناديا :

- يا أستاذ.. يا أستاذ..

رفعت رأسى إليه :

- إسمع .. قطار التاسعة والنصف هو آخر قطار حتى المساء. إذا

تأت.. سافر وتوكل، الله يكفيك شر سكتك.

هدأت خطواتى.. على الرصيف، كان الجنود ينفلتون فى سر

خارقة. يبتسمون. تأملت وجوههم. قلت أنهم صغار جدا، ومبتسمون. ألقى

واحد علىّ السلام ولم أكن أعرفه. رائحة غريبة فى أجسادهم لا تدرى ما هى بالضبط. لكنها تشبع الدفء فى هذه الليلة الباردة. ضحك واحد من بعيد

قال الآخر : أجازتى ٤٨ «س» أقابلك «سعت» ١٣٠٠ بكره. مصطلحات

عسكرية. أعرفها جيدا. لغتهم غريبة. ملابسهم صوفية خشنة، فهل يمكن أن تدفئ هذه المحطة الواسعة؟. أحذيتهم ضخمة تدق الأرض فى صلابة. قال حمّال عجوز من الرصيف البعيد «عاملين أيه يا ولاد؟» واحد : يمب. آخر : فولاذ. ثالث : الحديد بلى، واحنا لم بلينا. الحمّال : جدعان. واحد : إزيك يا «عم بدوى». كما تركتمونى فى الشهر الماضى. أنتم من أى سرية؟ . الله نسيت يا عم بدوى. ذاكرتك ضعفت. عجّزت وراحت عليك. جاء يلهث من الرصيف الثالث، قفز وصعد: بالأحضان. كيف حالكم يا ولاد؟. قلنا عال. عملتوا إيه الجمعة دى؟. ألم تسمع الاذاعة؟. سمعت، الضرب كان جامداً جداً. ولا يهمك، أجمد، كله فى الحجارة وشرفك يا «عم بدوى». هدموا السويس أولاد الكلب، بركاتك يا سيدى الأربعين. قلنا لا نهتم، كله فى الحجر. نحن الذين بنينا ونحن سنبنى غيره. يا عيال أنتم لا تعرفون غلاوة السويس عندى. أخذت من لحمى طبقات. الشباب، والرجولة، والكهولة، أجدع رجاله، وامتع النساء أطيب الأمهات، إلهى وأنت جاهى، بحق محمد حبيبك، لا تمتنى قبل ما أشوفك يا سويس منصورة، ورأسك مرفوعة. هل ستخطب. يابن الكلب أنت وهو، عمكوا «بدوى» لا يخطب شيّلنى، أنت وهو. هات ما بيدك. وأنت. وأنت. وأنت.

- أنا لأ.

- ليه؟.

- أنت يا عم بدوى ترفض أن تأخذ نقودا مقابل المشال.

- سبحان الله. هذه هى الشبل. يا جدعان يا عالم. يا هوه. إنت مستجد؟. إنت كركى؟!. قلت ألف مليون مرة، على نذر لسيدى الأربعين وستى الطاهرة لا أمد يدى وآخذ قرشا من العسكرية. أنا يا ولد أنت بايع نفسى للجهادية.

إسأل قائدك. أنت فى سرية من؟. اسم الملازم بتاعك أيه؟.. كل عساكر وضباط خط القتال عارفين أن «بدوى» لا يأخذ نقودا من العسكرية.

الضباط من ملازم للواء عارفين. المرحوم «عبد المنعم رياض» بنفسه كان عارف. أنت تهزأني. تهين شيبتي. أنت كركي ياولد. مستجد. من أجل قرشك الماسخ أمرغ شرف العائلة في التراب. إسأل كل خط «الكتال»، «بدوى أبو مصطفى» يبقى مين أبوه، مين جده، ياوله دأنا جدى لم «البياض» لعرابى، شال القمح والذرة وحتى التبن والفراخ والبيض، ووصلهم لحد المعسكر فى التل الكبير. إحنا بعنا نفسنا من جدود الجدود للجهادية، عمرنا ما قلنا هاتوا. حاربوا إنتوا، إحنا كتفكم. رصاصة البندقية. ومقام المصطفى لولا أنك كركى لاشتكيتك للقائد العام ذاته.

– الله. اهدأ يا عم بدوى. على مهلك. بالراحة. الجدع لم يقل شيئا. الذى لا يعرفك يا سيدى بجهل مقامك. حقك علينا. وآدى رأسك.

– طيب. خلاص. تعالى يا «دفعة». لا تزعل من عمك بدوى. هات ما معك من أحمال. أقولك نصيحة. إذا كنت متزوج أطلع إلى الجماعة معتدل مارش. مازحهم. هارشهم. كلمة فى حدوته. الليلة ليلة الجمعة. فاهم يا قفل. لا تكن «كركيا» فى العسكرية وفى السرير. الست تنتظر رجلها الغائب بشوق، لا تكن خائبا. معتدل مارش على طول. المرحوم «عبد المنعم رياض» نفسه وعدنى أن يسمى إبنه «بدوى». مرة قلت له. يا أبو رياض إيه أخرتها. قال اصبر يا بدوى. قبل ما يموت بجمعة كان هنا؟. جريت. شلت له الشنطة. قال لى : إيه رأيك يابدوى؟. قلت عال شدوا حيلكم. سألنى: يعنى مبسوط. شرقت عينى بالدموع : ألا مبسوط. مبسوط قوى. سيناء دى غالية علينا قوى يا «أبو رياض»، دى أكلت لحمه ياما، الواحد منا يعيش ويموت يأكل بالكاد عشرة كيلو لحمة ويمكن أقل، دى واكله بيجى نص مليون كيلو لحمة، دا غير الدم، بعد ده كله نفرط فيها. قال : لا تخف يا بدوى. يومها عزم علىّ بسيجارة. زعلت. قلت له يا «أبو رياض» دانت كلك نظر. أنت تعرف أن «بدوى» لا يأخذ شيئا من العسكرية. طبطب على كتفى وقال: أنا عارف. دى مش أجره. دى تحية. يصح أحييك بسيجارة. وترفض تحيتى. مقبول يا جدع. سألته: أنا قرأت فى الجورنال إنك عازب. ليه؟.

تبسم. قال. ما خلاص بقى يا «بدوى». قلت له : لا.. كله إلا ده يا «أبو رياض»، الرجاله لازم تخلف رجاله. قال : بعد ما نخلص بإذن الله نبقى نشوف. قلت له : حلفتك بالحسين تسمي إبنك «بدوى». قال : على عينى. الله يرحمه. كان دكر. يا سلام يا ولاد. ودينى وما أعبد السيجارة معى حتى الآن، ما دخنتها، شايلها حرز... هه.. معتدل مارش يا ولد على الجماعة طوالى. غدا مساء «عد كما كنت» أحكى لعمك «بدوى» ما حصل. والحق السويس.

التقطت عينى المهاجرة خلفهم شبح «كوثر»، عند مدخل الرصيف. شفتا حبيبتى كالكريز فى أوان النضج. شهيتان مضمومتان، فإذا انفرجتا بلا كلام، حركتا فى القلب أشواق الاحتضان والذوب والموت حبا. فإذا ما تكلمت باخت الأشواق، واغتيلت الأحضان، وآن لنا أن نموت قرفا. قالت إنها تأخرت عن وداعى لأنها كانت عند الكوافير، زمتهما، أردفت:

– أنت لا تعرف «ميمى».. كان اليوم مشغولا جدا، يعد لتسريحات رأس السنة وقد رجوته أن يقدمنى على زبونة أخرى، وتطلب ذلك وقتا. «ميمى» لا يحب هذا. ألححت. كدت أقبل يديه. وأخيرا وافق. مدهش جدا «ميمى»، لذلك تأخرت.

لم أكن قد وضعت ذلك المشهد فى طقوس حفلتنا الوثنية. وأيضا فإن عبارة «روح الله يكفيك شر سكتك» كانت تطن فى رأسى كذبابة زرقاء ملحاحة وبشعة. ومتى يصل الجندى الصغير إلى منزل زوجته؟. قلت أتلو نص الحفلة كما وضعته :

– كدت أسافر دون أن أودعك..

أبدو كممثل ردئ الحفظ :

– لم يكن من الممكن أن آتى لأودعك وشعرى ليس فى «الفورمة». ما رأيك فى هذه التسريحة؟

– آه، جميلة.. جميلة جدا..

لفت معطفها ذو الياقة الفرائية نظرعدد من الناس. وكيف غطت روائح الجنود عطرها النفاذ.

- لماذا تسافر؟.

- قريب، استشهد فى الحرب، أريد أن أشيعه.

ألقت نظرة على نفسها فى مرآة موضوعة على الرصيف لشحنها. قالت :

- ألم يجد وقتا يموت فيه إلا هذا. حفل رأس السنة فى الطريق لماذا لا تكتفى بإرسال برقية؟.

كنت أفكر لحظتها فى أن هناك أنواعا من أنثى الحيوان تفرز رائحة لاجتذاب الذكر، تضاجعه وتأكله بعد المضاجعة.. قلت فجأة:

- هذا أفضل

خرجنا معا.. ونحن نهبط السلالم إلى الفناء :

- يجتذب جمالك الأنظار.

بنظرة مباهية :

- هذا طبيعى.

بدفعة قلت :

- لنفرض أن ميمى كان قد رفض.. فهل كنت تتخلفين عن وداعى؟

- لا أدرى، لا يمكن أن أدعك ترانى وأنا لست فى «الفورمة»!

كانت كفها فى كفى. لاحظت فجأة أنها تلبس قفازا صوفيا. فتحت قبضة يدى. سقطت كفها من قبضتى :

- ماذا حدث؟

- لا شئ.. خشيت أن تعرق يدى فيتسخ قفازك.

***

قلت أن علىّ أن أبحث عن قناع يصلح لحفلة رأس السنة. وفى المساء كانت «ضحى» تشرف على تعليق الزينات ونحن فى الصالون. ذهبت وجاءت وأصدرت ألف أمر. سلمت علىّ بفتور. تحدثت عن حلقة جديدة من برنامجها. كانت سمراء فى تلك الليلة. وهذا يعنى أنه يوم الأحد. أخذت أتابع نتيجة العام فى رأسى لأعرف ما ستكون عليه ليلة رأس السنة. قلت أنها لابد ستفاجئنا بشئ جديد. وغالبا ستكون خضراء الشعر، وربما حمراء. ضحكت لخاطرى. أنهى «حسين» مكالمة حول ماكينات رى سيشتريها. والأرقام بالألوف. وضع السماعة. قال بارتياح :

- خمسة آلاف جنيه بمكالمة تليفونية.

نظرت إليه. ظن نظراتى إنبهارا فى الغالب. قال موضحا:

- لا شئ. منذ ساعة كلمنى عميل يطلب مئة ماكينة رى. سأل هل عندك. قلت عندى. بصراحة وأنت لست غريبا. لا يوجد عندى شئ. ولكنى أعرف الذين عندهم. وهذه المعرفة فى عرف التجار رأس مال. اتفقت معه على السعر. بتليفون آخر اتصلت بمن عنده الماكينات اشتريتها وأمرت بشحنها إلى طالبها. الفرق خمسون جنيها فى الماكينة الواحدة، مكسب صاف أربعة آلاف جنيه وتسعمائة وتسع وتسعون جنيها، وستة وتسعون قرشا، بعد خصم قيمة المكالمتين التليفونيتين بالسعر التجارى!

هنأته بذكائه. قال وهو ينظر إلى النيل عبر زجاج الشرفة :

- أرجو أن تعقل وتترك عملك السخيف هذا. وتأتى للعمل معى. سأعينك مديرا لمعرض شارع عدلى مرتب خمسون جنيها وعمولة ٥٪ كبداية..

قلت وأنا استعد للخروج معه :

- أشكرك على هذا العرض الذى لا أوافق عليه.

قبل أن يقف المصعد أمامنا قال :

- ستناقش الموضوع. ولكن لا تقل أنك ستعود إلى «شقاوة» أيام زمان!.

إبتسمت ولم أرد. حياه البواب باحترام يليق بصاحب العمارة. قلت أن صداقة صاحب عمارة شئ مفيد جدا، وإلا ما حلمت يوما بالسكن فى هذا الحى الراقى، فضلا عن الدعوات المتعددة للغذاء وللعشاء. وأيام زمان لم تكن هناك فروق. مقعد واحد فى مدرسة إبتدائية ثم ثانوية بالسويس. فهل تظن أن مجهودك فى كتابة مواضيع الإنشاء له تساوى هذه التسهيلات التى يقدمها؟. وحذار أن تنزلق أقدامك فتراك التلفزيونية اللامعة مجرد واحد من «محاسيب العائلة» تخلع عليه ثياب زوجها القديمة. بينى وبينها ود مفقود. ومرة شكا «حسين» من أنه يفقد متعته معها فى الفراش، لأنها تمارس الحب «بالباروكة»، وهو يحلم بالعبث فى شعرها، بأن يقبله. يحمله توترات شوقه ولهفته. وبرغم الود المفقود فقد أهدتك بنت خالتها. وشجعت إرتباطها بك. فلماذا؟. تحركت السيارة بنا. أخذت أتابع العروسة القوقازية المتراقصة قال :

- ماذا قلت فى إدارة معرض عدلى؟

- يفتح الله.

أشعلت له السيجارة :

- لا أهزل. أنا أقدم العرض باسمى وباسم «ضحى».

«هل هو عرض تليفزيونى»؟.

- لا أفهم..

- أنا رجل تاجر، وأحب الكلام المباشر. ونحن قبل هذا أصدقاء قدماء، وأذن فلأدخل فى الموضع مباشرة.

- أعلم وتعلم أن بينى وبين ضحى وداً مفقوداً. فما شأنها بالموضوع؟

ابتسم. دخل زحام شارع ٢٦ يوليو :

- هذا طبيعى، أنت صديقى، وهى تخشى أن تجرنى إلى ما تسميه هى «شقاوة» زمان، فهى تعتبرك متطرفا وهداما، وأفكارك تخرب البيوت العامرة. وهى تعلم أن صداقتنا قديمة، وليس من السهل فصمها. وقد ظنت أنها وقد أهدتك «كوثر» ضمنت أن تعقل، ولكن يبدو أنها غير واثقة تماما، ثم هى تريد أن تهيئ لكما دخلا مناسبا. ومن ناحية أخرى فأنا أبحث عن إسم أقدم عطاءات مقاولاتى متسترا به، فالضرائب أصبحت جزارة، والحكومة بدون مؤاخذة ولا زعل، وبدون التعرض لعواطفك نحوها. بنت كلب، وما أسرع ما تصدر قرارات التأميم!

صمت، قلت أدركونى يا عالم. ما آخرة هذا «الضحى» المظلم، فى المستشفى تحريض علنى على الفسق، وفى المنزل تحريض على الخيانة الوطنية؟. فمتى يدركنا الليل إذا سجى.. سرحت فى العروسة القوقازية :

- فكر.. جيدا ورد علىّ...

بعد لحظة :

- تهتم بهذه العروسة كثيرا.. ألأنها من بلاد أصحابك؟

- أنها طبيعية جدا، وهذا كل شئ. إنظر، أنها دمية، ومع ذلك فهى لا تلبس باروكة..

شددت شعرها.. لأؤكد له قولى. شعرت بضيق مفاجئ.

وهو يمر عبر شارع رمسيس تذكرتهم..

- انزلنى هنا.

- إلى أين؟

- تذكرت أن لدىّ موعدا..

مضى.. تركنى وحيدا على الطوار.

٣ الامعاء الغليظة لمدينة سياحية

في المقهى كانوا متجمعين كما توقعت. شاي. شيشه. قهوة على الريحة. غارة حلوان الأخيرة ، زفت، لا تصدق ما يقال عن أن المدنيين لم يصابوا. هناك مئات القتلى. أشاعات فلا تصدقوها. ولنفرض أنها حدثت لا بهم. لا حرب بلا قتلى. يقتلون المدنيين في فيتنام بالمئات كل يوم ولا أحد يولول. ملعون أبو «نيكسون» الكبير. وحياة النبي سنكسر رجله ورجل الذين وضعوا تقاويه. يقال أن غارة «حلوان» الأخيرة قتل فيها عشرون. كذب. إشاعة. يا أولاد الأفاعي كلامكم يندرج تحت بند تخريب الروح المعنوية. فهل تحفظون نصوص قانون الطوارئ أم أنكم تخرفون والسلام؟. أنت عكننة رسمية يا أستاذ «رأفت» فماذا أتى بك، اليوم ونحن لم نرك من زمان؟. أوحشتني مقاهي السويس وقلت ألقاكم هنا. أجدر بنا أن نسمى هذا المقهى : قهوة أبطال الشعب. اقترح أن نسميها إسما حديثا مودرن، مثلا نسميها «السويس ٥٦ »، ليكن أبطال السويس ٥٦ سابقا. كنا أبطالا حقا يا أولاد الكلب. لم تنشر جريدة صورنا، ولكنا مع ذلك أبطال. شيش باك. جهاردو. مارْس ياروح أمك. يا أستاذ «رأفت» من ينظر إليك يحسد المهاجرين. أنت دعاية سيئة قد تغرى الحكومة بإنقاص الاعانات. هل تعرف إخصائيا اجتماعيا بوزارة الشئون إسمه «خليل عطية»؟. نعم دفعتي. لا يمنى على ورقة وقلم. أكتب توصية. حفيت قدماى. دفعتكم، لا مؤاخذة زفت. قطران. البنت حبلت هي وأمها في شهر واحد، فأبشركم بخراب بيتي. هذا دليل على نشاطك الزائد أنت وزوج بنتك، فتهنئتي للمرأتين بما حباهما الله من حظ تحسدهما عليه الكثيرات. ولكن هذا الحظ ينتج عنه نتائج سيئة. لا حلاوة بدون نار، وهذا عقاب من المولى لكم على إغراقكم في الملذات. كنا أبطالا سنة ١٩٥٦ وأحلنا الآن على المعاش. إسمعوا فصل الخطاب، لا أحد يمنع أحدا أن يكون بطلا. ولكنهم هجّرونا. حياة النساء

والأطفال ليست لعبة. ولكننا لسنا نساء ولا أطفال بدليل أن زوجتي وإبنتي حبلتا في وقت واحد. الطابية في خطر فاحذر. الصبر طيب، ستكش الملك حالا. لم يعد لديك ولا عسكري. كنت أحمى مؤخرة الولد الذى ألقى القنبلة على «ويليامز». يومها رقصت. في المرة الماضية خدمتهم الظروف فلم يتقدموا إلى السويس، وإلا كانت نهايتهم. بمناسبة أن زوجتك وإبنتك قد حبلتا أنصحهما برؤية برنامج «دروس في السعادة الزوجية» على القناة خمسة، تقدمه الست «ضحى» بنت السويس، شجعوا منتجات السويس. شئ ظريف أن تلقن السويس بقية البلاد دروسا في السعادة الزوجية. آيه سعادتنا الزوجية أن البنت وأمها حبلتا في وقت واحد. قل لي هل تتفق الأم والبنت على مواعيد الخلوة الشرعية؟. مية مسا على أهل السويس. رجاله وعهد الله. بيوتنا صارت أحجارا ونحن نلعب الطاولة. أذكركم بقانون الطوارئ رقم ١٥٨ لسنة ١٩٥٨. أنت عكننة رسمية يا أستاذ رأفت. الحصان في خطر وهذا يعني أن الدور على الملك. ولو سأهزمك ولو كنت الزناتي خليفة. كيف حال «حسين بيك»، ما رأيكم لو بحث لنا عن عمل، أو تبحث لنا الست «ضحى» عن دور تمثله في التليفزيون». هم يمثلون أما نحن فنموت. «حسين» ساعدنا في سنة ١٩٥٦. اشترى لنا سلاحا وهربنا في عربته. فعل ذلك لأنه صديق الأستاذ «رأفت». على فكرة بنتي مريضة وسآتيك بها المستشفى قريبا. نشر «حسين» بيك اعلانا في أهرام اليوم يؤيد ويهنئ ويضع أمواله في خدمة المعركة. لماذا لا يقبلونني وزوج إبنتي ممثلين في التليفزيون؟. أهديك مثلا قديما تعلمته من جدتي، وقد يفيد في حالتك. وما هو؟. آه، لما أنت أمير وأنا أمير، من الذى يسرح بالحمير؟. لا أفهم. ولا أنا. الملك في خطر فانقذوه. واحد شاي. اللعبة القادمة هي آخر لعبة، لو ذهبنا لهم وقلنا نريد أن نحارب فلن يمنعنا أحد. بل سيرحبون بنا في المعتقل. الملك في خطر. اصمتوا حتى نسمع نشرة الأخبار.

***

غادرت «الاوتوبيس» كما وصفت أمام مزلقان «عايدة». لماذا سموه هكذا؟ لا - أحد يعرف. عبرت شريط السكة الحديدية. سألت مارا: أليست العزبة هنا؟. قال : «عزبة بلال... أم عزبة الورد؟».

قلت : عزبة الورد. نظر بعينين عمشاوين إلى البيوت القريبة. قال : أعبر الشريط واتجه يمينا. شكرا. الشكر لله. تبدو البيوت طينية فما مدى ما تحمل العزبة من أسمها، ومتى تهب روائح الورد، وتكتحل العين بمرآه؟ هذه منطقة غريبة، كيف يوجد مثلها فى المدينة الضخمة ولا أعرفها. يا للقذارة! بيوت طينية كالحة. طافحة بالهم فأين الورد؟. هنئ نفسك على هذا التدهور الباهر. تأتى بلادنا كالسياح، فأين القبعة و «البايب»؟ برافو خواجة رأفت. هاو آريو How are You . تأتى لزيارة الورد يا خواجة؟. إليك إذن هذا المستنقع البشرى من القاذورات. طلمبات مياه للشوارع كما لو كنا فى قرية نائية. لمبات جاز تنطفئ، وإذن فلا كهرباء. كهرباء يا خواجة؟. أين المرآة لأبصق على وجهى لعله ينظف. نساء ممصوصات كأن الحكيمات قد أكلن لحومهن؟. تأمل هذه الفكرة. هل كانت أرداف «ضحى» بهذه الدسامة عندما دخلت المستشفى؟ ولماذا هزلت أرداف المريضات فى عنبر ٣ ؟. أكلت بنت الكلب أردافهن، شوتها، سلقتها، صنعت منها «إسكالوب»، أكلته، نمت أردافها، تمددت، سلطتها علىّ، فمتى يدعمون قوات الدفاع ضد الحرب الاليكترونية؟. إتسخ الحذاء بروث البهائم. تقتحمك العيون كأنها لم تر أفنديا ببدلة طول العمر. فصلتها بالتقسيط فلا يهولنكم أنها صوف انجليزى، باق علىّ قسطان. ورباط العنق؟ : هدية من صديقى زوج التليفزيونية. لابد من نقل البنت إلى المستشفى اليوم مهما حدث؟. أين الورد يا عزبة الورد؟. هذا ما قالته الدكتورة «وداد». رفعت منظارها الطبى فيا لجمال العيون، ولكن لماذا تبدو العين كما لو كانت زجاجا ملونا بإتقان ولا أكثر؟ قالت:

- تدهورت الحالة جدا يا أستاذ «رأفت»، وقد تصاب بنكسة مفاجئة تقضى عليها، لذلك أرى أن تقنع الأسرة بنقلها إلى المستشفى لكى نجرى

أبحاثنا فى هدوء. هناك سرير خال بعنبر ٢. حاولت إقناع والدها اليوم ولكنه صعيدى صلب الرأس، أرسلته إليك فلم يجدك. أرجو أن تغير خط سيرك وتزورها غدا..

نظرت إلى ما ظهر من ساقيها عبر المعطف الأبيض. أعلنت لنفسى نتيجة آخر معاينة: الفخذان ٩ على ١٠. أما وباطن الركبة بهذا اللين فلا بد أن معاينة النهد ستسفر عن ١٥ إلى ١٠.

قلت :

- وهذا يعطى فرصة لعلاجها، أليس كذلك؟..

بلهجة محايدة :

- أرجو هذا.

- هل هناك أمل فى ذلك؟

- لا مستحيل أمام العلم، ولكنها فى حاجة إلى عناية طويلة.

كنت قد حفظت العنوان، حاولت أن أستدل على لافتة الشارع بنفسى دون سؤال، ولكن يبدو ألا فائدة. نظرات فضولية تنفذ إلى رأسى مع رائحة بول نفاذة. مخاط وبصاق. نفايات خضروات. قطط تجرى وكلاب. ذباب أسود، أزرق، وأخضر. أين الورد يا عزبة الورد؟. شم يا خواجة. متع معطسيك بالروائح. تعودت على «بارفان» «كوثر» الباريسى. شمّ الآن رائحة عرقها. الصديد والبراز، جروح ملوثة بأربطة قذرة. الذباب يأكل عيون الأطفال. أم تضع طفلها الصغير فى المثلث بين قدميها المرتكزة على الأرض وقصبة ساقها. تهزه ليتبرز. تسلل سائل أصفر لزج. نزلة معوية ستقضى عليه خلال أيام. ما أجمل وردك يا عزبة الورد!. كيف حالك يا خواجا؟. هاو آريو؟ كومانت آلي فو مسيو رأفت؟.

عمن تسأل. عم مسعود الصعيدي؟. آه النصرانى؟. هناك عند الدكان فى آخر هذا الشارع. شكرا. بركة مياه آسنة، إسبح يا خواجة. إحص الدود وأنواعه: البلهارسيا والانكلستوما وكل طفيليات العالم. تحلم بمياه

«فيشى» «وكارل لومبارد». هاتى الميكروسكوب يا «دكتورة وداد». إجلسى على هذا الشاطئ الآسن. إخلعى المعطف الثلجى والفستان والسوتيان وكل شئ. إفحصى هذا العالم الوردى الجميل بميكروسكوبك. وزعى لحم أردافك الزائد يا «ضحى» على تلك الهوام البشرية. يومذاك نهتف بحياة العلم والعلماء. ونشرب الويسكى ليلة رأس السنة من هذه البحيرة المتخمرة. معتقة وحقّ كريز أوان النضج فى شفتيك يا كوثرتى، أنت نهر من أنهار الجنة، ولكن منبعه هنا. تعالوا نسبح يا أولاد الكلب. «الخواجا رأفت» يسأل الترجمان عن التماسيح فى نهر النيل. ورأس الخواجا ضخم، وفمه مثلث ضلعه نصف متر وزاويته حادة. وغدا سيحتفل بليلة رأس السنة. يبلع كئوس الوسكى، الكأس الواحدة بأربعين قرشا، ويهتف عند السكر بسقوط الفقر، ويتحدث عن العدل والحرية.

طرقت الباب فافتحوا، جاءكم الخواجا بأوراقه. إبشروا أصبح لكم ملف. هذا شرف لكم. تكتب أيدينا المرفهة الطرية أسماءكم السخيفة الملوثة بالغبار، على ورق كوشيه ١٠٠ جم. نظرة البنت التى فتحت مذعورة. آه ما أجمل العيون لولا الخوف من شر السكك. أنا «رأفت» من المستشفى. عشان حكمت. أجل. إتفضل. ظلام وعفونة، فلمن تشرق هذه الشمس الساطعة فى الخارج. تلمع الباروكة الشقراء فى الشمس فتضوى. أين «الورد» فى الندى المؤتلق بنور الفجر؟. «حكمت» نائمة فى الداخل. إخفض الرأس وإلا اصطدم، فهذا جُحر فئران وجراء صغيرة. يرتفع الصدر ويهبط. وشعرها الأشقر متبدد على الوسادة. العيون مغمضة. الوجنتان شاحبتان؛ إنتفاخ أسفل العينين. إفتحى العيون فإنى شبق للتطهر يا طفلتى. كلمى الخواجا الذى جاءك «بالملف» من بلاد الويسكى والبيروك والبوستيش والشارب الدوجلاسي. جئتك «بماء المحاياة»، لأرد إليك الحياة، كما تعل العفريت فى ألف ليلة. من أنت؟.. «ليزا».. آه.. أختها الذاهبة العقل؟. إحترس وإلا طالك جنون الورد. وتأمل هذا الدرس من دروس السعادة الزوجية. طفلة يتيمة بين الحياة والموت، مغطاة بغطاء صوفى مزركش وممزق؛

يسمونه فى قريتنا «حملا». قطع آلاف الكيلو مترات، ولعلهم وجدوه يوما ملقى فى الطريق، أو سرقوه. تفكر فى أن تكون ستائر شقتك أورجينال. ومرة فكرت فى أن هذا النسيج الصوفى الذى ينسجونه على أنوال يدوية ويصبغونه بأنفسهم، يصلح للستائر، ما رأيك الآن يا خواجة. يتركون طفلة مريضة فى رعاية مجنونة؟. أين «عم مسعود»؟. خرج؟. أين ذهب؟. يركّب حدوة لحمار الواد شلبى. هل سيغيب؟. لا، زمانه فى الطريق. تفضل. إفتحى العيون الهندسية فأنى ظامئ للصبا يا طفلتى. لا تردى عمك الخواجا خائبا. وأين ذهب الدم من شفتيك يا كريزاً قارب النضج فمن اغتاله؟.

عيناك يا «ليزا» واسعتان بالجنون، لا ينقصنى الجنون فحوليهما عنى. تأخر «العم مسعود». زمانه جاى.

– أنت كنت هناك.

– هناك أين؟

– أنا شفتك هناك؟. هناك أين؟. عند العدرا. أنا شفتها. كنت أقف هكذا. ليلة بطول الليل، رنّمت مع المرنمين. دعوت مع الداعين. تلوت المزامير. قلت يا عادره. كراماتك. الدنيا كانت برد. أنت كنت جنبى، مشيت كده. تنططت.. رسمت الصليب. الناس مشيت. فضلت لوحدى. «حكمت» كانت معايا. نامت. غطتها بديل الجلابية. فى نص الليل طلعت هناك عند قبة الكنيسة. أنا شفتها. أنت شفتها. صحيت «حكمت». قلت بعزم صوتى يا عادره. أنا عيانة. حكمت عيانة. بركاتك يا أمنا العدرا. وحياة «سانت تريزا»، رجعى لى عقلى. إشفى أبوى. إرزقيه يا عادره. داحنا غلابة يا عادره. غلابة وحياة ربنا يسوع. صوتك معانا يا أبونا غبريال. عيّطت. دموعى نزلت سح. أنت كمان عيّطت. قلت يا عادره. قالت أنت خاطية. زعقت : غصبا عنى يا أمنا. وحياة الرب غصبا عنى. ضحك علىّ. قال لى يابت جبت لك منديل بأويه. قلت له أنت بتضحك علىّ. عاوز تعمل قباحة.

قال لى المنديل حلو. قلت له أنت فاكر أننى عبيطة. فاكرنى مجنونة. برك فوقى يا عدرا. وقعنى فى الخطا، ومقام الرب غصبا عنى، قطعت المنديل ورميته فى الترعة. كان أحمر. والمسيح الحى ما أخذت منه شئ. زوّد يوميتى قرشين. كنا فى ورشة طوب فى أبو قرقاص. يا خسارة، غابت العدرا وراء القبة، كنت لسه بتكلم.. لم تسمع كلامى.. بكيت. بكت «حكمت».. أنت أيضا بكيت. قلت لحكمت.. ستأتى مرة أخرى، سأحكى لها مرة أخرى. وغلاوتك يا ست تريز كان غصبا عنى.. مرة واحدة فقط. لم أفعلها مرة أخرى. يا خرابى أنا أسد بين فخدى بالطين ولا أفعل هذا.

وولولت. ولولى يا «ليزا». عمك الخواجا يبكى، ولولى. هاتى حذائك أضرب به نفسى. لا حذاء لديك. ذهبت إلى الزيتون ماشية. إصرخى. أسمعينى هذا اللحن الطروب. أذنى يسكنها «الجازبند» ويعشش فيها كالبوم فى الخرائب. تجمع الناس. ضجيجهم فى الخارج: المجنونة جاءتها الحالة. ياوله. نادى «عمك مسعود» من هناك.

جارة جاءت : تعالى فى حضنى يا حبيبتى. معلش. العدرا زعلانة منى يا خالة. معلش. بكره ترضى. قالت إننى خاطية. صلى يا أختى. صلى. بسم الله الرحمن الرحيم. أنت من يا أخويا؟. أنا من المستشفى. أهلا وسهلا يا أخويا. لا مؤاخذة، عليها باسم الله الرحمن الرحيم أسياد. أجل عليها «أسياد». كله من «الأسياد»!.

«عم مسعود». أهلا وسهلا. «رأفت البشلاوى»، أخصائى إجتماعى بالمستشفى. أهلا وسهلا. جرى إيه يابت. جتها الحالة. العصا موجودة. يا مقدس مش كده، دى غلبانة؟. إرحمونى يا عالم. يارب كفاية بقى. أيوب كان نبى. أنا بنى آدم. أيوب حيا فى الآخر، مش كفاية بقى يارب. إتفضل يا أفندى بره. إسمك الثلاثى لو سمحت. «مسعود ميخائيل الصعيدى». الحمل يا بنت. إتفضل على المصطبة. جاء الحمل الذى كانت تتغطى به البنت. أحسست به يلذعنى فى مؤخرتى. صعيدى جدا ولكن رأسه لا يمكن أن تكون صلبة. فهى لا تحتمل ضربة واحدة بالكف لتفتت إلى ذرات من

الرمال. غنى مواويلك يا «عم مسعود». أسمع الخواجا «رأفت البشلاوى» أغانيك الفولكلورية، ليعود بها إلى شقته ويتدثر بالغطاء، يحللها ويدرسها. هات القراع فى رأسك، وقلب «حكمت» المتضخم، وصمام الميترال التالف، وبكارة «ليزا» التى ضاعت بمنديل رأس، لأقدمهم هدية رأس السنة للدكتورة وداد. لتدرس وتحلل وتكتب مقالها السادس للمجلة الطبية الأميركية. ذى أميريكان ميديكال مجازين. لاترو شيئا. هات أقدامك فقط. أضعها فى ملفى. أقدمها لهم. جاءكم الخواجا بأثر تاريخى. تحفة والله العظيم. وطهارة العدرا تحفة، تأملى يا ودادتى وأنت يا «ضحى» يا حكيمة، يا ردفية النظرات. هذه أقدام «مسعود الصعيدى» متشققة. متشققة. متشققة.. أخاديد باطنى القدم طويلة، عميقة، واسعة.. هاتوا المساطر وأدوات القياس، تحسب مساحة الأخاديد. ونتوءاتها. سُمك الطبقة السوداء الميتة. كمية ما شربت من تراب وعرق وأشواك وحصى. نطبق كل قوانين الرياضيات. لنصل إلى المسافة التى سارها. الفصول التى هاجر خلالها من «جهينة» فى أقصى الجنوب.. إلى هنا فى «عزبة الورد» المروى بالصديد والبصاق والمخاط.

الخواجا مرهق ويستأذن، إمتلأ الملف كتابة فهل تأخذ لهم عينة من الدموع المجففة، قال :

– هل ستأخذها معك يا أستاذ؟

لا، طبعا، أنت لا تدرى شيئا عن «العلاقة المهنية»، لسنا أصدقاء. أنت «عميل» وأنا أخصائى اجتماعى. مهمتى أن أساعدك لتتمكن من مساعدة نفسك، وحل مشاكلك معتمدا على نفسك فقط. لقد بصرتك بالخطر، وعليك أنت أن تأخذ القرار. هكذا يقضى العلم، وبهذا تقول قوانينه.

متهربا ..

– تعال بها فى أى وقت.. هناك خبر فى الاستقبال بأن لها سريرا.

وإذن دخول جاهز. سيوقعه الطبيب النوبتجى بمجرد وصولها. إسأل على التمورجية «منيرة». وستجد لديها كل الورق.

قال :

- ولكن... أصل...

تردد ولم يكمل. تهدل شاربه فى ذلة. قلت أنه يمنع نفسه من التسول.. مضى الخواجا. وضع الغليون فى فمه. والقبعة فوق رأسه. تشاو سنيور رأفت. جود باى. أوريفوار.

أشار الخواجة :

- تاكسى.

٤ صحيفة السوابق لمواطن طاهر الذيل

كورت «منيرة» ورقة اليوم الثلاثين من الشهر. بقيت ورقة آخر أيام العام. تحدثت «كوثر» بالتليفون. قالت :

- كل سنة وأنت طيب. هل تمر لتأخذنى فى التاسعة؟.

وعدتها بذلك. فلتهنأ باستقبال العام الجديد فى جنة الكريز، سابحا فى نهر الكوثر. فى تليفون آخر، طلب صديق آخر أن أشرف حفلته. اعتذرت بأننى مرتبط بحفلة أخرى. جاءت الدكتورة «وداد» فى يدها أوراق. قالت :

- هل تؤدى لى خدمة ؟.

- تحت أمرك.

وضعت الأوراق على سطح المكتب الزجاجى. قالت :

- هذه مقالة سأرسلها للأميركان ميديكال مجازين. وقد راجعتها مرارا، ولكن أخشى أن تكون هناك أخطاء مطبعية قد فاتت علىّ. هل تلقى عليها نظرة؟

أومأت موافقا. شكرتنى. تركت المقال على مكتبى. استدارت فى

طريق الخروج. الأرداف سبعة على عشرة. نسبة لا بأس بها. متى نرى بسمة حقيقية لهذا الكائن المتوحش؟. ما جدوى كل هذه الأفكار، أيسيئك حقا اهتمامها بالعلم؟. ليست هذه هى المشكلة. ولكنها لا تهتم بشئ آخر غير العلم. وهذا مزعج. وهى عند الباب:

- على فكرة، هل زرت «حكمت مسعود الصعيدى»؟.

قلت وأنا أقبس تكور صدرها، مزيحا الثياب :

- نعم، ووعد والدها بإحضارها اليوم.

- هل أطمع أن تزودنى بالبحث الاجتماعى لحالتها؟.

- أرجو هذا.

ها هى الأقدام المشققة فى الملف ولا شئ آخر. فكحلى عيونك الميكروسكوبية بها ولتراجع المقالة. برغم الخبرة المحدودة، فانها تتوصل إلى نتائج باهرة. لا تستطيع أن تنكر إهتمامها بعملها. فأين تكمن ثلجيتها الحقبقية؟ انتهيت. أين ملف حكمت لتكتب؟: سطور. سطور حبر أزرق كنهر، صاعد هابط. متلو. حروف. ألف وياء ونون. مصطلحات. قدم خفيفة تدق. أهلا «ضحى»، يا صباح الأرداف الثرية.

قالت :

- الدكتورة «وداد» فى العيادة تسأل عنك.

وحيدان فى الغرفة. التوتر يشحنها. الملف على المكتب. راديو ترانزستور فى يدها.

قالت :

- حدثت غارة على دهشور اليوم.

نظرت إليها مستفهما. يا بنت الكلب غضى البصر. وفرى نظرات الفجور، وإلا نضب معينها. ألا تعلمين فوائد الإدخار؟. قلت لنفسى : ما المانع؟. سألتها :

- هل مات أحد؟

- قال الراديو : ثلاثة قتلى وعشرة جرحى..

أغلقت الملف. كان الجو مشحونا بمتفجرات خفية. قلت مرة أخرى: ما المانع؟

قلت لها :

- غارتان فى يوم واحد. هذا كثير.

نظرت دهشة. قالت :

- ولكنها غارة واحدة فقط، متى وقعت الثانية وأين!

وضعت يدى فوق يدها المستندة على المكتب قلت :

- إنها تحدث الآن، هنا، عيناك تصبان نارا حارقة، نابالم، فليرحم الله.

بتهكم مفناخ، قالت :

- ولكن دفاعك قوى فيما يبدو..

قرصتها فى حلمة الثدى الأيسر، تأوهت، جرت مسرعة. قالت بصوت ذائب:

- أنت وحش..

وصلت إلى باب الغرفة، قالت بابتسامة مرحبة :

- الدكتورة تنتظرك فى العيادة.

***

عرفته بشاربه الفضى. أقدامه المتشققة العارية. على باب العيادة كان يجلس. قام. سلم علىّ. قلت :

- هل جئت بحكمت؟.

لهث بشدة، وجهه مرهق. قال بصوت خفيض :

- نعم يا أفندى.

- لماذا لم تأت أمس؟.

هز كتفه كأنه لا يجد إجابة. قال بعد لحظة :

- ليتنى جئت بها أمس. كانت ليلة الله لا يعيدها. صحوت من النوم على صوت «ليزا»، وهى تصرخ. قالت : قومى يا بنت نروح للعدرا. العدرا جاءتنى فى المنام دلوقتى. وجدتها ترقد فوق البنت المريضة. تكاد تخنقها. والبنت تصرخ بصوت ضعيف. قامت من فوقها وأخذت تقذفها بالطوب وكيزان الصفيح ومقشة قديمة، وكل ما وجدته تحت بصرها. قمت. أمسكت «ليزا». قيدتها بالحبل. ضربتها بالخيزرانة حتى كلت يداى ألقيتها فى ركن بعيد فى باحة الدار. لكن «حكمت» حالتها تأخرت جدا. بقيت طول الليل سهران. خشيت أن يفتكرها الرب دون أن يكون أحد بجوارها. فى الصباح جئت بها.

صمت، عاد يلهث، دخلت إلى العيادة. كانت راقدة مقطوعة الأنفاس. السماعة الباردة تتحرك فوق صدرها الطفلى الأملس. ضلوعها بارزة وصدرها يرتفع وينخفض كموج البحر فى يوم عاصف. وهذا الفحيح صوت تنفسها. آه خذى الهواء الذى أتنفسه، قلبى المعذب بما يحمل، ولكن كفى عن هذا الزحير المؤلم. الهواء ملء العالم فكيف يعجز قلبك الطفل عن استنشاقه يا وردتى؟. ومن ذا سوف يبتسم كالشمس كل صباح؟ جاءت «ضحى» بجهاز رسم القلب. نقلوها على عربة إلى حجرة الأشعة. عاد هو معى إلى مكتبى. جلس على المقعد مترددا.

دخلت الطبيبة بعد ساعة. ملامحها جامدة. قالت بصوتها النحاسى :

- كيف جئت بها؟.

وقف. قال بصوت مرتعش :

- راكبة والمسيح الحى. راكبة على عربة كارو. أكرمنا الواد شلبى بها ولم يأخذ سوى خمسة تعريفة ثمن أكلة الحصان.

قالت مقاطعة، وبهدوء :

- أنت رجل غبى، جاهل. كيف تعرضها لكل هذه الاهتزازات وهى تعانى من نكسة خطيرة، لماذا لم تحضرها فى تاكسى؟.

قال بدهشة :

- تاكس، ياريت ياست هانم... أصل .. أصـ..

بتأفف قالت :

- البنت ماتت..

لم يقل شيئا، نظرته فقط غامت، إبيضت عيناه.. إنقلبتا إلى رماد.. رماد.. تمتم:

- ماتت .. تاكسى.

كان صوت بكائه يأتى من خارج الحجرة. تهنهات عجوز متتابعة. تاكسى يا عم مسعود تى. ايه. اكس. آى. .T.A.X.I. رأسى خال من كل شئ.. فكرت فى أن البكاء قد يكون مناسبا. ونشيج الرجل مزعج. جلست هى خلف المنضدة تكتب شيئا. دخلت ضحى بالأوراق. هاجمتنى بنظرة منقضة. لم أكن مستعدا. كانت نظراتى ثابتة فى الفراغ. لم استطع أن أحولها، اعترضت نظراتها طريق عينى المركزة على الفراغ. شبكت نظرتها بنظرتى. كنت منوما أو مذهولا. تكلمت عيناها طويلا. ضاع العلم والقاموس الذى يحل طلاسم النظرات .T. A.X.I تى. إيه.. إكس، آى. فتحت الزرار الأول من معطفها الأبيض. فستان محبوك. ضيق. بقسو على نهدين مترعين، وضعتهما أمام بصرى.

رفعت الطبيبة رأسها من على الأوراق.. قالت :

- ما هذا؟. إذن الدخول. لا داعى له. يلغى كلية. لا نريد زيادة فى إحصائيات الموتى فى القسم. إكتبوها حالة استقبال فقط.

مضت الحكيمة. فكرت فى أن التماسيح تملأ نهر النيل برغم كل التكذيبات. وما رأيك فى قصيدة رثاء من النوع الجزل؟. وأنت يا طبيبتى،

إليك موضوعا للبحث لن يكلف مجهودا.. «والتركيب الكيمائى لدموع التماسيح». قالت :

- من حسن الحظ أننى تمكنت من تصوير قلبها قبل الوفاة وأجريت لها رسم قلب وكل التحاليل. أسفت لوفاتها. كان من الممكن أن تزودنا بمعلومات نادرة.

بعد لحظة :

- الجهل مصيبة كبرى. رجل كالثور. أرجو أن تزودنى بالبحث الاجتماعى. سأكتب المقال هذا الأسبوع. وسأذكر بالطبع مجهودك العلمى.

« هززت رأسى. أين السوط؟.

إخلعى ملابسك يا بنت الكلب. إبكى مرة واحدة بدمع حقيقى. سأضربك حتى تطفر الدموع من عينيك فأشربها. أشرب ملحها. أذوقه. آنذاك يهدأ القلب وتهمد كل الرغبات الشريرة».

- هل تسمعنى يا أستاذ «رأفت»؟.

- بالتأكيد يا أفندم.. سأنهيه اليوم.

***

أضاءوا أنوار العام الجديد. استقبلت لحظة الميلاد بين حبتى الكريز، فكيف نبت فيهما الشوك. طعم الويسكى غريب. خليط من اللبزول والفورمالين. بعد الكأس الثامنة كان مالحا. مركز الملوحة كدموع التماسيح. قالت حبات الكريز:

- ما هذه الأفكار الغريبة يا حبيبى. هل ذقت دموع التماسيح حتى تعرف طعمها؟

هابى نيويير. هابى بيرث داى. فى السكر تزعق الأصوات. «العام القادم تكونين أما يا «ضحى»، أريد وريثا لهذه الثروة الطائلة، والا أممتها حكومتنا ولديها أفكار بلشفية كصديقنا رأفت. «سيسبح فى نهر الكوثر

وينسى كل هذا». «موهوبة أنت وأيم الله، تليفزيونية وأنت ببطن أمك»
«اقترح أن ترشح نفسك لمجلس الأمة فى أقرب فرصة». «موافق». «سيسن
إلىّ حسن الامام دورا فى فيلمه الجديد». «مبروك». «وقد أغنى». (أنا
بايع نفسى للجهادية يا جدعان). (يا عدرا الحقينا يا عدرا). نهر النيل مليء
بالتماسيح. «نشرب كأسا يا ضحى فى صحة صديقنا رأفت». «فى
صحتك». (ألافوتر). حجزت صفحة فى الأهرام. ستصدر ملحقا إعلانيا
عن منظمة فتح. أريدك أن تكتب لى موضوعا إنشائيا من ذلك النوع الذى
كنت تكتبه فى أيام «السويس الثانوية». هه «يا عدرا.. إحنا غلابة»
(غصبا عنى ما كان يا عدرا). «خبالك سر بالزم هذه الليلة».

- «كأس أخرى من دموع التماسيح».

- خبالك سر بالزم يا حبيبى.. تعال أقدمك لصديقتى «ليلى». أنا
تظن أن شارب هير بوى فرند أجمل من شاريك». «غصبا عنى ما كا
ياعادره. منديل بأويه وغلاوتك يارينا يسوع».

- «أريد أن أسألك سؤالا يا حبيبتى»

- نعم

جسدها بارد ولكن ماسورة البندقية ساخنة. «الصحراء دى غا
قوى يا أبو رياض، دى كلت لحمه ياما».

- «لماذا لم تسأل سؤالك».

- تذكرت. «هل لديك يا كوثرتى فيش وتشبيه؟..

- «يعنى إيه؟».

- صفحة الحالة الجنائية... السوابق.

- أوه.. لا.. لا..لا.. سى ترو.

- أطاهرة الذيل أنت يا حبيبتى؟!. أرينى ذلك الذيل الطاهر.

«رجعى لى عقلى.. إشفى أبوى.. إشفى حكمت.. داحنا غلابة يا عدرا. غلابة خالص. غلابة وحياة ربنا يسوع».

- «أوه.. لا تكن وقحا. هل تريد أن تعرينى فى الحفلة؟»

- الويسكى مغشوش بدموع التماسيح.

- «أوه.. أنت سكران».

- «لا تريدين أن أعريك فى الحفلة فأين إذن أعريك؟».

- «تصرف بأدب».

- أرينى ذيلك الطاهر.

- «صوتك معانا يا أبونا غبريال..» .

- رأفت. هل جننت؟

- «صوتك معانا يا أبونا غبريال. صوتك معانا يا أبونا رأفت. يا أبونا رأفت يا بشلاوى. أنت رحت فين؟».

- «ألا تعلمين أن بنتى ماتت اليوم؟».

- «أنت مجنون»

- (كان اسمها حكمت؟).

(الواحد منا يعيش ويموت يأكل بالكاد عشرة كيلو لحمة ويمكن أقل، ودى واكله بيجى نص مليون كيلو لحمة، دا غير الدم).

«ويشيعونها الآن فى كنيسة القديس مرقس». «أتسمعين الأجراس ياحبيبتى».

(صوتك معانا يا أبونا رأفت، صوتك معنا يا أبونا رياض، صوتك معنا. داحنا غلابة. والمسيح الحى غلابه».

- السلام عليكم.

- «وات إذ ذات؟ What is That? إلى أين تذهب؟».

- الكنيسة بنتى ماتت ولابد أن أكون هناك».

- «رأفت»!!

«الوداع يا نهر الكوثر.. هذه قبعتى.. وهذا هو البايب. مات الخواجا لأن ابنته ماتت. أما هذه البصقة فلكى تسبح فيها التماسيح».

- «سوفاج. فلاح. وسخ».

- «يلعن أبو اللى خلفك».

....

عندما وصلت إلى مزلقان عابدة.. كان أول خيط من فجر العام الجديد يولد هناك عند الأفق. تنشقته بعمق. دلفت إلى عزبة الورد.

(١٩٧١)

مصرع طائر السمان المهاجر

« هكذا يمضى جبنك بلا عقب ... »

١ لهفة ما بعد الأوان

إلى شاطئ البحر قادتنى قدماى.. كان ذلك فى مهبط الليل. قلت أن هدير الأمواج سيمسح العناء بلا ريب. الصمت مطبق. أضواء «الليدو» تخدش بكارة الظلام. فكرت أن أعود فأجلس فى شرفته، أخافنى ضجيج الراقصين، وذكرى لقاء كالحلم يستكن طيفه فى مقدمتها المطلة على البحر. الهواء جاف كما ينبغى لجلال الصحراء الشاسع حولى. قلت أن شهور الخريف فى «مرسى مطروح» متعة للذين يريدون التأمل ولكن فيم؟.. ابتسم موظف الاستعلامات بسمة خارجة لتوها من تحت المكوى، قال :

- جاءتك مكالمة قاهرية، بحثنا عنك، لم نجدك على الشاطئ.

- كنت بالبلد..

- هذا ما خمّناه.. طلبوا أن تنتظر فى المساء.. الثامنة والنصف!

بالتحديد، كنت أعرف أنها هى، توترت طاقة أنفها الرومانية، اختلجت شفتاها، ومع ذلك سألت :

- من ؟

- مدام «عايدة مراد»

نقلت خطواتى. «فتحت رئتى». استنشقت الهواء. قالت عقارب ساعتى الفسفورية أنها الثامنة والنصف. رنّ التليفون طويلا. رفع موظف الاستعلامات السماعة.

- الأستاذ «حسنى» «خرج يا أفندم» أبلغناه بالموعد ولكنه اعتذر عن تلقى المكالمة..

على الطرف الآخر ألقت السماعة، أشعلت سيجارتها فى غضب. لم تبك. أعلم أنها لن تبكى. ربما قالت أن النهاية كالبداية، ولا جديد. لمست مقدمة الموجة قدمى. ماء دافئ. قلتُ أنه شرب شمس النهار فلماذا يفتقد جسدى الدفء؟. حمل الجزر الموجة ومضى. إستندت إلى عمود حاملِ للضوء. أطفأ نسيم البحر أول أعواد الثقاب، والثانى . كما كانت تفعل. تزم شفتيها الرقيقتين تنفخ فى عبث، تطفئ الأول والثانى..

- «عايدة».. كفى عبثا.

تخطف السيجارة نفسها.

- تتشاغل عنى بسيجارتك؟.

- وهل أستطيع؟

- تسرى عن نفسك وجودى، ثقيلة أنا إلى هذا الحد؟.

أحيط بيدى خصرها.. أضغطها إلىّ أقبّل جانب رقبتها الملساء. يتسلل إلىّ عبيرها : ذلك الأريج النفّاذ، خليط من التمر حنة والفل يحمله نسيم ليلة صيف. تندغم كلماتنا. لاشك أن هناك خطأ ما نرتكبه عندما لا نؤرخ لأحاسيسنا. فى وهج عينيها إكتشفت تلك الحقيقة. كأحد أبطال «الماراثون» الكبار قطعت أكثر من عشر سنوات فى نَفَس واحد. عدت

محملا بالفرح والأسى وخائب الأمنيات. واجهتُ عينيها الصافيتين الزرقاوين كسطح بحيرة ساكن، يموج أسفله بتيارات دافئة. دوامات تَشد. تُغرق. غفلت فى اللحظة الأولى عن المايوه البكينى الذى يحتضن جسدها. وأيضا لم أنتبه وأنا أغيب فى عمق عينيها عشر سنوات مرة واحدة. إلا أن نظرة العرفان التى كانت تُطلُّ منهما شابها بعض القلق. بيد أنها كانت أمامى، هى بنفسها، شاهد علَى أن الحصول على زهرة فى فراغ الصحراء أمل ممكن التحقيق وأن إحياء ميت الأحلام معجزة لا تحتاج إلى مسيح جديد. والبداية إستعدتها مئات المرات. ما حدث بأدق تفاصيله. بأصغرها. بأنفها، برنوة العين واختلاج الشفة. واهتزاز الرموش بانسحاب الإحمرار من أسفل الشفة إلى الوجنتين... فكل ملامح الوجه. فى هذه النقطة من بحر الرمال، حيث أقف الآن، على مبعدة من مبنى «الليدو» بخمس وأربعين خطوة فى اتجاه الشمال الشرقى. فى الرمال كنت مدفونا، فقدرٌ لى أن أبعث. داست قدم على قدمىً. صحت :

- فتّح ياحمار.. هل أنت أعمى؟!

فى اللحظة التالية كانت ملامحى الملوثة بالرمل تواجه عينيها. لبرهة قلت : يا لتفاهة الكلام، حمار... وأعمى أيضا. تَناول شراعك واسبح فى بحر العيون ألف ليلة بألف يوم، تدوخ، ترهقك الدوامات، مَاذا يكون الجنون غير ذلك؟. إنشق بحر الصمت والوحدة المحيطان بك عن حورية.. ولكن مهلا : نظرة العين فيها شئ جديد قديم، لحظتها بدأ الجرى فى الزمن بأقصى سرعة، بطلاً كنتُ فى اختراق الضاحية، ولكن ما أسرع الجرى فى مقلة عينيها، وحولك الشمس والبحر وحيرة الأعوام، وما الذى شلّ ذراعيك فجَبُنا عن الاحتضان، ثغاء الجالسين حولنا، أم شئ ما، هناك فى بحر العيون، وعند لحظة التيه، منع ذراعيك أن تواصلا السباحة. ولكنها هى، هى نفسها، يشهد بذلك كل شئ فيها. بالضبط لا أذكر ما قلت، أبله الكلام وأحمقه.

تمتمة غير مفهومة بالإسم. «عايدة» جمُدت نظراتُها وتحفظت. رفضتْ أولا أن تجلس. قالت :

- أقيم فى «ريم» حملنى الماء إلى هنا!

دعوتها إلى مظلتى، جلستْ فى كبرياء الملائكة، فإلى متى يطاردنا الذل، حيرة الأيام السابقة تطل، وأول ما رأت العين دبْلة زواج تشع فى ضوء الشمس. قلت إن هذا طبيعى وقد يكون بلا معنى... أما الجسم فإن الزمن لم يترك بعد بصماته عليه، مشدود وناعم، من مادة النشوة صنع. رأيته كثيرا فى ذوبان الحب القديم. قبلْتُ كلَّ مساحة فيه، فهل يذكر الشفاة الوالهة، أم أنه غادر كالأحلام التى قوضتها ضربة الحظ العاثرة...

- كيف أنت؟.

ضاحكة قالت :

- كما ترى..

- أزددتِ فتنة، وأصبحت جنوناً رسميا.

سحبتْ منشفتى، جففتْ جسدها. إحتضنها المقعد، إحتست بعضا من زجاجة المرطبات، ألقتها على الأرض بإهمال. قالت :

- تتقن الكلام كالعادة...

إبتسمت. قلت إنها ستبدأ الهجوم. فكيف تواجه فى زحام المعاناة، قارص الكلمات. بيد أن القلب ينشد العزاء ولو بفادح الألم..

- تبدئين بهجوم خاطف..

خلعتْ «البونيه» من فوق رأسها. انسدل شعرها على جانبى وجهها. ناولتها مشطاً. غرسته فى شعرها الطويل، بدأت فى تمشيطه. قالت :

- ولكن الانتصار على رجل عسكرى مثلك مشكلة!

غُصَّ حلقى بالكلام، هربت ببصرى إلى البحر.. إنكسر المشط فى غزارة شعرها. إشتريت لها واحدا من صبى مار.. قالت :

- ماذا تفعل هنا؟ أجازة؟.

- تقريبا؟.

- تتحدث الصحف عن جبهة مشتعلة بالنيران مع العدو.

ببطء قلت :

- أجازتى طويلة.. أحِلْت على الاستيداع.

توقفت يدها السارحة بالمشط، سألتّ باهتمام :

- ... تركت الجيش نهائيا؟.

- نعم..

- والسبب؟

- النكسة..

لم تسأل عن تفاصيل، انقبض قلبى، خشيت أن تنبش طرِي الجرح.. صمتت طويلا.. مدت يدها دون وعى، أخذت سيجارة من علبتى، أشعلتها،

- قلت إن تلك كلها عوارض الزمن الجديد، فهل تتاح لعين يوما أن تفض سرك المطوى، فى ذلك الملف بإدارة كاتم أسرار الحربية. حيث تكمن سطور قليلة تقتلك بالخزى. فمتى يهال التراب على كل شئ. «يحال إلى الاستيداع لسلوكه العسكرى المعيب أثناء الحرب». ومن السهل أن تقول: «لستُ وحدى،فلماذا. تلومنُ النفس». ولكن الأحرف تنهر كالمطارق. تمزقت كل الأحلام، حتى هذا الحلم المهاجر الذى عاد من عمق الماضى.. قلت :

- ماذا فعلت بك الأيام؟.

ضحكت، وكان الجرسون قد أتى بالقهوة :

- أوه... كثيراً جداً... لم نلتق منذ سنوات.

- عشرة، وربما أحد عشر عاما!

إبتسمت، عدت أسأل عما فعلت بها الأيام.

- الحكى صعب..

- مجرد عناوين.

إعتدلت فى جلستها، حَسَتْ رشفة القهوة. قالت :

- سنة من الحزن العميق بعد فراقنا. غمزات قاسية من الزميلات والزملاء فى الجامعة. لحظة تحد مفاجئة. سنوات دراسة عادية. ليسانس حقوق بتقدير جيد سنة ١٩٦١، الإدارة القانونية بمؤسسة تجارية. شعارات عملية «لازواج من الذين يفكرون فى شراء العفش بالتقسيط.. لا بأس من تجارب عابرة»، «والبحث عن مستقبل باهر بأقل جهد». سكرتارية رئيس مجلس الإدارة. سلام فكلام أولا، ثم نظرة منه فابتسامة منى. إهتمام دعانى بصحتة : ضغط وبروستاتا وجلطة. دعوة للنزهة. طبٌ كالرطل رغم أن وزنه ١٠٠ كيلو ومحيط كرشه متر ونصف. زواج فاخر. شهر عسل فى باريس. الصيف بين «بيروت» و«سان مورتيز»، وهذا العام «مرسى مطروح» مشاركة للوطن فى أعباء الحرب مع العدو. سيارة ضخمة يجد لكرشه فيها مكانا، ومرسيدس خاصة بى !

إبتسمت مرورا وأنا أتابع حديثها. قلت أن شيطانا تلبس كلينا، فأين هذا الكائن الذى يحسب الحياة بدفاتر الوارد والمنصرف، من شاعرية الزمن الذى مضى، وهذا التقدم فى العمر قد زادها فتنة، ولكن أين مراهقة إقتحام الحياة، وماذا دسَّ الزمن فى عقلها وكان من مادة الحُلم صنع. لعلها فى نحو الثلاثين.. قالت وهى تمضى :

- أشكر لك ضيافتك.

إستبقيت يدها :

- ألا تفكرين فى رؤيتى ثانية؟

باستهانة قالت :

- دعها للظروف..

- نتعش معا الليلة..

- لتكن غدا.

- وزوجك؟!

ضحكت ..

- ألف لجنة ولجنة.. الوزارة تقترب منه بسرعة.

مضت كحورية ظهرت من عمق الظلام. بدا الأمر حلماً لا يصدق. بيد أن لحظة ندم طافت بالقلب. لابد أن شيئا ما قد مات. متى يتفرغ القلب من شواغله ليرثيه، يذرف عليه مخزون دمعه الخبئ، وإذن فهذه «عايدة» : الحب والشوق والشعر وبواكير القبلات. كيف لم تؤرخ لأحاسيسك فى زحام الحياة. متى فرحت آخر مرة؟. حتى بلغت ذروة النشوة؟. نسينا؟. من الذى اغتال شاعرية الحياة بهذه القسوة؟. فى ذلك الزمن كانت تحب القطط. وأظن أنَّ قطها السيامى كان اسمه؟.. اسمه؟. لا أمل.. اندثرت بعض الملامح. وقلت لنفسى أننى سأخلو حتما لأوراق الماضى القديم، أستنطقه أن يبوح بسره المطوى، أن يطلق من القمقم بهيج الأحلام، ولكن أين هى الآن؟. فى شقة أمي بالسيدة؟. أم بشقتى فى شارع النيل؟. وسط الغبار والعنكبوت وذكريات قديمة أصبحت غذاء للصراصير. فما أشهى العواطف التى تغذت بها. ما كان أرقها وأعنفها. كانت تحسن الكتابة، غَزَلها فيك كان رقيقا وساخنا... وشدَّ ما خفق القلب لكلمة أو رنوة!

فى المساء كان العشاء.. يذكر الرمل كل شئ ويذكر البحر. فى ذلك التراس الخافت الأضواء. بدت فى فستان سهرتها الأنيق فتنة تدعو للصلاة والجنون، وأحاطها القلب، بترانيم وثنية صامتة. وعند الغياب الطويل فى بحر العيون، عُدْتُ بنظرة مريرة مستكنة هناك عند نقطة التيه من العيون. قلتُ أن الزمن لا يكسل عن ترك آثاره الحزينة، مهما غابت عن العين الفاحصة وإذن فأن شيئا ما يملأ شهوة الحياة بالمرارة. كما يبدو كيانى الممتلئ دليلا على السعادة، وهو حزمة من السقوط العنيف فى قبضة اللاشئ.. بدا مرحها مفتعلا. قلت أنها تحاول أن تتشفى.. وهى تشرب أيضا، طلَبْتُ النبيذ.. قلت:

- ما أفجع حزني على فراقنا فيما تلا ذلك من أزمان!

زمّت شفتيها الجميلتين، فكادت لحظة جنون تدفعني لالتهامهما. قالت :

- أكره العزاء المتأخر فهو تجديد لحزن بهت!

- أتكلم جاداً..

ببسمة، ورنوة عين :

- ولكنك سَلَوتَنا وعشقت المهاَ الأخر.

- مازلت تحبين الشعر. بيد أن أجمل المهَا أنتِ..

أشعلت سيجارتها بقداحة فاخرة، أطفأتها بدفقة دخان خرجت من شفتيها المزمومتين..

- هذا ما كنت تقول في الزمان الماضي، ولكن ذلك لم يمنعك أن ترفض الزواج مني..

- ولكني لم أرفض الحب

ضحكت.. وقالت :

- تعود إلى تلك المعادلة الصعبة.. كنت طموحا وتلك هي الحقيقة..

«نعم.. فكيف إنهار كل شئ بكلمات باترة ترقد الآن كشاهد قبرك في مكتب كاتم الأسرار».

- ليس الطموح حراماً.. ولكني كنت شابا طائشا..

هزت رأسها كأن شيئا لم يعد يهم.. وقالت :

- لقد أصبحت فيلسوفا، أو على الأقل بالنسبة لي، وكثيرا ما رددتُ شعاراتك : الحب شئ والزواج شئ آخر. لا زواج من الذين يشترون العفش بالتقسيط، الزواج عملية حسابية قد تصعد بك إلى قمة البرج وقد تخسف بك الأرض إلى وحل الاستدانة والحياة بالتقسيط..

تشاغلتُ بعدِّ حبّات اللؤلؤ في عقدها، لم يفقد صدرها نعومة الزمن الماضي، ولكن ترى ما ملأه من سود الذكريات؟!

- تذكرين أسوأ أقوالي..

بدفعة قالت :

- بل أصدقها ..

- تسللت قسوة إلى رقتك

ضحكت، و،قالت بعد لحظة صمت :

- فكرتُ أن أفعل مثلك وأترك الجامعة كما فعلتَ، والتحق بالكلية الحربية بحثا عن دراسة سهلة، وعمل مضمون وترق لا يحتاج إلا لبعض الفهلوة ولكن من المؤسف أنها لا تقبل النساء!

غبتُ طويلا وراء كلماتها، وقلت أنه كان من الممكن أن يحدث شئ أفضل. وأين ذهبت أمومتها الفياضة؟

- عندك أولاد؟.

هزّت رأسها نافية، قالت :

- إذا تجاهلت الأمراض، فان الكرش موجود، وهو حائل طبيعي كاف..

لفّنا صمتٌ متوتر، قلت أن العذاب ترصد مسيرتها، كما ترصدت خيبة الآمال في طريقي. وكانت الأنشوطة ذات صباح في «العريش». وفي الصحف يتحدثون كثيرا عن «النكسة» و «حزيران وما جرى فيه». فهل يكتشف المؤرخون يوماً مأساتي الصغيرة وسط هذا الطوفان من الفواجع، وتأملَ كيف أن القلب منذ لحظة كان ينشد النسيان، وها هو يبحث عن ذاكرٍ له فيما يلي من أزمان، فمن يفهم هذه الألغاز المحيرة..

أحاط «البوستيش» وجهها بهالة من السواد اللامع، وقد ثبتت «الأي لينار» يد مدربه، أما بقية المساحيق فكانت موزعة لتصنع لوحة،

ماأجملها على حائط قصر فاخر، ولكن ديمومة القُبل تنشد بكارة الطبيعة بلا غطاء.. ونحن نرقص قالت :

- أسرك ما قلته عن زوجى؟!.

كانت تحتفظ بمسافة بيننا ، قاومت محاولتى لاختصارها ، قلت :

- لا أدرى، لكنكِ كنت تنشدين الأمومة.

بمرح باهت التكلف :

- آه.. تلك الأحلام القديمة.. اخترنا إسم الولد.. والبنت.

- الولد «أشرف»..

- والبنت «سهير»..

- واتهمتنى بأننى أبحث عن أسماء سينمائية..

انتهت الرقصة. فى التراس قالت :

- «ممدوح» هو الذى اتهمك بهذا ؟.

تُوجِّه الضربات بأحكام مدرِّب، ترى هل تقصدها حقا فيهجم الماضى كهجوم الصيف ذاك فى موقعك الذى تركته للتفرج على ثلاجة «نورج» فى سوق غزة. رخيصة الثمن جداً. هكذا قالوا ، ولكنها كبّدتك كل شئ. قالت :

- ألا تذكر «ممدوح» ..

- أذكره طبعا..

- عزانى طويلا بعد هَجْرك لى، بيْد أنه كان قاسيا..

«ذلك الكائن الحاد. يطاردك شبحه فى كل مكان، صديق الطفولة واستشراف الحلم، وشريك السكن الواحد على عهد الطلبة فى الجامعة. أينَ هو الآن؟. مقابلة «التريومف» قبل عام كانت صَدْفيّة وقاسية، سلمتْ بفتور وسلّم بشوق ريفى، هزنىّ تدفقه بيْد أنه أبى أن يمد الحبال لينتشل الغريق، استمع بذهول إلى ما حدث.. ثم قال :

- سمعنا إشاعات كثيرة عما حدث فى الحرب، ولكن الحقيقة أبشع من كل شئ.

قلت : غلطةٌ لا تستعصى على الغفران لو شئت!

اهتز وجهه الجامد، شعره قصير ووجهه ضخم كما ينبغى لمن كان أبوه من منتفعى الإصلاح الزراعى.. قال

- إذا كانت تلك غلطة، فماذا تكون الجريمة..

سكت، قلت بعد لحظة :

- أنا ضابط صغير، مسئوليتى محدودة، لو لم أقصِّر لما تغير الأمر..

ضحك قائلا :

- كلام جميل.. ولكن واجبك كان أن تموت حيث أنت..

- ليس الموت سهلا كما تتصور..

صمت طويلا.. قال :

- ربّما كان هذا صحيحا، بيْد أن الشجاعة ليست عسيرة إلى هذا الحدّ..

قلت بيأس :

- مجرد كلام..

ضحك طويلا ..

- المسألة واضحة.. أقدامك تحركت تجاه ثلاجة «نورج» ومن الطبيعى أن تتقن العدو لكى تصل إلى الضفة الغربية قبل وصولها.

ترك الكلمة على المائدة، وورقة نقود ثمن ما شرب، وغابت قامته العملاقة فى الظلام..

قالت :

- هوه.. أين كنت؟.

- أين «ممدوح» الآن؟.

- لا أدرى. تعلم أنه لم يُكْمِل دراسته. دخل السجن فى العام التالى لتركك الكلية، ولم يغادره إلاّ بعدَ سنوات؟

صمتت مفكرة.. وقالت بعد لحظة :

- قابلت أخته فى العام الماضى، وأظن أنها قالت أنه فى «الأردن».

- الأردن؟!

- آه.. مع المقاومة..

.... لم أرد.. طال الصمت، كان وجهه الريفى يطل على المائدة.

قالت :

- ما رأيك فى أن نتمشى على البحر!

٢ أصداء الشَعْر القديم

على نفس هذه الأرض مشينا، فمن يستخير الزمن ما يحفظ من مشاهد. كان ذلك قبل عام.. وشمس سبتمبر حبيبه، وربما فى اليوم الثانى أو الثالث، جذبتُ كفها، ضغطت عليه، قاوم لحظة ثم استقر. تحدثنا كثيرا عن الماضى، لقاءات حديقة الأورمان والقناطر الخيرية، زياراتها الأولى لشقتنا، فكاهات «ممدوح» التى لا تنتهى. دعواته للمسرح والسينما. ومرة ضبط مشروع قُبلة، فأنسحب خَجلاً، فما كان أرقّه يومذاك. وربما فى اليوم السابع، رفعت رأسها إلى ظلام الشاطئ وعُدت - كما الماضى تماما - أغيب فى شفتيها. وفقط عندما أحاطتنى بذراعيها وضغطتنى إليها، تفجر الماضى كما لو كان أجمل ما سأعيش. لفّنا الصمتُ ونحن نتقدم. تركنا «الليدو » و «المينا » خلفنا، صاح صوت من الظلام.

- مَنْ هناك؟

ارتعد السكون، تحسست مكمن مسدسى فوجدته فارغاً.. قلت :

- من أنت؟

- تقدما..

صوته عجوز، قامته ضئيلة مَحْنِية، قلت :

- كنا نتمشى.. ماذا تفعل هنا؟

تقدمنا ساكناً، قال :

- حظكما حسنٍ، كدت أنام..

تبعناه صامتين، إلتصقت بى خائفة، أحطتُ خصرها بذراعى، تدفقت إلىّ من مس جسدها رغبةٌ جارفة فى الذوبان، همّت أن تتكلم، لثمت شفتيها.. فى عتمة القمر ظهر شبح خيمة كبيرة. أشعل الرجل عود ثقاب، ودخل..

- لحظة حتى أضئ الفانوس..

عندما دخلنا أخيراً، وجدنا أنفسنا داخل الخيمة، وسائد متعددة الألوان، دعانا للجلوس. قال :

- ظننت أن أحداً لن يأتى، تأخر الوقت.

تساءلت بعجب ..

- أيأتى أحد هنا.. يا عم؟..

- «عمار».. كثيرون... ظننتكما من زبائنى..

قالت «عايدة» :

- ألا تعرف زبائنك..

ضحك، بدا فى الضوء عجوزاً جداً ، قال :

- أوه ، النظر على القدّ، والسمع واهن، والذين يأتون كثير..

- وماذا يفعلون

مدّ يده.. كشف عن ثلاجة فى ركن المكان.. قال :

- لدينا كل شئ.. بيرة ومرطبات.. و..و..

تعلقت عيني بجوزة في ركن المكان قلت مشيراً إليها

- و... و....

ضحك وقال :

- نعم.. ماذا تريدان.

تهامست معها، تمنّعت قليلا.. أشعل الرجل الفحم في إناء فخّاري، تصاعد أزيزه عاليا. خلعت حذاءها، ألقته بعيدا.. أعطتني ظهرها، قالت :

- الفستان يكاد يخنقني.. إفتح السوستة من فضلك..

ارتجفت يدي وأنا أسحب السوستة إلى أسفل نصف فتحه، انشق الفستان عن جسدها الشهي انحنيت. قبّلته كالزمن الماضي.. قالت :

- لا.. الرجل بالباب..

ابتسمت :

- ولكنه عجوز... وشبه أعمى وأصم.

دخل الرجل، انهمك في عمله. كان هدير البحر يأتي من الخارج، تساءلت يومها : أين تعلّمتَ كل هذا؟. بيد أن السؤال طار فجاءة. ليس الجواب عسيرا. أيعجزك حقا أن تتصور كيف مضت حياة إمرأة مثلها، بالطبع لا؟.. ولكن مواجهة ذلك تبدو مؤلمة. بيد أن شيئا لم يثبت على حاله؟. أين «حسني» الزمن القديم؟. وأين «عايدة»؟. وأين «ممدوح»؟.. آه كالضرس الذي لا يكف عن الإيلام.. فمتى نخلعه ونستريح؟. كيف إنحدرنا إلى هذا المصير المفجع. ويوما قال : نحن لا نسعى إلى وجاهة، بل إلى رسالة، هززت رأس الفهم. قال : ودون ذلك حياة من النفي والتشريد والمعاناة، عُدْت أهزّ رأس الفهم، قال بشك: لا نفعل شيئا لأنفسنا، وقد لا نشاهد ثمرة تضحيتنا، بيد أن المستقبل لما نؤمن به ولو كنّا عظاما مفتتة. فما كان أقواه وأبسطه. في مقابلة «التريومف» تلك قال : بدأتَ بالخيانة وانتهيتَ بها ولا جديد في الأمر. مع أنفاس المخدر بهتت الأفكار، وكفّ ضرس العقل عن نزّ الآلام فبدا وجهه الغائب كاريكاتوري الملامح. والرجل

كالبحر صامت. وطريقتها في سحب الأنفاس أكّدت أنها لم تكن المرة الأولى، ولكن لا تكدر صفو الليلة بآلام لا مبرر لها، نحن بقايا ذلك الزمن القديم، وليس هو. من يحيى الموتى ويبعث العظام وهي رميم؟. غنت، «مريت على بيت الحبايب». صحت منْ يغني «أيها الراقدون تحت التراب». قطعت الغناء.

قالت : الجو خانق.

قال الرجل

- أأعدُّ لكما جلسة بالخارج؟!.

سحب بطانية وعدداً من الوسائد. انهمك في فرشها على مبعدة من الخيمة، قالت بصوت مخدر : السوتيان خنقني. فككت المشبك، تركته مدلى على ظهرها العاري، ملابسها التحتية خضراء. لوننا المفضل، وكانت حقلا بكراً يحلم بإنبات الزهور ويمتلئ بالخصب، فكيف يمضي هذا الجمال كله بلا عقب. ملأ الصفاء عينيها، سبحتُ فيها مطّوقاً بالبحار الصافية. لم تعد الملاحة عسيرة كما كانت. لحظة بعثت من مرقدي على شاطيء البحر على مشهدها. وعدتُ ذلك الملاّح الماهر ، يستجيب النهر لسباحتي، تهدأ أمواجه. يستسلم في عبادة صامته لصلاتي المتهدجة. في الخلاء نامت على وسادة. رفعت رأسها تتأمل السماء. قلت ما أسعدَ النجوم بسرحة هذي العيون .

قالت :

- أحبّ البحر في سبتمبر. في الفجر تمتلئ السماء بأسراب السمان المهاجر.. ما أجملها!

قال الرجل :

- يأتينا بالرزق.. (ثم بعد لحظة صمت) لا تؤاخذاني.. صحتي لا تحتمل السهر.. قبل أن تذهبا، إدخلا الأشياء إلى الخيمة.

أعطانا ظهرة ومضى، قلت :

- والنقود؟

- والنقود ؟
- ضعها بجواري.
- ألا تخشى أن نسرقك
ضحك وقال :
- أنت وذمتك.. (ثم بعد لحظة).. ولكن لا تتجها إلى الغرب... منطقة الألغام على بعد مائة متر.

.... غاب، إنطفأ الفانوس، عاد القمر يشع ضوءه الضنين فوقنا.

قلت :
- رجل غريب...
توقفتْ عن الغناء قالت :
- هل تزوجت؟
- لا..
- ألم تحاول؟.

تناولت منها السيجارة، مددت يدي الأخرى، أوسدت رأسها ذراعي...

- مَرة.. سافرت إلى بعثة بعد تخرجي، كدت أتزوج واحدة من بنات الفولجا ولكن الله سلم.

ارتفعت موجة عالية وَصَلنا رذاذها، كان دافئا. قلت بعد لحظة...

- كانت رغم جمالها عقائدية متحمسة، قالت إنني برجوازي صغير تافه الشأن فقلت لها رُوحي لأمك.

إرتفعت ضحكتها كموجة طفلة، وقلت أنها مُخدَرة تماما.. غنت قليلا

ثم قالت :
- كان هذا رأي «ممدوح» .. ولكنك كتبت مرة كلاما اشتراكيا ساخنا!

بعد صمت :
- آه.. كانت الخادمة تمسح النافذة به، فاستنقذته منها..
باخ حماسي، قلت ..
- مجرد أكل عيش، كنت أطمع لمستقبل سياسي مرموق..

.... لفّنا الصمت... عادت تغني... ذهبت إلى الخيمة، كان الرجل نائما كالطفل، وصوت تنفسه الهادئ يُدفيء المكان، امتصتني ملامحه، تبلدت أمامه، كاد عود الثقاب المضئ يحرق أصابعي، وهو نائم كان يبدو شابا عفيا رقّت تجاعيد وجهه تماماً، وعلت ملامحه ابتسامة صغيرة.. عُدت بزجاجة البيرة.. في ضوء القمر كانت راقدة.. عاريةٌ تماما، شعرها الأسود الطويل يغطي صدرها، وفي عتمة الضوء يلمع كيانها كله، صوتها الخافت كان يغني. هدير البحر من بعيد، ومهْبط الفجر، وأسراب السمان تستيقظ!

....

.. ونحن نعود في الفجر، نستنشق هواء الندئ. تحسس دفء ماء البحر بأقدامنا. ترى النور يبزغ من قلب زرقة البحر، وأسراب السمان المهاجر تطير آمنة على ارتفاع قليل حتى لتطولها الذراع الممدودة، كنت أشعر أن شيئا ميتا قد عاد إلى الحياة فجأة: لعلها مسرة يوم قديم استعصى على الذاكرة، كالنشوة البكر، وكلحظة قلت لممدوح صادقا: خذوني معكم. كان القمر شاهدنا الوحيد، وكان جسدها سخيا. بيد أنني حاولت أن أكون أكثر سخاء. وبرغم غيبوبة المخدر - وربما بسببه - حرصت أن أصل بها إلى قمة النشوة، في ضوء القمر كان وجهها يلتف بغلالات الشَعر، مستجيباً للحياة وفوراً بها. كالنهر والبحر والريح العاصف، وشلالات المياه، يتشكل في لحظة طويلة، بين ضحكة عامرة بالفرحة، وتهدج حزينٌ مفجع. بين صرخة انتصار عظيم، وكَسْرة هزيمة مُرَّة. بين الرحمة القاسية، والعذاب الحنون. حتى ما قلناه من كلام مدغم لا يبين يدغمه إحساس طاغ بأنه يستحيل أن يصف شيئا لا يوصف. حتى عندما أصبح صريحاً واضحاً. إقتلع الحياء والخجل

والتحفظ، وأسرار الآخرين، حتى كل هذا كان مجرد أصداء للشِّعر القديم، وبعض أطياف الحلم.

ونحن ملتصقان تماما، تعبث أقدامنا بالمياه، نمشى ولا نمشى قلت :

- هل أنت نادمة؟.

شدّت يدها التى تحيط بخصرى، قبلتُ ما طالته من قامتى، كتفى .

قالت :

- أبدا.. وأنت؟

طوّقتها، رفعتُ فى مهبط البحر وجهها، غبنا فى ديمومة من القبل، قالت ورأسها على كتفى.

- فكرت مرة بعد افتراقنا أن أذهب إليك.. أعطيك نفسى.. ليكون لى منك ولد.

قلت أن رغبتها فى الأمومة لم تفتر أبداً.. بعد لحظة قالت :

- كنت إبنى الوحيد.. ولكنه عاق..

قبّلتُها. أكملت

- دمرت نفسك، ودمرت أمك أيضا..

ضحكنا.. كان السمان المهاجر يملأ سماء الفجر... ونحن نمضى فى الطريق.

٣ زائر الغسق

كان هذا منذ ثلاثة شهور فقط، فكيف هان على القلب أن يهجرها، وكيف تَصم الأذن عن صوتها المنادى باللهفة، وقد أنهت كل شئ. ستقول : دمّر حياتى فى البداية ويدمرها فى النهاية. شعرة بيضاء تتسلل إلى سوالفى. وأسراب السمان المهاجر تملأ سماء البحر، بينما هجره الناس أو

كادوا. فى شقة شارع النيل تبدت كما كانت فى الزمن الماضى، أعادت ترتيب الشقة، جددت الديكورات وغيّرت أماكن الحجرات، أزالت الغبار عن المكتبة ووسّعتها. فى غروب كل يوم تدخل بالاسطوانات والكتب. تزايدت ملابسها حتى احتلت جانبا من الدولاب. تطهو الطعام وتتناوله معى فى أغلب الأيام، لم تناقش شيئا، فكل شئ كان يبدو مفهوما،. يوما قالت :

- سأطلب الطلاق.

كانت جالسة على مقعد فى الشرفة وأصابعها تتحرك بأبر التريكو فى سرعة ألقيتُ الجريدة .سحبت مقعدا، تقدمت نحوها، قالت :

- إلبسْ جاكته البيجاما..

- الجو حار...

- لا تخرج إلى الشرفة وأنت عرقان..

- لبِستُ جاكتة البيجاما بإذعان

تساءلت بتردد :

- وهل يوافق؟

بعد لحظة صمت قالت :

- سأصنعه بالحقيقة كلها إذا إعترض.

ترددتُ لحظة ثم قلت :

- ولكنه يستطيع الإضرار بك..

باستهانة قالت : لا يهم..

- وربما بى.

توقفت يدها المتحركة بأبر التريكو قالت :

- يجوز، ولكن هذا لا يهم..

طافت بالقلب مخاوف. حسبت معاشى بدقة، قلت :

- ألا يمكن أن نستعين به أولا.. قبل أن

أدارت ظهرها للنيل، واجهنى صفاؤها كله، كان قميص النوم الخفيف يضم جسدها الرقيق وخطوطه تتنهد ببطء داخله، كوّرت شعرها إلى الخلف، نظارة طبية أنيقة تكسر عمق نظرتها الشاكة المستفهمة. قلت بإغراء :

- بوسعه، بتوصية منك، أن يسهل لى العمل فى التصدير والاستيراد.

قالت باشمئزاز لم تفلح فى إخفائه:

- لا ... لا داعى لهذا ...

قلت إن الموضوع كان مفاجئا، ولعلّى لم أحسن عرضه، ولو تم لأطمأننت على الماضى والمستقبل، وبوسع المال الوفير دائما أن يُخفى العيوب، حتى لو كانت تلك الكلمات المختفية فى مكتب كاتم الأسرار. عادت إلى عملها فى صمت. قلت : ما أسعد أن يظل كل شئ على حاله الآن، تأتى وتذهب. يتحمل زوجها مسئولياتها كاملة. وأضمن أنها لى بأكملها. لا يشاركنى فيها أحد، حتى ذو الكرش المهول.

مع لحظات الغسق الأولى، وقفت تقيس البلوفر. شبكت مقدمته بالدبابيس. انحنت تقيس الطول. هممت بتطريقها. زاغت منى. دقّ الجرس وكانت بجوار الباب. هربت لتفتحه. فوجئت بضابط صديق. إرتبك كلاهما. قال:

- أليست هذه شقة «الرائد حسنى»..

- نعم.. تفضل...

دخل بتردد، استقبلتهُ بترحاب. قدمته لها. قبل أن أكمل التقديم قال بريفية مندفعة:

- تزوجت أيها الغادر دون أن تدعو أحدا..

قالت بلباقة :

- تزوجنا فى «مرسى مطروح».. ولعلك أيضا لم تكن هنا...

خلع «الكاب» وضعه على المنضده، قال :

- ولكن الإنسان فى حاجة إلى فرح، موسيقانا مدفعية ثقيلة.

إنسحبت بخفة. عادت وقد ارتدت روباً فوق قميص النوم وصففت شعرها تدفع أمامها عربة شاى صغيرة. فى الشرفة جلسنا. تحدثنا طويلا. إنحنى على، همس :

- زوجتك لطيفة ومثقفة.. ولكنك غادر لأنك لم تعرفنا بها..

قلت :

- إنها قريبتى، وقد تزوجنا منذ فترة قليلة..

تحدث طويلا عن الجبهة، «والديفرسوار» «والكليو ١٩» ، «والمعدية»، «والجزيرة الخضرا». روى طويلاً عن الشاويش «سعدان» فضحكت «عايدة» سألته تفاصيلا لكنه إلتزم جانب الحذر. لم أتكلم. كان حديثه ينشر جسدى، هممت أن أساله عن بعض الأصدقاء، من دفعتى، ولكنى خجلت. روى أكثر من فكاهة. قلت إنه شاب ريفى. بدليل تكسر أواخر كلماته فمن أين أتى بهذه الثقة كلها.

شرب كأسا واحدة، وقال

- كفاية.. الله يرحم أيام زمان، سأسافر فى الفجر (واشار إلى رأسه وأكمل) ولابد أن يبقى هذا صاحياً، وإلا أطارته دانات عمك «ديان» العورا،

إرتخت يدى بالكأس. ضحكت عايدة بمرح. إمتزجت ضحكتها الطفلة، بقهقهاته الريفية الخشنة. شاركتهما الضحك عنوة، قال بعد لحظة :

- ألا تفكر فى العودة إلى الجيش..

قلت بدفعة :

- ولكن هذا غير ممكن

- أظن أنه ممكن ببعض المحاولات الجادة..

- قد يرفضون !

- أنت لم تحاول ولا مرة..

ثم بعد لحظة :

- من الطبيعي أن يزوروا عنك مرةً ومرة.. ولكن الإلحاح مفيد.. وإذا تحقق هذا فاستعادة الثقة المفقودة تتطلب مجهودا يجب أن تبذله.

تابعت «عايدة» المناقشة باهتمام جدى. أسهمت فيها سائلة عن التفاصيل.

هممت أن أبعدها عن المناقشة. ولكنه إهتم بأسئلتها وأجاب بإفاضة.

قلت : والأكاذيب التي أخرجوني بسببها.

قال بابتسامة مُحْرِجة ...

- نحتاج إلى روح جديدة، لابد من مواجهة الخطأ، الأمر لا يتطلب إلا بعض الشجاعة وهي ليست عسيرة..

- أفكر في عمل تجارى..

- نحن عسكريون، وظيفتنا أن نقاتل، وبالذات في هذه الظروف، يفكر التجار في أن يحاربوا، فهل نفكر نحن في أن نتاجر..

قالت بعد انصرافه

- فكرة طيبة.. حاول أن تنفذها..

لم أرد... قالت :

- بوسعنا أن نبنى كل شئ من جديد، ربما كان رسولا جاء يجس النبض؟.

ثم وهي تواجه ظلام الشارع :

- كرهت هذه الحياة، وأطمع في حياة أخرى، والطريق أمامنا ملئ بالإمكانيات.

ثم بعد لحظة صمت

- لابد من هذا.. «أشرف» في الطريق.. وربما «سهير»..

- هه.

ندت الصرخة قبل أن أمنعها، فأكملتُ بدفعة :

- كيف حدث هذا، ظننتك احتطت للأمر .

خَبَت فرحتها، تجمعت نُذُر التوتر في الجو، وفي الخارج كان الظلام مطبقا إلا من ضوء أزرق تشعه مصابيح الطريق. قالت :

- فعلت ذلك في الشهر الأول فقط، ثم أوقفت أي احتياطات.

- ولكن...؟

أحاطت وجهي بكفيها. كنت مطرقا حذر عينيها، وضعتْ نظارتها على المنضدة. رفعتُ رأسي، واجهتني عيناها، غبت فيهما لحظة، هناك في أقصى العمق كانت عكاره هم قديم تتحرك.

قالت :

- هذا حُلم عمره عشرة أعوام.. وأنا سعيدة لأنه تحقق..

ضمت رأسي إلى صدرها. أرحت رأسي المثقل في ليونة ثدييها..

قالت :

- أنت طفل كبير.. ومع ذلك سيكون لك أسرة وأولاد وبنات، وعليَّ أن أتولى مسئوليتكم جميعا.. فليعنى الله..

....

أيمكن أن يحدث هذا؟.. من يجيب؟ : الرمل والصحراء ومياه البحر، ومتى ينطق هذا الصمت المحيط بك. وكل شئ يبدو قابلا للحل فلماذا لا تقدم؟. الطلاق : وهي أدرى بظروفه. العودة للجيش : ممكنة مع بعض التحمل. تغسل العار القديم وتحرق إلى الأبد تلك الورقة المودعة بمكتب كاتم الأسرار..

بعدها بأيام قال صوتها في التليفون :

- قلت لزوجي كل شئ؛ ثار بقدر ما تسمح به الجلطة، طلب أن أتخلص من الجنين مقابل أن يعتبر الموضوع منتهيا؟.

- وماذا قلت؟

- رفضت طبعا، سيذعن أخيرا..

- ولكن...

- قال أن الأطباء الأصدقاء كثيرون فكدت أبصق في وجهه..

كانت فَرِحة. لم تنتظر أيّ إجابة. قالت كأنما تذكّرت أمراً..

- على فكرة.. عاد «ممدوح» من السفر في أجازة قصيرة..

- عال ...

- سأزورهم اليوم، ألديك مانع أن تدعوه إلى العشاء غدا؟!.

ترددت قليلا.. قلت :

- ليكن بعد ثلاثة أيام..

«.... ذهبا في الموعد لا ريب، فلم يجدا أحداً.. فماذا قالت وماذا قال؟» . وكيف فسّرت رفضك الرد على مكالماتها، وإلى أين ينتهي بنا الهروب؟..

....

قال موظف الاستعلامات :

- إتصلت المدام في الثامنة والنصف... وأبلغناها الرسالة !

هززت رأسي. تقدمت في اتجاه البار، جلست وحيداً. حاول «البارمان» أن يجاذبني الحديث، كان الصمت داخلي يتكلم.. مضى شطر من الليل.. انتقلتُ إلى الشرفة مرة ثانية.. إنحنى خادم نوبي بصينية فضية أمامي، قال يوقظني من شرودي:

- برقية لك..

فتحتها بكسل، وضعت بعض النقود على الصينية - كانت برقية عزاء...

- «أشرف» و «سهير» ماتا، لا ضرورة لحضورك. قام زوجي

بالواجب «عايدة». ضحكت مُرورا وبلا صوت. كان البحر يموج على البعد إنتهى الأمر : لا حزن ولا فرح ولا شئ. من يشترى اليأس ولو كان باخساً إذن لأصبحنا من الأغنياء. مات «أشرف» و ماتت «سهير». أجهضت نفسها أو أجهضها الوحش. هكذا يمضي جُبنك بلا عَقَب، والضعف مرض قد يكون وراثيا. ترى ماذا تقول الوجوه إذا ما التقت مرة أخرى، والبحر هامد لا يقول شيئا، لا يهمس النسيم بكلمة... وتأمل الخمر الزاعقة داخلك بالبلادة.. إلى أين ومن أين؟.

- مَنْ هناك؟..

- أهلا.. كيف أنت «يا عم عمار»..

بدا شبحه مختفيا في العتمة، وكان القمر بدرا سبتمبريا، قادني إلى الخيمة. أشرت إليه. بدأ العمل في صمت. وهو يناولني الغابة طافت بالنفس ذكرى أمومتها الفياضة..

- ألا تذكرني «يا عم عمّار»؟

- كثيرون يأتون ويذهبون..

- ولكني قضيت ليلة هنا في الخريف الماضي.. وكانت معي زوجتي..

- كثيرون يأتون ويذهبون..

- وأنت ... ألا تذهب؟

قال وهو يُسَلِّك الغابة :

- لا.. أنا هنا من زمن طويل..

- متى؟

- سنوات لا تعيها الذاكرة.. جاء كثيرون ومضوا، شاهدت «روميل» وزرته في مخبأه ورأيت «رتشي» و «مونتجمري» وكان سمينا كالعجل.

ضحك ضحكة قصيرة.

- لماذا تعيش بعيدا عن العمران؟.

أشار إلى الغرب قائلا :

- كنت أحرس حقول الألغام قبل تسويرها، ثم طابت لى الإقامة.

كان جلبابه رقعا ملونة، تأملته فى عجب، قلت :

- وكيف تعيش؟

أشار إلى موجودات الخيمة إشارة عامة ثم قال :

- وفى الخريف نصيد السمان المهاجر. يعود الشبك محملا به، ونشويه لمن يريد!

- فقط..

- وتتبرك بى أحيانا نساء عقيمات فيرزقهن الله بنينا يسمينهم باسمى لذلك ينتشر فى كل الأنحاء.

قلت..

- هل تداوى العقم؟.

- بركتى لا تخيب.

خرجت إلى باب الخيمة.. كان القمر ساطعا يكشف مساحة عريضة من الصحراء. وعلى البعد كان حقل الألغام مسورا. وعلى بابه لافتة سوداء صغيرة غابت وراءها نظرتى الشاردة وقتا طويلا. أسراب السمان تقف مستريحة من عناء الهجرة على الشاطئ.. والبحر هادئ وساكن.. قلت :

- ألم تشاهد يوما جنديا هاربا من الحرب يا «عم عمار».

- أووه.. كثيرون. ومَرة قتل الكابتن سبعة جنود حاولوا الهرب.

- قتلهم؟.

- آه قال إنهم سيخلخلون الصفوف.

لفنا الصمت لحظة. فرش لى بطانية فى العراء. قال :

- سأذهب لأنام.. تعرف ما ستفعل..

امتدت اللحظة طويلة.. طويلة..

قمت. مشيت بخطوات سريعة. قبل أن أصل باب الحقل قلت : ليست الشجاعة عسيرة إلى هذا الحد..

سمعت صوته ينادى ولم أعرف إلى أى اتجاه تشير يده.. وهل كان يطلب منى أعود أو أن أتقدم. قلت :

- ليست الشجاعة عسيرة إلى هذا الحد..

دلفت عبر المسلك الشائك بخطى ثابتة. قرأت اللافتة «حقل ألغام.. خطر الموت».

كان الفجر يولد، وأسراب السمان المهاجر تبدأ رحلتها إلى الجنوب.

(١٩٧١)

الفهـــرس

كـــتب للمؤلـــف

١ - الثورة العرابية

الطبعة الأولى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٢. (نقد)

الطبعة الثانية - دار المستقبل العربى القاهرة ١٩٨٢. (نقد)

٢ - حكايات من مصر

الطبعة الأولى : دار الوطن العربى بيروت ١٩٧٤. (نقد)

٣ - البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة

الطبعة الأولى: دار بن خلدون بيروت ١٩٧٩. (نقد)

الطبعة الثانية: مطبوعات الثقافة الوطنية القاهرة ١٩٨٠. (نقد)

٤ - مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا [رواية].

الطبعة الأولى : دار بن رشد بيروت ١٩٨٠. (نقد)

٥ - فلسطين [الأرض والمقاومة] [بالاشتراك مع خيرية قاسمية وحسناء مكداشى].

الطبعة الأولى : دار الفتى العربى. بيروت ١٩٨٠. (نقد)

الطبعة الثانية : دار الفتى العربى. القاهرة ١٩٨١. (نقد)

٦ - محاكمة فؤاد سراج الدين [دراسة ووثائق]

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولي. القاهرة ١٩٨٣.

الطبعة الثانية : دراسة المؤلف التى قدم بها لنصوص المحاكمة، وقد صـ
مستقلة بعنوان [البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة] دار التنوير. بـ
١٩٨٢.

٧ - هوامش المقريزى : [المجموعة الثانية من وحكايات من مصر»].

الطبعة الأولى : دار القاهرة - القاهرة ١٩٨٣. (نفد)

٨ - رجال مرج دابق [قصة الفتح العثمانى لمصر والشام].

الطبعة الأولى : دار الفتى العربى. بيروت ١٩٨٣. (نفد)

٩ - مثقفون وعسكر: [مراجعات وشهادات وتجارب عن حالة المثقفين فى عـ
عبدالناصر والسادات.

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولى. القاهرة ١٩٨٦.

١٠ - الكارثة التى تهددنا : [مراجعات تاريخية ضد أهلية البرجوازية المصـ
لقيادة الحاضر وصنع المستقبل].

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولى. القاهرة ١٩٨٧.

الطبعة الثانية : دار عيون الدار البيضاء ١٩٨٨.

١١ - تباريح جريح [خواطر وذكريات].

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٨٨.

١٢ - حكايات من دفتر الوطن.

الطبعة الأولى : كتاب الأهالى ١٩٩١.

تحت الطبع للمؤلف

١ - أفيون وبنادق: [ظاهرة العنف الجنائى والسياسى فى مصر - نشرت مسلسلة بمجلة ٢٣ يوليو - لندن ١٩٧٩).

٢ - البرنسيسة والأفندى : (قصة غرام الأميرة فتحية ورياض أفندى غالى).

٣ - مأساة شكرى مصطفى الحقيقية.

٤ - أسطورة فرج الله الحلو : (وثائق التحقيق فى قضية تعذيبه وقتله مع دراسة عن حملة عبد الناصر ضد الشيوعية).

٥ - اغتيال مصطفى خميس : (الصدام الأول بين البروليتاريا والعسكريتاريا).

٦ - الصحافة المصرية فى معركة الديمقراطية : (١٩٥٠ - ١٩٥٤).

٧ - صك المؤامرة: (قصة وعد بلفور - بالاشتراك مع جميل عطية إبراهيم).

٨ - مذكرات عرابى باشا وأوراقه [تحقيق وتوثيق - ثلاث مجلدات].

٩ - عبدالرحمن الجبرتى... الانتجلسيا المصرية فى عصر القومية.

تعريف بالمؤلف:

O ولد في أكتوبر ١٩٣٩ بقرية «بشلا» إحدى قرى محافظة الدقهلية بمصر.

O حصل على بكالوريوس في الخدمة الاجتماعية عام ١٩٦١، وعمل لمدة خمس سنوات، رئيسا لعدد من الوحدات الاجتماعية في قرى محافظة القليوبية، إلى أن فصل من عمله عام ١٩٦٦، بسبب آرائه السياسية.

O اعتقل لأول مرّة في أكتوبر ١٩٦٦، بسبب سلسلة مقالات كتبها في مجلة «الحرية» اللبنانية، وأعيد اعتقاله في مارس ١٩٦٨، وقبض عليه فيما بعد على ذمة قضايا لم تقدم للمحاكمة في سنوات ١٩٧٥، و١٩٨١، وكان بين الذين قبض عليهم في حملة سبتمبر ١٩٨١.

O بدأ ينشر مقالاته في الصحف عام ١٩٥٦، ومنذ ١٩٦٢ بدأ ينشر كتاباته في الصحف المصرية والعربية بانتظام. وفي عام ١٩٧١ عمل بجريدة «الجمهورية» إلى أن فصل منها عام ١٩٧٧، أثناء هروبه من مطاردة الشرطة بسبب اتهامه بالمشاركة في التحريض على انتفاضة الطعام في ١٨ و ١٩ يناير، وظل مفصولا منها لمدة عشر سنوات.

O شارك في تأسيس الإصدار الثاني لجريدة «الأهالي» عام ١٩٨٢، ثم أصبح مديرا لتحريرها عام ١٩٨٦، إلى أن استقال في مايو ١٩٨٨. وشارك في تأسيس ورأس تحرير «الثقافة الوطنية» - ١٩٨٠ - و«كتاب الأهالي» (١٩٨٣) و«الصحفيون» و«اليسار» (١٩٩٠).

O صدر له ١٢ كتابا في التاريخ والفكر السياسي والاجتماعي، والأدب. وله تحت الطبع ١٠ كتب أخرى.